ما الذى ينقص المسلمين ؟

الجزء الأول

د. محمد المنسى

ما الذى ينقص المسلمين

الناشر: مدبولى الصغير

٤٥ شارع البطل احمد عبدالعزيز

تليفون: ٣٤٧٧١٠ . ٣٤٤٢٢٥٠

المؤلف: د. محمد المنسى

التنفيذ الفنى: مكتب فيوتشر ٣ شارع مخلوق بالدق

المشرف الفنى: محمود عبدالمقصود

رقم الإيداع: ٢٠١٤٠/٢٠٠٥

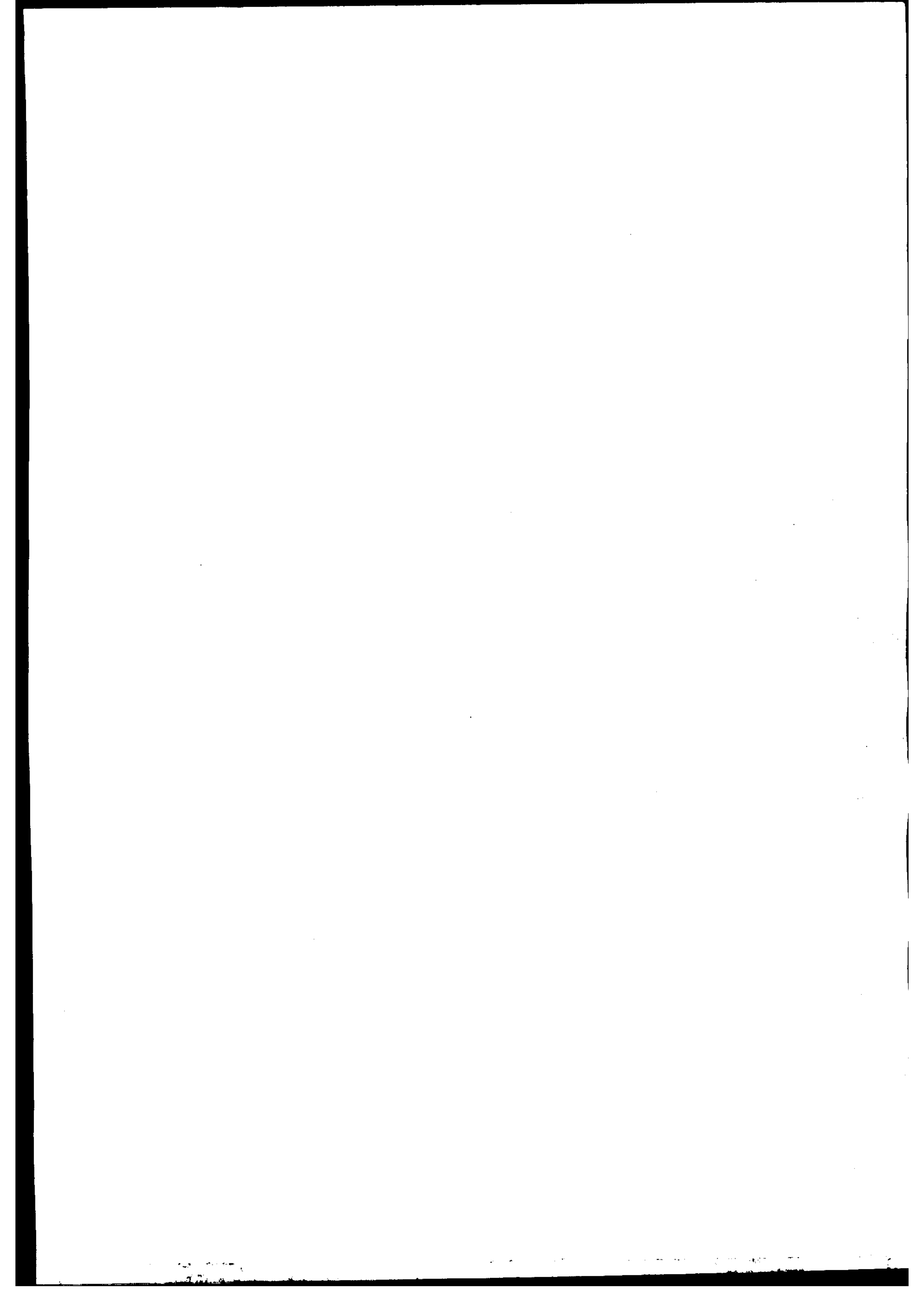
977-286-196-8 :I.S.B.N

د. محمد المنسى

ما الذى ينقص المسلمين؟

الجزء الأول

مكتبة مدبولى الصغير



قد أجمع الحكماء على ان أهم ما يجب عمله على الآخذين بيد الأمم ، الذين فيهم نسمة مروءة، وشرارة حمية، الذين يعرفون ما هى وظيفتهم بإزاء الإنسانية، . أن يسعوا فى رفع الضغط عن العقول لينطلق سبيلها فى النمو فتمزق غيوم الأوهام التى تمطر المخاوف..

عبد الرحمن الكواكبى
(طبائع الاستبداد)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

إن المراقب لأحوال المسلمين، الخاصة والعامة، الفردية والجماعية، يجد فجوة كبيرة بين الإسلام والمسلمين.

فبينما يدعو الإسلام إلى القوة والعزة... نجد المسلمين أضعف الناس!

وبينما يدعو الإسلام إلى الوحدة والتجمع... نجد المسلمين متفرقين مشتتين!

وبينما يدعو الإسلام إلى العلم والأخذ بأسباب التقدم... نجد المسلمين متأخرين عن غيرهم!

وبينما يدعو الإسلام إلى الشورى والحرية... نجد المسلمين يعيشون على الاستبداد والقهر!

وبينما يدعو الإسلام إلى النظام والتخطيط والإعداد لكل شيء نجد المسلمين أكثر الناس فوضى وارتجالا!!!.

وهكذا لو تتبعنا سائر الأحوال، لوجدنا الفجوة بين الإسلام والمسلمين ما تزال ـ للأسف ـ كبيرة، وأن عقيدة التوحيد تخسر كثيرا كل يوم بسبب ذلك، الأمر الذى يفرض علينا أن نبحث العوامل أو الأسباب التى أدت إلى هذه الفجوة، كى يستعيد المسلمون دورهم الحضارى ويتبوأوا المكانة اللائقة بهم فى عالمنا المعاصر.

ومما لاشك فيه أن هناك أسبابا عديدة تقف وراء حالة التردى التى يعيشها المسلمون فى زماننا منها ما يتصل بالجسد الإسلامى نفسه، وما اعتراه من أمراض، ومنها ما يتصل بأعداء الإسلام الذين لم يكفوا عن محاربته، وإثارة الفتن بين أهله.

وفى تقديرى أن الجهد ينبغى أن ينصرف أولا إلى (الجسد الإسلامى) للتعرف على نواحى القصور والنقص فيه، إذ يظل هذا هو الميدان الأول للإصلاح والجهاد، (جهاد النفس قبل جهاد الآخر) اتساقا مع السنن الإلهية، والتى تقوم على أساس أن تغيير ما بالنفس أولى وأسبق من تغيير الآخر، تلك التى أشار إليها قوله تعالى :

﴿ ...إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ... ﴾ (الرعد ١١).

ولا يعنى ما سبق إغفال دور الآخرين فيما آلت إليه الأحوال، فلهم دور لا ينكره إلا غافل أو متحيز، لكنه يظل دائما دورا طبيعيا، تقتضيه طبيعة الصراع والتنافس، بل والتزاحم على كوكب واحد، ملىء بثروات عديدة، يبحث عنها كل من يعيش عليه، ومن هنا ينبغى النظر لهذا الدور بعيدا عن التهويل أو التهوين.

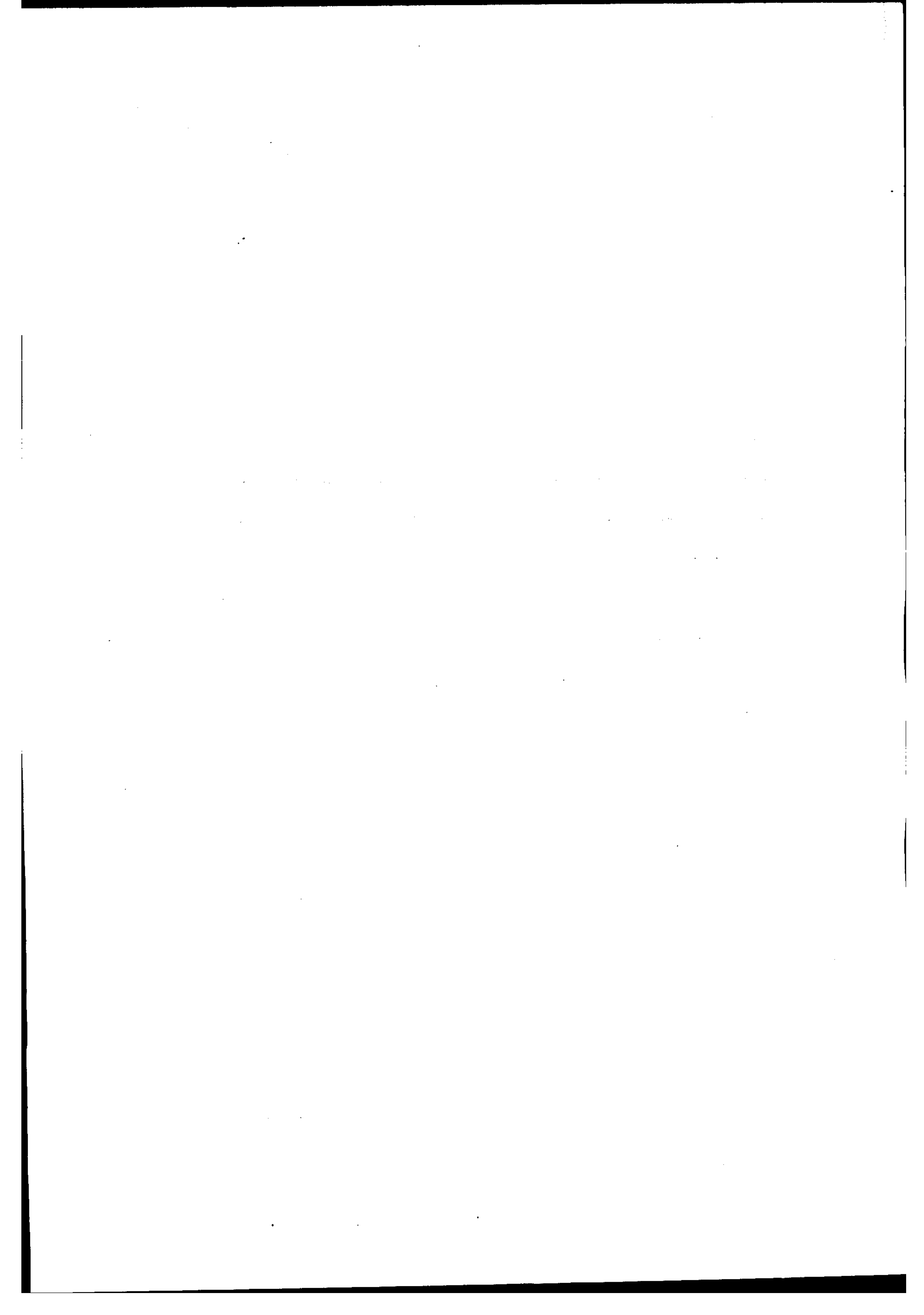
وفى تقديرى ايضا أن العداء للإسلام يمكن أن يفيده أكثر مما يضره، وذلك إذا ما أحسن المسلمون الاستفادة من أعدائهم، بأن يدرسوا جوانب التفوق والاستعداد الذى حققوه فى المجالات المختلفة، ولو لم يكن للعداء للإسلام من خير إلا شحذ همم المسلمين، وإثارة عزائمهم، وتحريك الطاقات الكامنة فيهم لكفى، وهذا هو الدرس المستخلص من تجارب الشعوب الأخرى التى لم تستسلم للهزيمة، ولم تفقد ثقتها بقدراتها، بل واعتبرت الهزيمة فرصة تاريخية ونادرة لبناء ذاتها من جديد، ونجحت فى ذلك نجاحا كبيرا شهد له العالم كله وخير مثال على ذلك الشعب الألمانى، والشعب اليابانى، فقد بنى كل منهما نفسه من جديد بعد ما لحق بهما من هزائم وخسائر ودمار أثناء الحرب العالمية الثانية.

إن المسلمين اليوم لا تنقصهم القوة البشرية، فهم أكثر من مليار مسلم، ولا تنقصهم القوة المادية فهم يملكون مصادر ثروة طبيعية كثيرة، ويكفى أنهم يمتلكون أعظم احتياطى للبترول فى العالم ولكن ينقصهم أن يعيدوا اكتشاف هذا الكنز العظيم الذى وهبه الله لهم... وهو الإسلام.

وهذا الكتاب محاولة على الطريق، لإعادة ترتيب العقل المسلم، وتصحيح علاقته بخالقه وبالكون الذي يعيش فيه، وبالعالم الذي ينتمي إليه، لتحقيق الأمة (الوسط) وأداء واجب (الشهادة) على الناس.

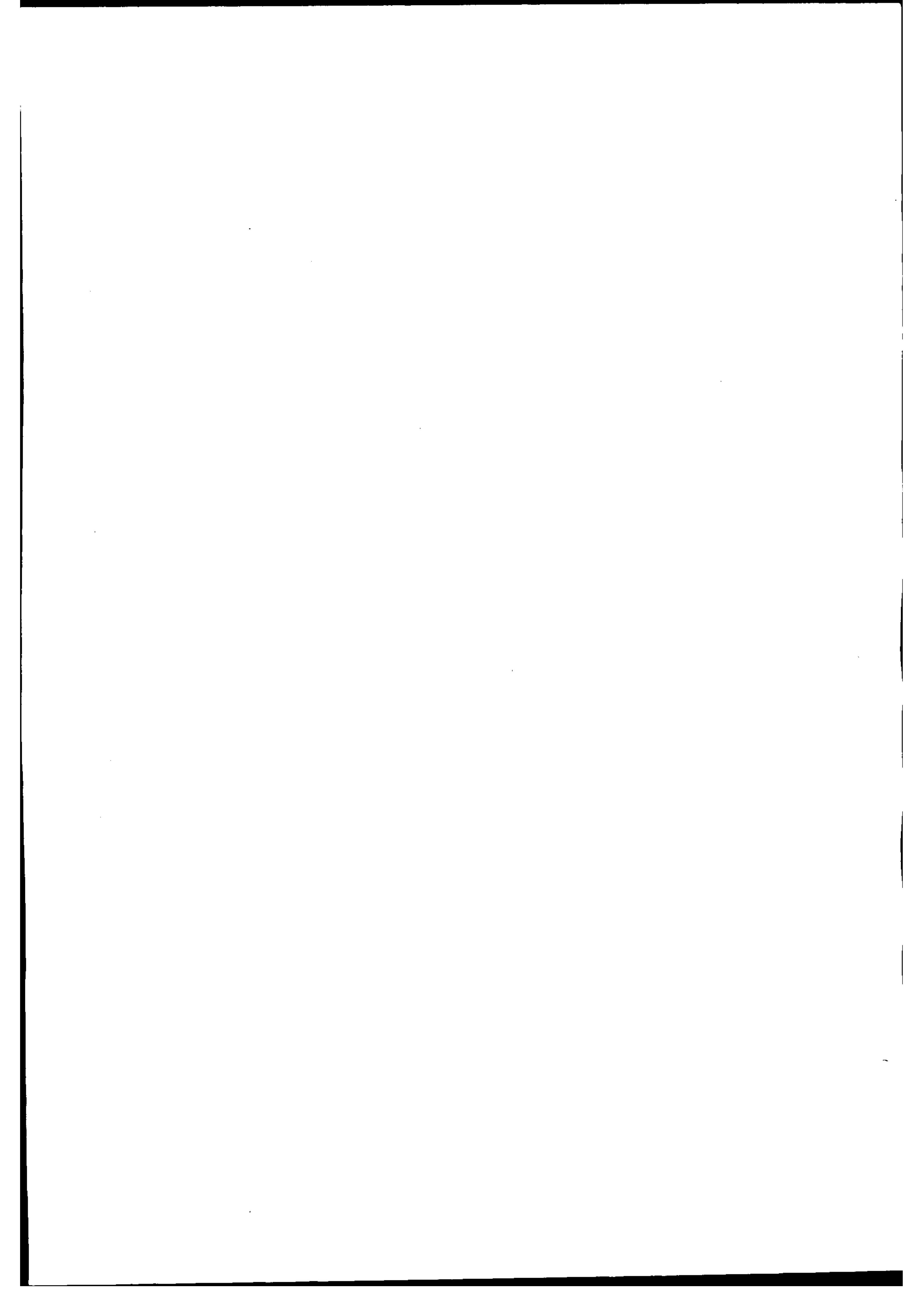
والله ولى التوفيق

المؤلف





حقيقة العبادة



يقول الله . تبارك وتعالى . فى كتابه الكريم:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات ٥٦).

ما الذى ينقص المسلمين اليوم ؟

إن أهم ما ينقص المسلمين اليوم هو ان يفهموا حقيقة العبادة !!

فالعبادة هى الطاعة، وهذا ما تدل عليه الكلمة فى أصلها اللغوى، عبد أى أطاع وخضع، وعبادة الله تعنى طاعته والخضوع له دون قيد او شرط.

وحق الله على عباده أن يعبدوه، أى يطيعوه طاعة مطلقة، كما ورد فى كلام النبى . صلى الله عليه وسلم . لمعاذ بن جبل رضى الله عنه حين قال :

(يا معاذ أتدرى ما حق الله على العباد ؟ قال معاذ : الله ورسوله أعلم.

قال رسول الله . صلى الله عليه وسلم :

فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا.

ثم قال : أتدرى ما حقهم عليه إذا فعلوا ذلك ؟

قال معاذ : الله ورسوله أعلم.

قال رسول الله . صلى الله عليه وسلم . : أن لا يعذبهم.

والعبادة هى الحكمة من خلق الإنسان فى هذه الحياة، كما عبر القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات ٥٦).

كما أن العبادة هى الهدف من إرسال الرسل للناس، فلقد كان خطاب الأنبياء إلى أقوامهم يبدأ بـ :

﴿ ... اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ... ﴾ (الأعراف ٥٩).

كما عبر القرآن الكريم، وفى موضع آخر:.

﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (النحل٣٦).

لكن الناس . على مر العصور. حرفوا معنى العبادة، فمنهم من توجه بالعبادة لغير الله، فعظم غير الله، وقدس غير الله، وأطاع غير الله، ومنهم من عبد الله بطريقة لم يامر بها الله، ولا رسله . . صلوات الله عليهم وسلامه . . فأسقط التكاليف عن نفسه، أو حرم على نفسه طيبات ما احل الله له، ومنهم من قصر العبادة على أداء شعائر معينة، كالصلاة والصيام، ولم يعبأ بما يقع من مخالفات وتعد على حقوق الناس، ومنهم من اعتزل حركة الحياة، واعتكف فى محرابه مطمئنا إلى انه قد أصبح . بذلك . من العابدين.

وهذا ما آل إليه الأمر عند المسلمين، حيث اختزلوا معنى العبادة فى أداء بعض التكاليف والشعائر، وظنوا أنهم بذلك قد عبدوا الله، وأدوا ما عليهم من حق الله، ولم يعد الواحد منهم يشعر بالإثم، إذا ما غش أو قصر فى عمله، أو سرق حقوق الآخرين، بل لم يعد يشعر بالإثم إذا ما القى بالمخلفات فى المياه التى يستعملها الآخرون، أو فى طريقهم، أو إذا اسرف فى استعمال المياه أو الكهرباء وغيرها من نعم الله على الخلق.

ولتصوير هذا التناقض نقرأ هذه القصة :

قال التاجر لغلامه: يا غلام هل خلطت اللبن بالماء؟ قال الغلام نعم، وهل خلطت الشاى بنشارة الخشب؟، قال الغلام نعم، فقال له : وهل خلطت الدقيق بالجير؟ قال الغلام نعم، فقال التاجر لغلامه : إذن قم بنا على بركة الله نذهب لصلاة الجمعة فى المسجد!!!

إن جماهير عديدة من المسلمين لم تعد تشعر بالإثم او تأنيب الضمير إذا ما أدت بعض التكاليف كالصلاة والصيام، ثم فعلت ما تحسبه شأنا دنيويا بحتا، فيقولون:

ألم نعبد الله؟

وما شأن العبادة بالعمل او بالسوق، أو بالحصول على المال!!!

فهذا ما يقوله بعضهم فى خاصة نفسه.

وهذا كله يرجع إلى الخطأ فى فهم معنى العبادة... لقد استقر فى ذهن الأجيال الأخيرة من المسلمين أن العبادة هى أداء شعائر الإسلام كالصلاة والصيام، وما عدا ذلك فهو من أمور الدنيا التى يفعلون فيها ما يشاءون.

وإصلاح هذا الوضع يبدأ من تصحيح مفهوم العبادة :

١ . فالعبادة ليست فقط الصلاة والصيام والحج...

وإنما هى كل قول او فعل يصدر عن المسلم قاصدا به طاعة الله تعالى والامتثال لأمره، حتى وإن كان له فيه حظ النفس، او كان فيه قضاء شهوة، إذ كل ما ينفع الناس، ويحقق لهم مصالحهم، وينهض بالحياة ويجملها فى أعين البشر.. اعتبره الإسلام مجالا للعبادة، وعملا من اعمال البر والخير يثاب عليه المسلم.

روى أبو هريرة . رضى الله عنه . قال :

قال رسول الله . صلى الله عليه وسلم :

(كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين صدقة، وتعين الرجل على دابته عليه صدقة، او ترفع له عليها متاعه، والكلمة الطيبة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة).

وفى رواية أخرى :

(وتبسمك فى وجه اخيك صدقة، وامرك بالمعروف صدقة، ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل فى أرض الضلال لك صدقة، وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك فى دلو اخيك لك صدقة).

٢ . ويعتبر من العبادة . أيضا . كل عمل دنيوى مباح كالأكل والشرب والنوم والسعى فى طلب الرزق، لإعفاف النفس والغير، بل إن قضاء الشهوة الجنسية يعد عملا دينيا يثاب عليه المرء حين يضعها فى الحلال، كما قال رسول الله . صلى الله عليه وسلم : وفى بضع أحدكم صدقة.

قالوا يا رسول الله :

ايأتى احدنا شهوته ويكون له فيها اجر؟

قال :

ارايتم لو وضعها فى حرام، اكان عليه فيها وزر، فكذلك إذا وضعها فى الحلال فإن له أجرا.

٣ . ويعتبر من العبادة . أيضا . الامتناع عن فعل ما حرم الله، إذا كان الامتناع طاعة لأمر الله وليس التزاما بتقليد اجتماعى، او اتباعا لقواعد صحية، فإذا اقترن الامتناع

بنية الطاعة لله كان عبادة، ومن ثم جاز ان يستشفع الإنسان بهذا الامتناع لتفريج الكربات، كما فى حديث النفر الثلاثة الذين كانوا فى غار اغلقته صخرة من الجبل، حيث استشفع ثانيهم بامتناعه عن الزنا بابنة عمه التى كان يحبها أشد الحب لما ناشدته الله، فامتنع طاعة له وابتغاء مرضاته.

وهكذا تكون حياة المسلم كلها تحقيقا لمعنى العبادة بمفهومها الشامل، إذ كل أنشطة الحياة من زراعة وصناعة وتجارة وعلم وغير ذلك مجال للعبادة، وهذا بعض ما يفهم من قوله تعالى:

﴿ وما خلقتُ الجنَّ والإنس إلاَّ ليعبُدُون ﴾ (الذاريات ٥٦).

إن العبادات المفروضة ـ على كل مسلم ـ كما يقول الفقهاء نوعان :

١ ـ نوع يقوم به كل فرد عن نفسه، ويسأل عنه وحده، وقد سماه العلماء فرض عين وذلك مثل الصلاة والصيام والزكاة والحج، والأخلاق التى يتصف بها المسلم، والمحرمات التى ينبغى تجنبها وعدم الوقوع فيها، وما شابه ذلك مما يرتبط بالسلوك الخاص، وبضمير الفرد نفسه.

٢ ـ ونوع يتوجه الخطاب فيه إلى جميع الأفراد، لا إلى فرد بعينه، وقد سماه العلماء فرض كفاية اى يكفى ان يقوم بها بعض الأفراد لا كلهم، فإذا قام بها بعضهم، أعفى الباقون من السؤال عنها فى حين يسأل عنها من يجب ان يقوموا بها، وذلك مثل الحرف والوظائف المختلفة التى تتعلق بمصلحة الأمة أو الدولة، كالهندسة والزراعة والطب، وكل صناعة أو عمل لا يستغنى عنه المجتمع ويقوم به نظامه الاجتماعى والاقتصادى.

فالخطاب فى هذه الأمور موجه إلى الجميع، لكن التكليف بها لا يتعلق إلا بمن يقدر عليها، فمن كانت عنده القدرة لأن يكون قاضيا أو مهندسا أو طبيبا، أو قائدا أو فقيها فى الدين، فهو مطالب شرعا ـ قبل غيره ممن يفتقد إلى هذه القدرة ـ بأن يقوم بها، فهى عبادات تتعلق بقدرات الأفراد واستعداداتهم التى جبلوا عليها، لا بالأفراد انفسهم كما فى عبادات النوع الأول.

وعلى هذا فلكل مسلم عبادتان :

. إحداهما خاصة وهى الأمور الفردية التى يسأل عنها منفردا.

. والثانية عامة وهى المجال المؤهل للعمل فيه من زراعة أو صناعة أو هندسة أو تعليم، أو غير ذلك من الحرف والأعمال التى يحتاجها كل مجتمع.

لكننا نلاحظ أن العبادة الثانية تستغرق وقتا . فى اليوم الواحد . أطول من العبادة الأولى، ومن ثم تصبح هى مجال الثواب الأعظم، لأن الوقت المخصص لها أكبر، والمصلحة المترتبة عليها فى حياة الناس أعظم وأنفع، إذ هى مقصود الحق من الخلق، فما خلق الناس إلا ليعمروا الأرض وهذا العمران . بكل صوره وأشكاله . هو مجال التعبد، وابتغاء الثواب والأجر من الله تعالى أضف إلى ذلك أن العبادة الأولى، ليست مقصودة لذاتها، وإنما ليتم بها العمران، وينضبط بها السلوك الإنسانى، وتتحقق بها الحكمة من خلق الإنسان.

وبهذا تتضح أهمية عبادات النوع الثانى وأثرها فى حياة الأفراد والمجتمعات، لكن المسلمين اهتموا بالعبادات الفردية (النوع الأول) وأهملوا العبادات الاجتماعية (النوع الثانى) أو أخرجوها من نطاق العبادة إلى العادة، ومن ثم ضعف بناؤهم الاجتماعى وتخلف ركبهم الحضارى، وصاروا عالة على غيرهم.

إن جماهير غفيرة من المسلمين ما تزال تحسب أن العبادات التى يثاب عليها المرء هى فقط الصلاة والصيام والحج، وما تزال العبادات الاجتماعية . مع خطورة شأنها وأثرها . أهون شأنا عندهم من العبادات الفردية، وحسبك أن تعرف أن الواحد منهم قد يشعر بالحرج لأنه أخر الصلاة عن موعدها، ولا يستشعر الحرج نفسه إذا عطل مصلحة من مصالح الناس، أو سهل الغش فى الامتحانات، وقد يتبرع الواحد منهم لبناء مسجد، قد يكون فى الحى ما يغنى عنه فإذا ما طالبته بالتبرع لمدرسة تخلو من المرافق المهمة، أو مستشفى يعانى نقصا فى الأدوات الطبية، أو غير ذلك من المنافع العامة، فإنه ينظر إليك باستغراب كأنه يقول : وهل هذا من الدين فى شىء؟

ولسنا نهون من قيمة الصلاة، أو بناء المسجد، ولكننا نلفت النظر إلى الاستهانة بمصالح الخلق وحقوقهم، وإلى الزهد فى القيام بالواجبات الاجتماعية، على أساس أنها ليست مما يثاب عليه المرء.

إن خطورة الواجبات الاجتماعية (فروض الكفاية) جعلت علماءنا يرون أن القيام بها أحرى بإحراز الدرجات وأعلى فى فنون القربات من فرائض الأعيان، فإن ما يتعين على المتعبد المكلف، لو تركه اختص المأثم به، ولو اقامه فهو المثاب، ولو فرض تعطيل فرض من فروض الكفايات لعم المأثم على الكافة، على اختلاف الرتب والدرجات، فالقائم به كاف نفسه وكافة المخاطبين الحرج والعقاب، وآمل افضل الثواب، ولا يهون قدر من يحل محل المسلمين فى القيام لمهم من مهمات الدين. (غيات الأمم للجوينى ص ٣٥٨ . ٣٥٩ فقرة ٥٠٩).

وترجع خطورة الواجبات الاجتماعية إلى ما يلى :

١ . أنها تسبق فى الأهمية الواجبات الفردية، إذ تتعلق بمجموع الأفراد، ومن ثم فهى مقدمة على الواجب المتعلق بفرد واحد، فالعام أولى من الخاص.

٢ . أن تعطيل اى منها يترتب عليه تعطيل سائر الواجبات:

(إذ المجتمع الإنسانى كيان متشابك المصالح، والناس ما يستغنى بعضهم عن البعض الآخر. والأجهزة الإدارية والثقافية والصحية والاقتصادية والعسكرية فى بنيان الأمة، تشبه الأجهزة العصبية والهضمية والنفسية والدورية فى الجسد البشرى).

(مشكلات فى طريق الحياة الإسلامية للشيخ محمد الغزالى كتاب الأمة رقم ١ ص ٢٩).

٣ . انها السبيل الوحيد لإقامة مجتمع قوى، يعتمد على مقوماته الذاتية، ولا يحتاج إلى غيره وأهم عناصر القوة . فى عالم اليوم . هى العمل والإنتاج.

ولأهمية هذه الواجبات أيضا فقد ذهب الفقهاء إلى أنها . بعد تعيين القائم عليها . تصبح بالنسبة له فرض عين، وإن كانت هى فى الأصل فرض كفاية، كالجهاد فإنه فرض كفاية على المسلمين جميعا، لكنه بالنسبة للمقاتلين . المتفرغين لهذه المهمة . يكون فرض عين.

ولما كانت تكاليف الشريعة تتصف، بالعموم والإطلاق، فإن تحديد المقصود بها يتطلب بصرا بحقائق الواقع الاجتماعى واحتياجاته، لتحديد واجبات كل فرد فى المجتمع، بما يحقق . فى النهاية . مقاصد الشرع ومصلحة الناس التى هى مراد الشرع وهدفه الأصلى من إنزال التشريع.

ومن ثم رتبوا على ذلك أن لكل فئة فى المجتمع عبادة تخصها :

فللعلماء عبادة، وللأغنياء عبادة، وللفقراء عبادة، وللحكام والأمراء عبادة.... وهكذا حتى تستوعب العبادة كل مجالات النشاط الإنسانى.

فالغنى عبادته الأولى الإنفاق والبذل.

والفقير عبادته الأولى الصبر على ما قسم له وعدم الانكسار أمام الظروف.

والعالم عبادته الأولى النصح والتعليم.

والحاكم عبادته الأولى رعاية المحكومين والنظر فيما يحقق المصلحة لهم.

وطلاب العلم عبادتهم الأولى طلب العلم، والتخصص فيه، والنبوغ لسد حاجة الأمة من التخصصات المختلفة... وهكذا.

ولا يقبل من أحدهم أن يستبدل عبادة بأخرى. حتى لو كانت صيام النهار وقيام الليل. بعبادته الأولى، إذ لا يقبل الله نافلة حتى تؤدى الفريضة.

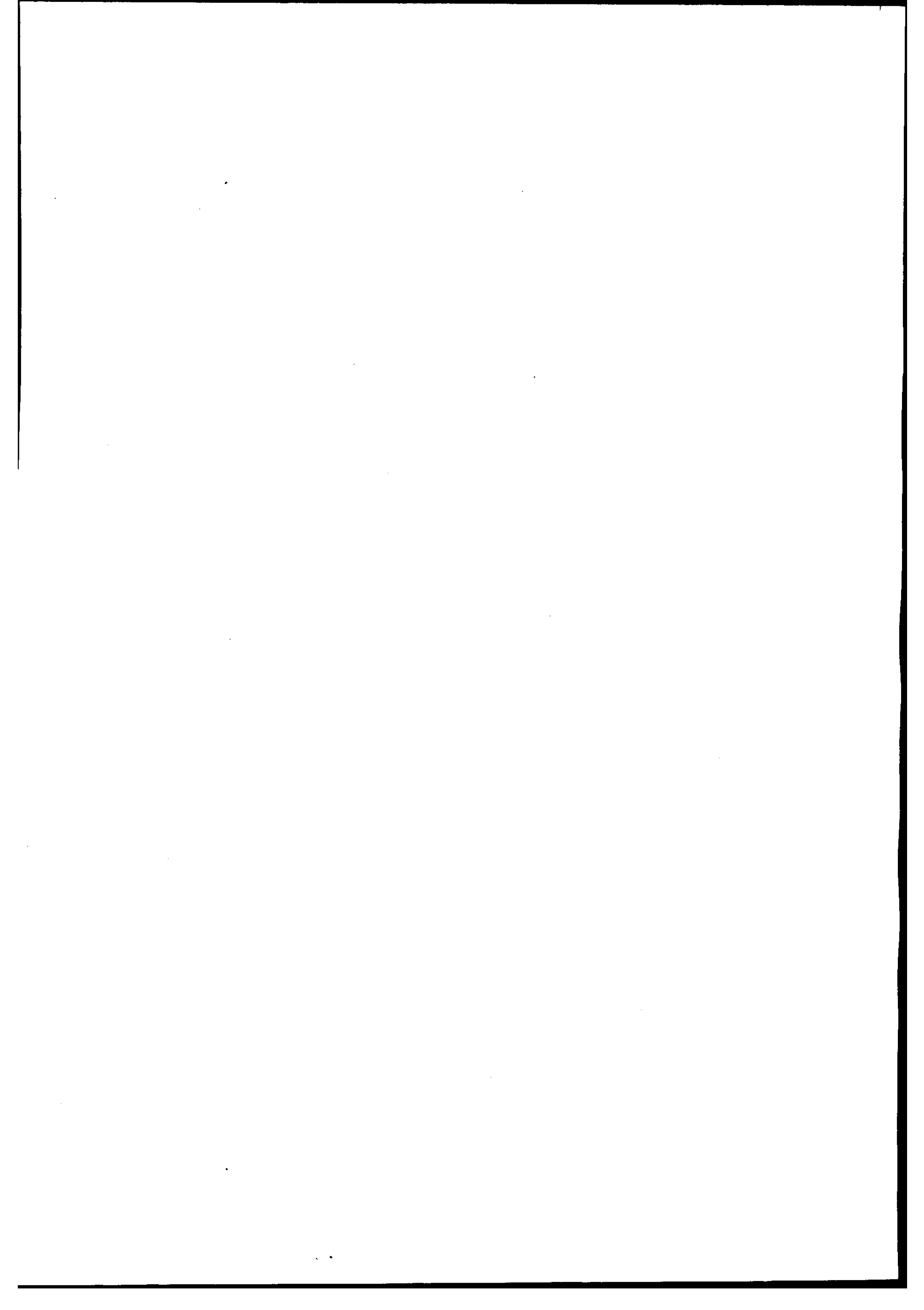
أضف إلى ذلك نوعا آخر من العبادة، لا يتعلق بالفرد الواحد أو بفئة من الأفراد، وإنما يتعلق بالظروف والأحوال التى تصيب مجموع المسلمين، ومن ثم سماها الفقهاء بعبادة الوقت، أى العبادة التى يفرضها واقع الحال على المسلمين، كالجهاد فإنه يصبح واجبا على الجميع إذا ما تعرضت بلاد المسلمين إلى خطر الهلاك والضياع.

ومن مجموع ما سبق ندرك المعنى الحقيقى للعبادة فى الإسلام.





حقيقة الشعائر



يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ فى كتابه الكريم:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات ٥٦).

ما حقيقة الشعائر الأساسية فى الإسلام ؟

إن الشعائر الأساسية فى الإسلام أربعة هى :

الصلاة ـ الزكاة ـ الصيام ـ الحج

والقول بأن هذه الشعائر هى كل العبادات قول غير صحيح، فالعبادة فى الإسلام ليست الشعيرة فقط، ويمكن القول بأن الشعائر هى أدنى درجات التعبد، وليست أعلى كما يظن كثير من المسلمين المعاصرين، وذلك لأن المساحة التى تشغلها إحدى هذه الشعائر ـ أو كلها ـ فى عمر الإنسان اقل من اية انشطة تعبدية أخرى، مثل حراثة الأرض، أو الإنتاج فى المصنع، أو تربية النسل؛ او العناية بالبيت، أو الجهاد المسلح، أو حتى الترفيه عن النفس، فضلا عن التفقه فى علوم الدنيا والدين، فكل هذه الأنشطة وأمثالها هى مجالات العبادة وتمثل ـ حقا ـ أعلى درجات التعبد.

فالله تعالى كما يعبد بالصلاة والصوم، يعبد كذلك بالعمل والسعى.

وكما يعبد بالنطق والذكر يعبد أيضا بالصمت والفكر.

والمطلوب هو تحقيق التوازن بين كل هذه العبادات، حتى لا يطغى بعضها على بعض، وحتى لا تتعطل ـ أو تضطرب ـ مسيرة الإنسان على الأرض ذلك لأن التركيز او الاستغراق فى بعض العبادات يتبعه بالضرورة إخفاق او إهمال فى عبادات اخرى، وهذا من شأنه تعويق الحركة الفردية والاجتماعية.

وهذا يقودنا إلى سؤال مهم :

ما دور الشعائر فى النهوض بمسيرة الإنسان وتحقيق ذاته على الأرض؟

فى البداية لابد من الإشارة إلى ان الشعائر موجودة فى جميع الديانات، بيد أنها تميزت فى الإسلام بمجموعة من الخصائص:

١ . البساطة فهى لا تحتاج إلى استعداد كبير أو إجراءات معقدة.

٢ . التنوع فمنها ما هو يومى كالصلاة، ومنها ما هو سنوى كالصيام والزكاة، ومنها ما يحدث فى العمر مرة واحدة كالحج.

٣ . المزج بين الجانبين المادى والروحى.

وبهذه الخصائص وغيرها اسهمت الشعائر فى تحقيق ذاتية الإنسان فردا كان أو مجتمعا، وذلك على نحو ما يتضح فيما يلى:

فالصلاة ليست مجرد حركات وأقوال تؤدى، ولكنها تعنى . فى الواقع . اتصال بواهب الوجود، ومناجاة له، وراحة وطمأنينة، ويصلى المسلم فى أوقات خمسة موزعة على النهار وجزء من الليل، فى إشارة واضحة إلى ان الصلوات هى جزء من البرنامج اليومى للمسلم، وكان النبى . صلى الله عليه وسلم . إذا احزنه أمر فزع إلى الصلاة، وكان يقول لبلال : ارحنا بها يا بلال.

والصلاة ايضا وسيلة للتدريب على النظام، ويتضح ذلك من الدعوة إلى تسوية الصف، وملء فراغات الصفوف قبل الصلاة، كما انها وسيلة للنظافة والتجمل:

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (الأعراف ٣١).

والصلاة كذلك قوة روحية :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة ١٥٣).

أما الزكاة فهى عبادة مالية نفسية اجتماعية :

١ . أما انها عبادة مالية، فلأنها تجب فى مال المسلم الذى يكسبه من عمل مشروع، وتتراوح نسبة الزكاة بين العشر ونصف العشر وربع العشر، وهناك مال يتمثل فى الحيوانات مثل الإبل والبقر والغنم، وهذه لها نظام خاص فى الزكاة.

والحكمة فى تفاوت المقادير المطلوبة من الزكاة هى (انه كلما كان جهد الإنسان فى

المال أقل، وعمل القدرة الإلهية اظهر، كانت النسبة الواجبة أكثر والعكس بالعكس. ولا تجب الزكاة فى المال إلا إذا بلغ مقدار معينا، ويشترط أن يكون فائضا عن حاجة صاحبه وان يمر عليه عام كامل (اثنا عشر شهرا قمريا).

٢ . وأما انها عبادة نفسية، فلأنها تعمل على تطهير نفس الغنى من البخل والشح، وتربيتها على الجود والكرم والبذل من أجل الآخرين، حتى لا يعيش المسلم فى إطار نفسه فقط.

ولما كانت النفوس قد جبلت على حب المال، فإن التضحية بجزء قليل من هذا المال لا تتعدى نسبته العشر، كفيل بتهذيب هذه الطبيعة التى جبل عليها الإنسان. وحتى لا يتحول الإنسان إلى عبد للمال، ولا يقتصر الأمر على تطهير نفس الغنى فقط، وإنما يتعداه إلى نفس الفقير أيضا حيث يطهر نفسه بما يصيبها بسبب الحاجة والضعف من الغل والحسد، وبذلك تؤدى الزكاة دورا مزدوجا، حيث تحمى الأغنياء من أنفسهم وتحميهم . كذلك . من نفوس الفقراء، وتسهم فى تقريب الفوارق بين الطبقات، وتصون المجتمع من عوامل الهدم والفرقة.

٣ . وأما انها عبادة اجتماعية، فلأنها تمثل جزءا من نظام الإسلام الاقتصادى، وهى تقوم بدور مهم يتمثل فى انها تستنزف المال الجامد، فهى لا تبقى عليه بل تستنزفه تماما، ولهذا فهى تدفع صاحب المال إلى الإسهام به فى عملية أو مشروع إنتاجى يجلب الرزق على العمال والموظفين ويزيد المال خيرا.

والزكاة تتفوق على ضريبة الدخل المستحدثة من الغرب، فالمال إن اديت عنه ضريبة الدخل يمكن له أن يتجمد إذ لا تمسه الضريبة مرتين، بينما الزكاة تمسه طالما انه موجود، ولهذا كان من نتائجها الحتمية إسهام مدخرات الناس كلها فى الإنتاج القومى.

ولنفس الغرض حرم الإسلام كنز الذهب والفضة، وحرم الاحتكار والتلاعب بالأسعار، فهو يريد للمال الحركة حتى تعم المنفعة على الجميع.

وللزكاة مصارف ثمانية محددة بنص القرآن الكريم:

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة ٦٠).

أما الصيام :

فيتميز بأنه عبادة موسمية، وذات طبيعة خاصة تتمثل فى الامتناع الاختيارى عما تشتهيه النفس من مباحات الطعام والشراب و(الجنس)، فى وقت معلوم، يبدأ من طلوع الفجر حتى غروب الشمس، كما تتمثل فى كونه عبادة ينعدم فيها الوازع الخارجى، وتعتمد فقط على الوازع الداخلى.

وتهدف هذه العبادة إلى تقوية إرادة الإنسان، وتدريبه على تحمل الصعاب والمشقات، وتحريره من سلطان العادات والغرائز التى تتحكم فيه وتسلبه القدرة على ممارسة حريته كإنسان، كما تساعد هذه العبادة على تذكر معاناة المحرومين، ومن ثم العمل على رفع المعاناة عنهم، وتوفير حاجاتهم ودمجهم فى النسيج الاجتماعى، كى يصبحوا عناصر منتجة وفاعلة بدلا من أن يظلوا طاقة معطلة وقوى مهمشة اجتماعيا.

كما يتطلب الصيام، كذلك الامتناع عن كل قول أو فعل يمثل تعديا على الآداب والقواعد الاجتماعية، وفى الحديث :

(إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يفسق، وإن امرؤ قاتله أو سبه فليقل إنى امرؤ صائم).

وفى الحديث أيضا :

(رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش).

بقى أن نشير إلى أن الصيام عبادة قديمة فرضها الله على المسلمين كما فرضها على من سبقهم وفى هذا ما يشير إلى وحدة المصدر الذى انبعثت عنه هذه الشعيرة، ويشير كذلك إلى حاجة الإنسان . فى كل عصر . إلى هذه العبادة، والتى تساعده على محاربة الشهوات، والتغلب على الظروف الصعبة التى تواجهه فى أوقات مختلفة.

أما الحج

فهو عبادة فريدة من نواح عديدة :

فهو عبادة تمارس فى أماكن مخصوصة، وأوقات محددة، وبكيفيات محددة تبدأ بالإحرام ثم الطواف ثم السعى ثم الوقوف بعرفة ثم الرمى والذبح وغير ذلك، ولكل منسك من هذه المناسك معان ودلالات:

١ . فالإحرام ليس مجرد تغيير الملابس العادية بملابس أخرى، وإنما هو التجرد الكامل لله من كل ما يذكر الإنسان بالدنيا، إن المسلم عندما يخلع أثوابه العادية، فإنه يخلع معها شهواته ومطامعه وإحساسه بذاته، وكل ما يفرق بينه وبين الناس، ليندمج في وحدة إنسانية، تذكر الجميع بوحدة الأصل الذى صوره القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات ١٣).

والذى عبر عنه رسول الله . صلى الله عليه وسلم . في قوله :

(أيها الناس كلكم لآدام، وآدم من تراب، لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى، ولا لأبيض على أحمر ولا لأحمر على أبيض إلا بالتقوى والعمل الصالح).

٢ . والطواف بالكعبة (بيت الله المقدس) ليس مجرد الحركة الجسمية، التى يتزاحم فيها الناس، وقد يقسو بعضهم على بعض، وإنما المقصود من الطواف هو التفاف القلوب ودورانها حول قدسية الله، كما يصنع المحب الهائم مع محبوبه.

٣ . والسعى بين الصفا والمروة ليس . كذلك . مجرد حركة جسمية، وإنما هو التردد بين علمى الرحمة، طلبا للرحمة، والتماسا للمغفرة والرضوان، وتذكيرا بماض بعيد هرولت فيه أم نبى الله إسماعيل، وهى تبحث لولدها عن شربة ماء، دون جدوى، ولكن أدركتها رحمة الله فتفجر الماء من تحت قدمى ولدها.

٤ . والوقوف بعرفة ليس مجرد الإقامة على جبل عرفات من بعد طلوع شمس اليوم التاسع إلى الزوال أى بعد الغروب، في درجة حرارة عالية وشمس تلفح الوجوه والأجسام، وإنما يعنى إظهار الضراعة والخشوع بقلوب مملوءة بالخشية، وأيد مرفوعة بالرجاء، والسنة مشتغلة بالدعاء، إن مشهد عرفة هو صورة مصغرة لمشهد كبير، سيقف فيه الناس بين يدى ربهم ليحاسبهم عما قدموا في هذه الحياة.. إنه مشهد يذكر بيوم القيامة.

٥ . ورمى الجمرات، على الرغم من أن الذى يرمى به هو حجر، والذى يرمى عليه هو حجر إلا أن المسألة لها دلالة عميقة، إن رمى الجمرات هو رمز صادق يعبر عن مقت عوامل الشر واحتقار نزعات النفس الأمارة بالسوء، وطرد وساوس الشيطان.

٦ . أما الذبح وهو ذبح شاة أو بقرة تقربا إلى الله تعالى فليس المراد منه إراقة الدم فقط، ولكن المقصود به هو إراقة دم الرذيلة، بيد اشتد ساعدها فى بناء الفضيلة، ورمز للتضحية والفداء.

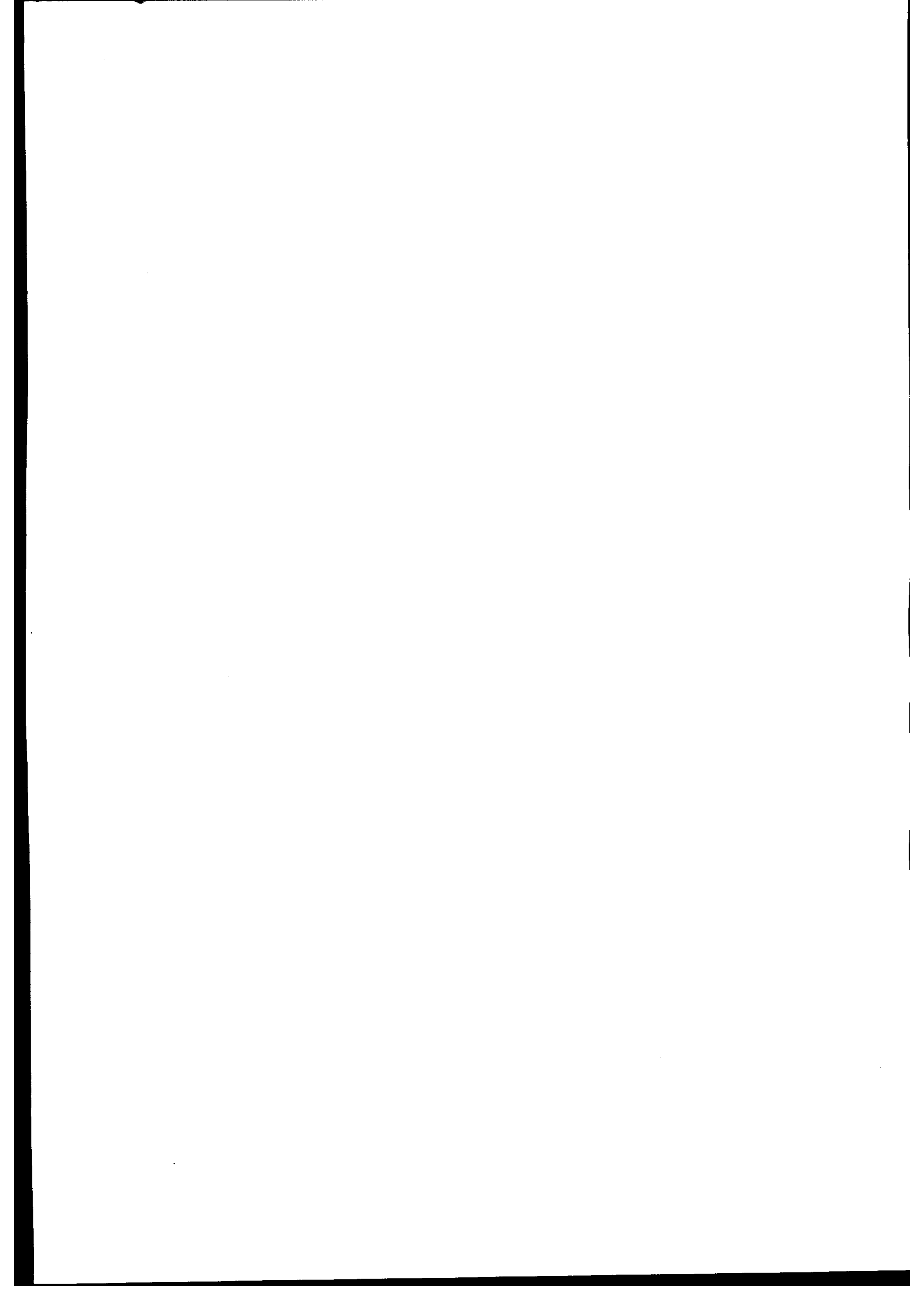
٧ . أما التلبية وهى شعار الحج، فهى فى حقيقتها نزوع بالنفس من عالم الظلم والطغيان، إلى عالم العدل والإحسان، كما أنها شعار العابدين من لدن إبراهيم إلى يوم الدين، فهى تعبر عن وحدة العابدين أمام وحدة المعبود.

هذه هى شعائر الإسلام، ونلاحظ أنها . مجتمعة . تنطوى على أبعاد أربعة أساسية هى : البعد الاقتصادى، والبعد السياسى، والبعد الاجتماعى، والبعد الحضارى.



الأبعاد المختلفة

للشعائر الإسلامية



يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ فى كتابه الكريم:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات ٥٦).

ما الذى ينقص المسلمين اليوم؟

كان هذا التساؤل هو أول تساؤل طرحناه فى هذه السلسلة ثم وصلنا إلى أركان العبادات، وكيف يؤديها المسلم؟ وما أثرها فى حياته؟

وأشرنا إلى وجود أبعاد أربعةللشعائر الإسلامية هى :

البعد الاقتصادى، البعد السياسى، البعد الاجتماعى، البعد الحضارى.

فما حقيقة هذه الأبعاد؟

أولاً البعد الإقتصادى :

فيتمثل فى عنصرين أساسيين هما الزكاة والقيم الأخلاقية:

فالزكاة أحد الموارد المالية الضخمة التى تسهم فى إحداث التنمية الاجتماعية، حيث توفر الإمكانات المادية اللازمة لإقامة المشروعات المختلفة، التى تستوعب طاقات وأياد عاملة كثيرة، وتوفر لها فرص العمل والابتكار وتحقيق الذات.

ومن ناحية أخرى يعد تشريع الزكاة دافعا رئيسا للعمل :

فالذى يزكى لابد أن يعمل وينمى أمواله وإلا أكلتها الزكاة.

ومن ناحية ثالثة يحقق المسلم بالزكاة معنى الانتماء الصحيح لأمته إذ كيف يقبل أن ينمى ماله ثم يبخل به على إخوته فى الدين؟ سواء بمنع إخراج الزكاة، أم باستثمار هذا المال عند غير المسلمين، إن هناك التزاما عقائديا يفرض على المسلم أن يستثمر أمواله فى الأرض الإسلامية حتى وإن ترتب على ذلك قلة فى الربح، لأن الربحية الحقيقية ليست فى زيادة الأموال فقط، وإنما فى النهوض بالأمة كلها.

أما القيم الأخلاقية :

كالصدق والأمانة والإتقان والوفاء وغيرها، فهى ضرورية لأى نشاط اقتصادى

يرجى له النمو والازدهار، وتعمل الشعائر الإسلامية على أن تكون هذه القيم فى أعلى درجاتها وأحسن حالاتها، بما تشعره فى النفس من الشعور بمراقبة الله والحرج من مخالفته، وإلا فكيف يجتمع فى قلب مسلم أن يكون من الذاكرين لله، ومن المتمسكين بأداء الشعائر الدينية، ثم يكون قاسى القلب فى تعامله مع عباد الله، أو يسرق أموالهم، أو ينتهك أعراضهم، أو يغتصب حقوقهم، أو يغشهم، أو غير ذلك مما يمثل إيذاء أو اعتداء على الناس.

إن الارتباط بين الشعائر الدينية والسلوك الاجتماعى وثيق للغاية، وهذا ما تؤكده الآيات الآتية:

﴿ ... وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ... ﴾ (العنكبوت ٤٥).

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ... ﴾ (التوبة ١٠٣).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة١٨٣).

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (البقرة ١٩٧).

ثانياً البعد السياسى :

فيتمثل فى تحقيق الأمور الآتية: الوحدة، والمساواة، والتعبئة.

أما الوحدة :

فهى الالتقاء على مصالح واحدة، وأهداف واحدة بحيث يصبح المسلمون قوة سياسية واحدة، لها موقف واحد، تجاه التحديات والأخطار التى تواجههم، سواء داخل المجتمعات الإسلامية، أو بينها وبين بعضها البعض.

إن العوامل التى تربط بين المسلمين أكثر من العوامل التى تربط بين غيرهم من شعوب الأرض ويؤكد القرآن أن المسلمين أمة واحدة:

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء ٩٢).

كما يؤكد ضرورة الوحدة ونبذ الفرقة والاختلاف.

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ... ﴾ (آل عمران ١٠٣).

وتسهم الشعائر الإسلامية فى تجسيد معنى الوحدة، وترسيخ مفهومها، ففى الصلاة يمارس المسلمون عمليا الوحدة من خلال الصف الواحد، والجماعة الواحدة، وترديد عبارات واحدة وكذلك فى الصيام...، ومن أهم الشعائر التى يتجسد فيها معنى الوحدة الحج، حيث يتجمع المسلمون من جميع بقاع الأرض، ليمارسوا نفس المناسك، ويرددوا نشيدا إسلاميا موحدا هو: (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك).

أما المساواة :

فهى من أعظم القيم التى جاء بها الإسلام، فالناس . جميعا . سواسية كأسنان المشط لا فضل لأحد منهم على غيره، فقد خلقوا من مادة واحدة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ...﴾ (النساء ١).

ولا فرق بين إنسان وآخر فى مبدأ الإنسانية، وليست هذه شعارات ينادى بها الإسلام فقط، وإنما يدعو إلى ممارستها بصورة عملية، فتسوية صفوف المسلمين فى الصلاة، ووقوفهم صفوفا متراصة، دون مراعاة للفروق الظاهرية بينهم، وارتداؤهم ملابس الإحرام فى الحج، وممارسة نفس الشعائر، دون أى تمييز بين العامة والخاصة، أو السادة والرعية، كل ذلك تدريب عملى على المساواة.

إن الصلاة :

قد تجمع بين اثنين أحدهما من السادة والآخر من أدنى طبقات المجتمع.

والحج :

قد يجمع بين اثنين أحدهما جاء من أقصى الشمال والآخر جاء من اقصى الجنوب، أو بين اثنين أحدهما يملك مليارات الجنيهات، والآخر لا يملك إلا بضعة مئات، أو بين اثنين أحدهما أستاذ جامعى والآخر عامل نظافة، ومع ذلك لا نشعر بأى فروق بينهم.

أما التعبئة :

فيقصد بها حشد طاقات الأمة من أجل القيام بالأعباء والمسئوليات الملقاة على عاتقها ومما لاشك فيه أن مسئوليات الأمة الإسلامية تتجاوز حدودها الجغرافية إلى كل مكان على الأرض، إنها حاملة لآخر رسالة نزلت على الناس، وعليها . لا على غيرها .

مسئولية تبليغ هذه الرسالة، بما يتطلبه ذلك من فهم عميق وقدرة متجددة على الاستفادة من جميع معطيات العصر وأدواته ووسائله، كما يقع عليها أيضا مسئولية الدفاع عن كل مسلم على وجه الأرض وعدم التفريط فى حقوق المسلمين أينما كانوا. ومن ثم يتطلب ذلك تعبئة طاقات الأمة حتى تستطيع النهوض بواجباتها.

وإذا كان لكل دولة الحق فى تعبئة أفرادها لمواجهة المخاطر التى تتهددها، فالمسلمون ليسوا أقل من غيرهم، بل هم معرضون أكثر من غيرهم لتحديات عديدة، بحكم انتهاجهم لأسلوب مختلف فى الحياة. سياسة واقتصادا وثقافة، الأمر الذى يضعهم . دائما . فى مواجهة مع أعدائهم، وهذا يستلزم . بالطبع . أن تكون الأمة فى حالة تعبئة مستمرة.

وإذا كان لكل أمة وسائل اختارتها. لتحقق بها تعبئة جميع أفرادها أو معظمهم، فإن الشعائر الإسلامية هى من وسائل الأمة الإسلامية فى تحقيق التعبئة :

. إن الآذان بمثابة تعبئة، إنه ينادى على المسلمين أينما كانوا بأن يقوموا لأمر واحد هو الصلاة.

. كما أن الصلاة إعلان تعبئة وخصوصا صلاة الجماعة وصلاة الجمعة، وصلاة العيدين، وفيها يجتمع عدد من الناس فى مكان واحد هو المسجد، ويمارسون أعمالا منظمة.

. وصوم رمضان إعلان تعبئة، إذ بمجرد الإعلان عن بداية شهر الصيام يحتشد الملايين لأداء هذه العبادة.

. والحج أيضا إعلان تعبئة، فإذا جاءت أيام الحج توافد الألوف من كل مكان، على مكة المكرمة لأداء مناسك الحج.

وقد لا تكون التعبئة هنا تعبئة مادية، أى بالمفهوم الخاص الذى يستخدم فى حالة الحرب، بيد أن التعبئة النفسية تسبق دائما التعبئة المادية، ثم هى . بعد ذلك . الأهم.

ثالثا: البعد الإجتماعى :

فيتمثل فى تقوية الروابط بين أفراد المجتمع، وتحقيق مزيد من التقارب والتفاهم فيما بينهم، ومن شأن ذلك أن يقوى البناء الاجتماعى، ويصد عوامل الهدم أو التخريب التى قد تتسلل إليه.

إن المجتمع . كما صوره رسول الله صلي الله عليه وسلم . كالجسم الواحد:

(مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى).

. ففى الصلاة يتحقق الترابط والتماسك، من خلال الصف الواحد، وكذلك الدعاء الذى يكون بصيغة الجمع.

. وفى الصيام يتحقق من خلال الشعور بالجائعين والمحرومين، بتقديم الطعام والصدقة، وإلباسهم الملابس الجديدة فى يوم العيد.

. وفى الزكاة يتحقق من خلال تقديم جزء من المال للفقراء والمحتاجين وغيرهم ممن وجبت لهم الزكاة.

. وفى الحج يتحقق من خلال التعارف والتآخى والتعاون على أداء المناسك والتعاون على البر والتقوى.

وبهذا تعد الشعائر أهم أسباب القوة الاجتماعية، ذلك أن قوة أى مجتمع تتمثل فى مدى التماسك والترابط بين أفراده، وكلما قويت الرابطة بين الأفراد قويت شوكتهم، وتماسك بنيانهم، والعكس صحيح.

إن نظام الشعائر يؤدى . لا محالة . إلى علاقات اجتماعية تقوم على أساس من تقوى الله وطاعته، وليس على أساس المصالح المادية، وهذا من شأنه أن يعمق هذه العلاقات ويقويها ويضمن استمرارها، لأن المصالح المادية لا تصلح وحدها أساسا لبناء علاقات مستمرة، لأنها تتسم بالتغير وعدم الثبات، وقد تؤدى إلى التباغض والتحاسد والتصارع.

رابعاً البعد الحضارى :

فيتمثل فى نوعية الإنسان الذى يقدمه الإسلام للعالم ولما كانت الحضارة هى صناعة إنسانية، فإن الإنسان هو . حقا . صانع الحضارة، والحضارة فى النهاية هى مجموعة القيم والمثل التى توجه سلوك الإنسان فى كافة مجالات الحياة، وهذه القيم والمثل، إما أن تكون مستمدة من الواقع، أو من مصدر آخر يتجاوز هذا الواقع وثمة فرق بينهما:

. فالقيم المستمدة من الواقع هى قيم مادية فقط، محدودة بحدود الواقع، وتتغير بتغيره.

. والقيم المستمدة من مصدر آخر غير الواقع، هى القيم الدينية التى تتميز بالثبات والاستقرار، كما تتميز بالتجرد والإطلاق، أى انها قيم تحقق مصلحة جميع الأطراف وتناسب جميع الظروف، بخلاف القيم الوضعية، المستمدة من الواقع، فهى غالبا ما تنحاز لطرف ضد آخر، أو تتغير بحسب الظروف والأشخاص.

وبحسب القيم التى يتبناها الإنسان تأتى إسهاماته فى الحضارة، فإن كانت قيما مادية فإنها لا تتجاوز الجانب المادى للحضارة، بخلاف القيم غير المادية، التى تبنى الحضارة على أسس روحية واخلاقية، تحفظ الحياة البشرية من الفساد أو الدمار.

وفى ضوء ما سبق نجد أن الشعائر الإسلامية تعمل على تدعيم القيم والمثل الروحية والأخلاقية فى حياة الإنسان :

. فالوضوء وما يعنيه من طهارة.

. والصلاة وما تعنيه من اتصال روحى بالخالق سبحانه وتعالى.

. والصيام وما يعنيه من سمو وارتقاء على الحاجات المادية.

. والزكاة وما تعنيه من تطهر من الأنانية والاستئثار.

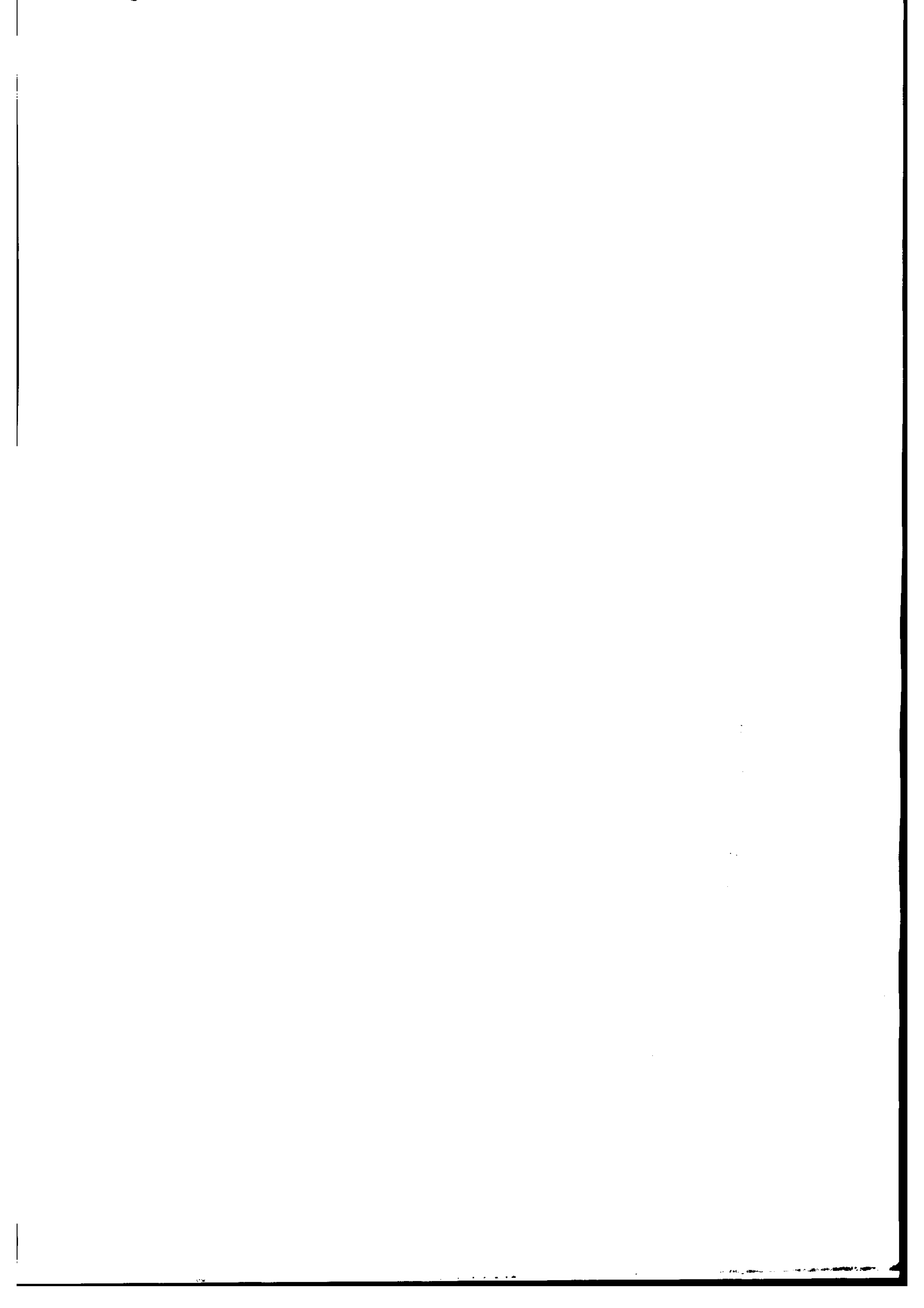
. والحج وما يعنيه من تجرد وامتثال.

كل ذلك يدعم القيم الروحية، ويرتقى بالسلوك الإنسانى، لأن هذه الشعائر ليست مقصودة لذاتها وليست معزولة عن حركة الحياة، إذ هى المحور الذى ترتكز عليه هذه الحركة، أو هى المركز بالنسبة لمحيط الدائرة، ومن ثم فإن السلوك الراشد أو الأداء الأفضل لا يتحقق إلا بها أو معها، وهذا بدوره يطور الوجود الإنسانى، ويحفظ المسيرة الحضارية من الانحراف أو السقوط.

هذه حقيقة الشعائر الإسلامية وأبعادها المختلفة.



يسألونك عن الإصلاح !



يقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (هود ١١٧).

على غير سابق إنذار، أمطرت علينا السماء مبادرات عديدة للإصلاح، بعضها جاءنا من الخارج، والبعض الآخر جاءنا من الداخل، وربما كانت مبادرات الخارج أسبق زمنا من حيث الإعلان عنها من مبادرات الداخل.

ولقد جاءت مبادرات الداخل استجابة طبيعية للتطورات التى تحدث فى المنطقة العربية أو الوطن العربى بصفة عامة، فى حين أن مبادرات الخارج جاءت تعبيرا عن رغبات الآخر وأهدافه، أكثر منها تعبيرا عن مشكلاتنا وحاجتنا لإصلاح هذه المشاكل.

وكان القاسم المشترك بين هذه المبادرات جميعا أنها وهى تعلن عن نفسها استخدمت كلمة واحدة هى (الإصلاح)...

إلا أن الإصلاح الذى تقصده مبادرات الخارج كان يعنى :

١ . الإصلاح السياسى بتحقيق الديمقراطية وإطلاق الحريات.

٢ . الإصلاح الاجتماعى بتغيير ثقافة المجتمع وقيمه وأساليب حياته.

٣ . الإصلاح الاقتصادى بالانتقال إلى اقتصاد السوق، وهو الاقتصاد الحر.

٤ . الإصلاح الدينى والذى روج له بعنوان:

(تجديد الخطاب الدينى).

أما الغرض من هذه المفاهيم الإصلاحية فهو معلوم . كما ذكرنا سابقا . لأنها جاءت لتحقيق أهداف ورغبات الآخر.

ولأن الجميع صار مشغولا بحديث الإصلاح فقد وجدتنى . كذلك . مشدودا إلى المشاركة فى الحوار الدائر حول هذه القضية المهمة، وفى البداية أود أن أنبه إلى أمرين مهمين :

الأمر الأول:

هو ان كلمة الإصلاح تداعب خيال الناس فى أن يحيوا حياة افضل، إلا أن التعامل مع قضية الإصلاح لا ينبغى ان يتم بأسلوب تفريغ الشحنة العاطفية أو إثارة حماس الناس لأن قضايا الأمم لا تعالج بالعواطف والانفعالات والحماس.

الأمر الثانى :

هو اننا بحاجة إلى إدراك أن العامل الداخلى هو الذى يلعب الدور الحاسم فى تحقيق الأحداث، وليس العامل الخارجى، وأعنى بذلك :

(أن مصيرنا فى أيدينا نحن لا فى يد غيرنا).

واننا وحدنا الذين نحدد الأسلوب الذى يتعامل به غيرنا معنا، وهذا ما يكشف عنه قانونان :

١ . قانون الطبيعة...

٢ . قانون الشريعة...

اولا : فى قانون الطبيعة :

الغصن لا يسقط فجأة بسبب قوة الريح او الصعود عليه، أو جذبه بقوة اليد ولكن سقوط الغصن يبدأ قبل ذلك بفترة حينما يضعف ارتباطه بالشجرة نتيجة حدوث النخر والتسوس الداخلى فيه، ثم يأتى اى عامل خارجى فيؤدى إلى سقوطه.

ثانيا : فى قانون الشريعة :

نجد أن الهزيمة التى حدثت للمسلمين فى أحد مع وجود الرسول بينهم، ردها القرآن إلى أمور داخلية عند المسلمين، وليس إلى قوة أعدائهم :

﴿ ... قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ... ﴾ (آل عمران ١٦٥).

وهذا قانون ينطبق على الفرد، والأسرة، والمجتمع، والناس جميعا.

وبناء على ما سبق فإنى اتساءل :

ما المراد بالإصلاح؟

وكيف يتحقق؟

وما أهدافه وغاياته؟

وما وسائله وأدواته؟

وابدأ بالنقطة الأولى وهى :

ما المراد بالإصلاح ؟

الإصلاح من الكلمات التى تعرف معانيها بما يقابلها من الألفاظ، فالإصلاح يقابله الإفساد، ومن ثم يكون المراد بالإصلاح هنا:

إزالة الإفساد كى تعود الأمور إلى وضعها الصحيح.

يقول الله تعالى :

﴿ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ... ﴾ (الأعراف ٥٦).

فالأرض خلقها الله صالحة للحياة وطلب من الإنسان أن يحافظ عليها، كى تستمر صالحة للحياة، وإصلاح الأرض يكون بإقامة المنهج الإلهى فيها وليس مناهج البشر، ومن ثم فالرسالة الإلهية هى رسالة إصلاح، ولكن الإصلاح الذى تقصده أوسع مدى من الإصلاح الذى يفكر فيه الإنسان، إنه الإصلاح الحقيقى الذى يشمل كل علاقات الإنسان بغيره. بدءا من علاقته بربه وعلاقته بالكون الذي يعيش فيه، وعلاقته بغيره من البشر، وانتهاء بعلاقته بنفسه.

فالإصلاح الذى نقصده لا يقتصر على الجوانب الاقتصادية أو السياسية وحدها وإنما يشمل أو يبدأ بجوانب أكثر وأهم من ذلك منها :

١ . إصلاح علاقة الإنسان بخالقه.

يقول الله تعالى فى ذلك:

﴿ ... فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (الأعراف ٣٥).

﴿ ... مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الأنعام ٥٤).

٢ . إصلاح علاقة الإنسان بالكون.

يقول الله تعالى فى ذلك:

﴿ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ... ﴾ (الأعراف ٥٦).

٣ . إصلاح علاقة إنسان بالمجتمع.

يقول الله تعالى فى ذلك :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ... ﴾ (الأنفال ١)

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ (الحجرات ٩).

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ... ﴾ (البقرة ٢٢٠).

٤ . إصلاح علاقة الإنسان بنفسه.

يقول الله تعالى فى ذلك:

﴿ فَمَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (المائدة ٣٩).

﴿ فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (الأعراف ٣٥).
﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ⑨ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ⑩ ﴾ (الشمس ٩ - ١٠).
وحتى يحقق الإصلاح نتائجه لابد من توافر شرط مهم جدا هو :
(إرادة الإصلاح).
وإرادة الإصلاح تسبق الإصلاح ذاته.
وقد أوضح الله تعالى ذلك فى كتابه الكريم:
﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (هود ٨٨).
﴿ إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ (النساء ٣٥)
﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا ﴾ (البقرة ٢٢٨).
فيتضح من الآيات أن هناك ارتباطا بين إرادة الإصلاح وحدوث الإصلاح، فإذا وجدت الإرادة كان الإصلاح أقرب إلى التحقق، ولذلك فرق القرآن بين إرادة الإصلاح والتوفيق:
﴿ إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ (النساء ٣٥).
﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (هود ٨٨).
فالمطلوب إذن أن يريد الإنسان الإصلاح وأن يتجه إليه بكل كيانه، ولا يتلكأ ولا يبحث عن أعذار، لأن ذلك قد يحرمه من التوفيق.

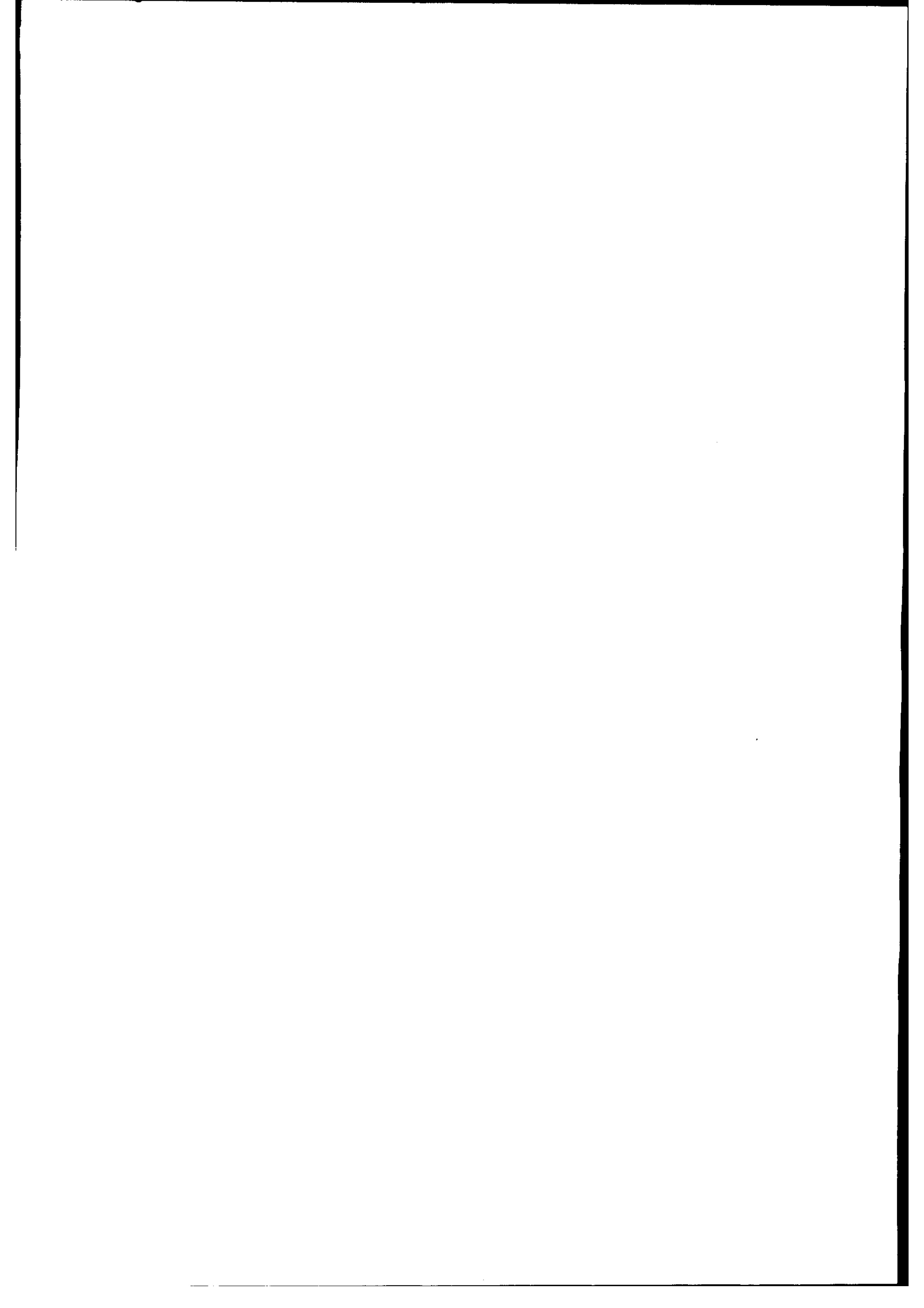
الإصلاح هو خطة عمل لكل جوانب الحياة، تشتمل على النواحى العقائدية والعملية، وإهمال الجوانب العقائدية فى خطة الإصلاح يحرم الإصلاح من سند كبير يستمده الإنسان من الطاقة الإيمانية، أضف إلى ذلك أن الإصلاح فى أى جانب من جوانب الحياة المختلفة هو مجال للتعبد:

﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء ١١٤).

إن خطاب الإصلاح، كما رأينا، خطاب عام وشامل، وموجه إلى الأسر والأفراد، والمجتمعات، والمؤسسات، والمطلوب منا اليوم، ونحن نناقش خطط الإصلاح، أن ننظر فى كل ما يعرض علينا، ولكن من منظور يحقق مصالح مجتمعاتنا، ويتحقق ذلك:
عندما يتوافق الإصلاح مع المنهج الإلهى.
عندما يكون الإصلاح هدفه الإنسان وغايته إرضاء الله.

❖ ❖ ❖

هل دقت ساعة الإصلاح؟



عندما نراجع وقائع الأيام الماضية، ونراجع ما جرى فيها من اجتماعات ومؤتمرات ومناقشات تبلورت فيها رؤية واضحة ومحددة لعملية الإصلاح، على نحو ما ورد فى وثيقة مؤتمر مكتبة الإسكندرية التى التى نشرت فى جريدة الأهرام ١٧ مارس ٢٠٠٤، نصل إلى نتيجة مؤداها أن ساعة الإصلاح والتغيير قد دقت. وأن لحظة تاريخية قد أدركت هذه الأمة، حيث نجح أعداؤها - دون قصد - فى أن يضعوا الجميع أمام هدف واحد، وكما قال كاتب كبير: (إن المبادرة الأمريكية، رغم الرفض العربى الواسع لمنطلقاتها، قد نجحت فى حفز المجتمعات العربية على أن تجعل قضية الإصلاح والتغيير على رأس أولوياتها، كما نجحت باستفزازها للعرب فى خلق مناخ وطنى داخل كل بلد عربى، ويلتقى فى هذا المناخ الحكومات والشعوب على ضرورة وحتمية الإصلاح، شريطة أن يكون الإصلاح صدى لمطالب الداخل وليس مفروضا من الخارج. وأن يكون شاملا، واسع المجال ليحقق مصالح العرب جميعا).

من أجل ذلك قلت إن ساعة الإصلاح قد دقت ولكن مع ذلك يظل الفرق شاسعا بين الدعوة إلى الإصلاح، وتحقق الإصلاح بالفعل، والعبرة فى النهاية ليست بما يقال، وإنما بما يفعل، فالفعل لا القول هو الذى سيجعل من الإصلاح حقيقة وليس حلما أو وهما.

والسؤال الآن :

ما نقطة البداية الصحيحة التى تجعل من الحلم حقيقة والأمانى إرادة؟...

وقد تخيلت أن الناس يختلفون فى ذلك، فيرى بعضهم أن نبدأ بالإصلاح السياسى تحقيقا للديمقراطية الكاملة أو أن نبدأ بالإصلاح الاقتصادى على أساس أن النمو الاقتصادى سيساعد الناس على تحقيق الديمقراطية، ولكل وجهة نظر.

ولكنى أعتقد أن الخطوة الأولى فى عملية الإصلاح هى الإنسان فالإصلاح يبدأ

بالإنسان وينتهى بالإنسان، فالفاعل للإصلاح هو الإنسان، والمستفيد من الإصلاح هو الإنسان، وهكذا فى التنمية فهى تبدأ بالإنسان وتنتهى به وله.

فنقطة البداية هى الإنسان...

لابد إذن من إصلاح الإنسان.

ولكن ما نقطة البداية فى إصلاح الإنسان؟

إن نقطة البداية فى إصلاح الإنسان هى (تحرير إرادته).

إن الإنسان، عندما يولد، يولد بإرادة حرة، غير مقيدة بشىء، ولكن تبدأ القيود شيئا فشيئا بعد ذلك، والإرادة بعض مقتضيات الاستخلاف:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً . . . ﴾ (البقرة ٣٠).

فالخلافة تقتضى وجود الإرادة عند المستخلف، وإلا فما قيمة أن يستخلف وهو مسلوب الإرادة؟، وقد أشار عمر. رضى الله عنه . إلى ذلك فى قولته المشهورة:

(متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا).

إذن الناس يولدون جميعا أحرارا، لهم إرادة حرة، يقدرون بها على الفعل وعدم الفعل، والإرادة هى الوظيفة الثانية من القلب.

فالأولى هى أن يعقل الأفكار ثم يحللها.

والثانية هى أن يأخذ منها موقفا إما بالقبول أو الرفض.

والإرادة مثلها مثل سائر الوظائف، إما أن تنمو وتنضج، أو تضعف وتموت، فإذا نمت ونضجت صنع الإنسان بها المعجزات..، وإذا ضعفت وماتت فقد الإنسان آدميته، ومن هنا عنى القرآن الكريم ببيان أهمية الإرادة، وبين كذلك أن الإرادة فى الإنسان صالحة للخير كما هى صالحة للشر.

وقد حدثنا القرآن فى آيات كثيرة عن :

إرادة الإصلاح :

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ . . . ﴾ (هود ٨٨).

وعن إرادة النصح :

﴿ وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ ﴾ (هود ٣٤).

وعن إرادة الهداية :

﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ﴾ (النساء ٨٨).

وعن إرادة التيسير :

﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ . . . ﴾ (القصص ٢٧).

وعن إرادة الإنكاح :

﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ . . . ﴾ (القصص ٢٧).

كما حدثنا عن إرادة الخيانة :

﴿ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ . . . ﴾ (الأنفال ٧١).

وعن إرادة الخديعة :

﴿ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ . . . ﴾ (الأنفال ٦٢).

وعن إرادة الكيد والمكر :

﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ ﴾ (الصافات ٩٨).

وعن إرادة إخفاء الحقيقة :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ . . . ﴾ (التوبة ٣٢).

وهكذا تكون الإرادة صالحة للخير والشر، وهى تعتمد على عوامل خارجية فى توجيه دفتها، فإذا كانت البيئة والزمن زمن خير توجهت الإرادة إلى الخير، والعكس صحيح.

ما الذى يقيد الإرادة إذن ويحبسها من الانطلاق لتحقيق ما يريده الإنسان؟

هناك نوعان من العوامل التى تقيد الإرادة:

عوامل داخلية، وعوامل خارجية.

أما العوامل الداخلية فيأتى على راسها الخوف والجهل والضعف.

أما العوامل الخارجية فمنها الاستبداد وسوء الإدارة والعادات الضارة.

فإذا تحكمت هذه العوامل فى الإنسان فإنها تشل قدرته على الحركة والفعل، وبالتالى يفقد فاعليته، ويصير ضعيفا ومطمعا لغيره، وهنا يأتى السؤال المهم :

كيف نحرر إرادة الإنسان؟

إن تحرير إرادة الإنسان يقوم على قاعدة أو مربع له أربعة أضلاع نسميه مربع التحرير، وهذه الأضلاع هى:

١. الإيمان

٢. العمل

٣ . العلم

٤ . الحرية

اما عن كيف يسهم هذا المربع فى تحرير إرادة الإنسان، فسيكون له حديث مستقل، واختم حديثى اليوم بنموذج عملى لتحرير الإرادة:

فقد حدثنا القرآن عن شخصية (ذو القرنين) وهو شخصية مصلحة. وكيف انه حرر إرادة شعب، فإذا الحلم . عندهم . يصبح حقيقة.

يقول الله تعالى فى كتابه الحكيم :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ (الكهف ٩٣ . ٩٤).

هؤلاء قوم عندهم مشكلة مع ياجوج وماجوج، وهم قوم آخرون يغيرون عليهم وينهبون ثرواتهم، وهم عاجزون عن مواجهتهم ورد عدوانهم، فلجأوا إلى هذا الرجل القادر، كى يساعدهم فى حل مشكلتهم، فكيف كانوا يفكرون؟

﴿ هَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ (الكهف ٩٤).

إن كلامهم يوحى بأنهم يرغبون فى حل المشكلة، ولكنهم يفتقدون الإرادة اللازمة لذلك، فعرضوا على ذى القرنين اموالا مقابل ان يساعدهم.

فماذا قال لهم ؟

وكيف كان رده عليهم ؟

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ .. ﴾ (الكهف ٩٥).

اى قال لهم : لا حاجة لى بمالكم فقد آتانى الله خيرا منه، ولكنه لم يتخل عنهم بل قال لهم :

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ (الكهف ٩٥ . ٩٧).

نلاحظ هنا أن المواد الأولية موجودة ومتوافرة، فالتراب موجود وكذلك الحديد والنار

والنحاس، وأيضا اليد العاملة موجودة بدليل أنه كان يخاطبهم ويقول : انفخوا وأعينونى، والآن أين تكمن المشكلة إذن؟

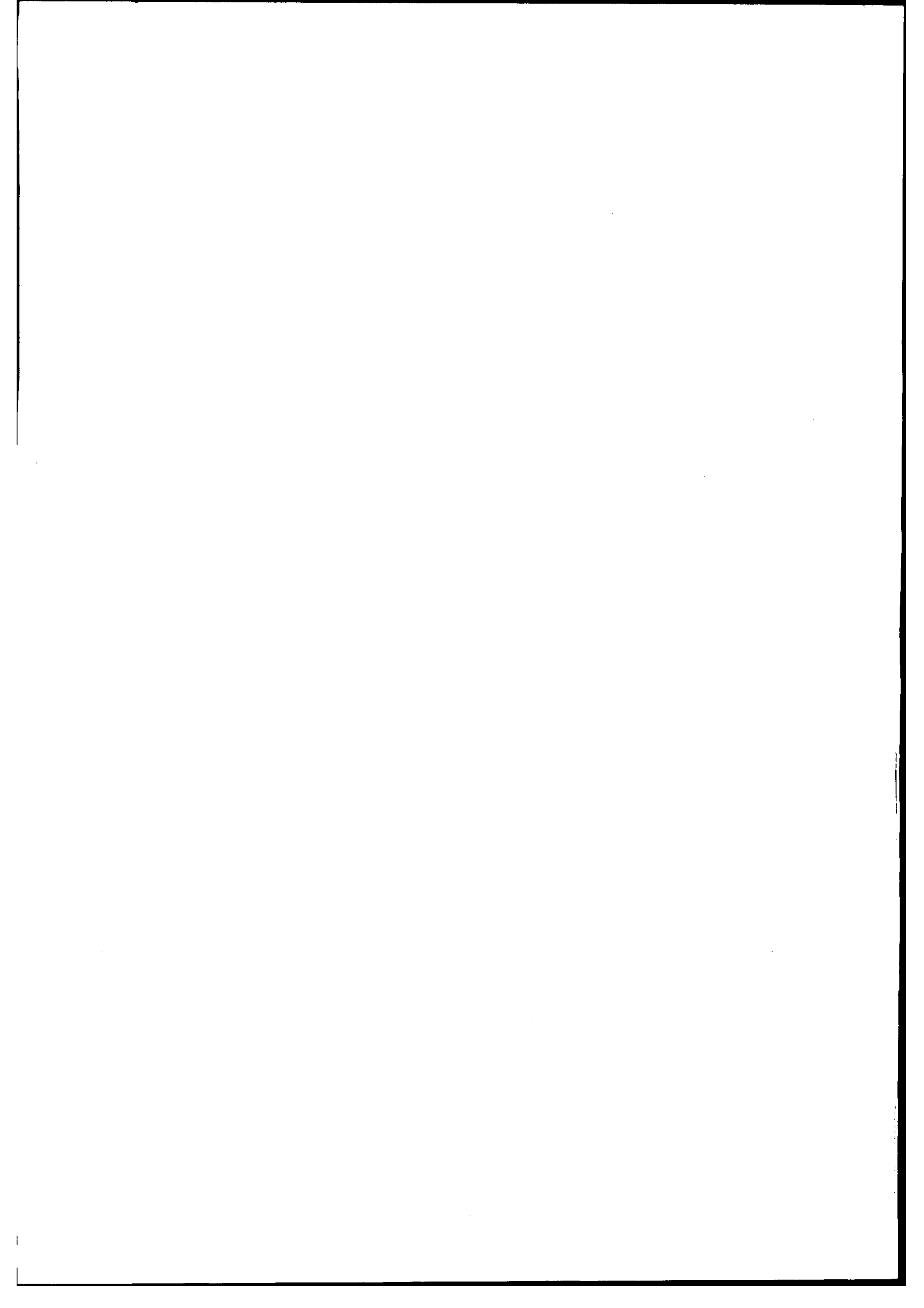
إن المشكلة هنا هى أنهم يفتقدون الإرادة ولذلك قال لهم : أعينونى بقوة.

فهو لم يأت بقوة خارقة من عنده، إنما كشف عن الإرادة المعطلة والمقيدة التى أدت إلى حالة من العجز والشلل، وأثبت لهم أنهم كانوا قادرين على حل المشكلة بأنفسهم لو كانت عندهم إرادة، فهو بنى بأيديهم ولم يبن لهم، لأنه أيقظ فيهم الإرادة التى كانت معطلة.

إن تحرير الإرادة أمر مطلوب، لوجود الإنسان القادر على إحداث الإصلاح والتغيير، ولعل هذا ما أشارت إليه وثيقة مؤتمر الاسكندرية عندما طالبت بتطوير وتنمية قدرات المنظمات غير الحكومية، وتعديل القوانين المقيدة لحرية تكوين الجمعيات أو النقابات والاتحادات التطوعية بما يحقق المشاركة الفعالة فى إحداث التغيير المنشود.

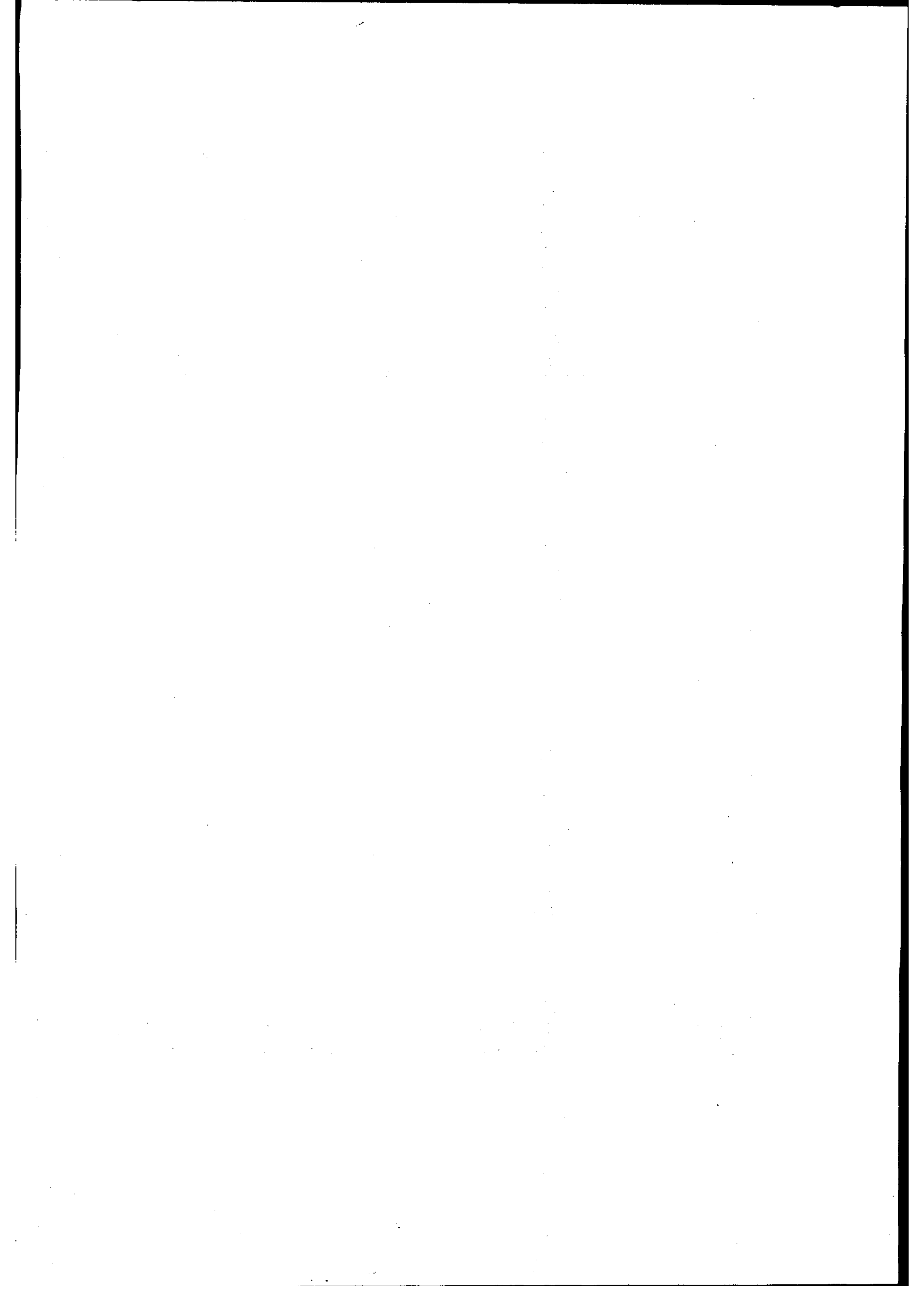
وأضيف أن تحرير الإنسان من الخوف هو الذى سيدفع بعملية الإصلاح إلى أقصى مدى ممكن ويعيد تصحيح العلاقة بين الإنسان والمكان فى بلادنا، إذن نقطة البداية هى تحرير الإرادة.







إصلاح الأخلاق.. كيف؟



يقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأنفال ٢٧).

إذا كنا اليوم نشكو من انعدام الصدق والأمانة فى التعامل بين الناس، فإن السؤال الذى يفرض نفسه هو:

كيف نشجع الناس على أن يكونوا صادقين أمناء فى أقوالهم وأفعالهم؟

هل نكتفى بمطالبتهم بذلك وتحذيرهم من الكذب وخيانة الأمانة ؟

أم أنه لابد بالإضافة إلى تحذيرهم أن ندلهم على الإجراءات والوسائل العملية التى تساعدهم على أن يتحلوا بالصدق والأمانة؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال أود أن أشير وأنبه إلى ثلاثة أمور هامة :

الأمر الأول : أن إصلاح أخلاق الناس يأتى فى مقدمة أولويات الإصلاح، بل هو المدخل الحقيقى للإصلاح، لأنه سيصب فى النهاية فيما عداه من جوانب الحياة فالإصلاح الاقتصادى أو الاجتماعى أو الثقافى لن يتحقق أى منها بصورة صحيحة إلا على أساس الأخلاق المستقيمة.

إن عملية الإتقان والجودة فى أداء أى خدمة أو إنتاج أى سلعة وفى تسويقها، هى جزء لا يتجزأ من الأخلاق المستقيمة، فالجودة هى العنصر الذى ينبغى أن نعتمد عليه فى المنافسة، إذا أردنا أن نتحول إلى اقتصاد السوق الحر، وقديما قال الشاعر أحمد شوقى :

فإنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

الأمر الثانى : أن النفس البشرية قد جبلت على نحو خاص غير متكرر، حيث يتجاور فيها كل شىء مع نقيضه، فالخير يتجاور مع الشر، والأمانة تتجاور مع

الخيانة، والوفاء يتجاور مع الغدر، والرحمة مع القسوة، والتقوى مع الفجور، كل هذه الأخلاق المتناقضة تعيش بذورها الحية داخل النفس، قال الله تعالى :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ (الشمس ٧ . ٨).

فكل نفس إذن صالحة للاستقامة وللأنحراف.

الأمر الثالث : أن الأخلاق لا تعتمد فقط على ما جبل عليه الإنسان، وإنما تعتمد أيضا على البيئة والظروف التى تحيط به، وأعنى بذلك أن الظروف الثقافية والاقتصادية والاجتماعية تتحكم فى الإنسان وتوجه أخلاقه، فإذا عاش فى بيئة تنحاز إلى الصدق والأمانة، انحاز هو إلى ما جبل عليه من الصدق والأمانة، وابتعد عما جبل عليه من الكذب والخيانة، وإذا عاش فى بيئة وظروف تنحاز إلى الجبن أو تنحاز إلى الشجاعة فإنه كذلك يتأثر بأى منهما فيصبح جبانا أو شجاعا.

بعد هذا نعود إلى السؤال الأصلى:

كيف نشجع الناس على أن يكونوا صادقين أمناء فى أقوالهم وأفعالهم؟

عند الإجابة عن هذا السؤال لابد من أن نجمع بين أمرين:

١ . دعوة الناس، باسم الدين، إلى التحلى بصفتى الصدق والأمانة، كى نحتذى برسولنا الكريم الذى كان يلقب بالصادق الأمين.

٢ . دعوة الناس أيضا إلي إظهار وتحقيق الوسائل والإجراءات العملية التى تشجع على الصدق والأمانة.

فهذه هى طبيعة الإسلام الذى لا يدعو إلى فضيلة أو ينهى عن رذيلة، إلا ويبين الإجراءات العملية أو الحل العملى لهذه الدعوة أو هذا النهى، فعلى سبيل المثال :

حينما جاء النهى فى القرآن الكريم عن الزنا كوسيلة لإشباع الرغبات الإنسانية لما له من أضرار اجتماعية، بين القرآن فى نفس الوقت الطريق المستقيم الذى أحله الله لذلك وهو الزواج.

أما دعوة الناس، باسم الدين، إلى الصدق والأمانة، فقد عنى بها القرآن والسنة فى أكثر من موضع، فالقرآن لا يأمر الناس فقط بأداء الأمانة، وإنما يحذرهم من خيانتها فيقول :

﴿ لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ ﴾ (الأنفال ٢٧).

ومظاهر الأمانة التى عنى بها الإسلام فى نواحى الحياة المختلفة كثيرة ومنها :

١ . وضع كل شىء فى المكان اللائق به والمناسب له، فلا يسند منصب إلا لمن يستحقه (من ولى من أمر المسلمين شيئا، فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه، فقد خان الله والرسول والمؤمنين).

٢ . حرص المرء على إنهاء واجباته كاملة واستنفاد اقصى جهد له فى أداء هذه الواجبات ﴿ إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه ﴾.

٣ . حرص المرء وسهره على حقوق الناس التى وضعت بين يديه.

٤ . عدم استغلال الرجل لمنصبه الذى أسند إليه فى تحصيل منفعة شخصية له أو لأقاربه أو معارفه، وفى هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم.

(من استعملناه على عمل فرزقناه رزقا فما أخذ بعد ذلك فهو غلول . أى خيانة . ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون).

٥ . أداء وإرجاع كل ما يودعه شخص عند آخر عندما يطالبه به، فعلى المؤمن ان يؤدى الأمانة لصاحبها.

إن الأمانة فضيلة عظيمة وضخمة، ولا يستطيع حملها الضعفاء من الناس، وإنما يحملها الرجال الأقوياء، وقد ضرب الله مثلا لضخامتها فأبان أنها تثقل كاهل الوجود كله:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمواتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ (الأحزاب ٧٢).

والله يعتبر خيانة الأمانة خيانة له سبحانه وتعالى:

﴿ لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ ﴾ (الأنفال ٢٧).

ويحذرنا الرسول صلى الله عليه وسلم من خيانة الأمانة فيقول :

﴿ لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له ﴾ .

﴿ أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك ﴾ .

والدعوة إلى التحلى بصفتى الصدق والأمانة وحدها لا تكفى، وإنما لابد من توضيح وبيان الإجراءات والوسائل العملية التى تساعد الناس على ان يكونوا صادقين وأمناء فى عملهم وفى حياتهم بصفة عامة، ومن هذه الوسائل والإجراءات :

١ . إعطاء الناس حقوقهم غير منقوصة، إذا أدوا أعمالهم كاملة غير منقوصة.

وفى هذا يقول رسولنا الكريم :

(أعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه).

فالذى يشجع الناس على عدم الصدق والأمانة أنهم لا يأخذون المقابل الكامل لأعمالهم بعد أدائها، وإذا حدث ذلك فإنهم قد يكونون مضطرين إلى خيانة الأمانة وعندئذ يكون الذنب على من ألجأهم إلى ذلك.

٢ . توفير ظروف وفرص العمل التى تكفل للناس الحياة الكريمة.

فقد روى عن أصحاب النبى . عن أنس . (أن رجلاً من الأنصار أتى النبى . صلى الله عليه وسلم . يسأله فقال له النبى :

أما فى بيتك شىء ؟

فقال الرجل :

بلى حلس (كساء) نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعب (إناء) نشرب فيه الماء. فقال النبى :

فأتنى بهما.

فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله.

وقال : من يشترى هذين؟

قال رجل :

أنا آخذهما بدرهم.

فقال الرسول : من يزيد على درهم؟ مرتين أو ثلاثا.

قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين.

فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين، وأعطاهما الأنصارى.

وقال له : اشتر بأحدهما طعاما فانبذه لأهلك، واشتر بالآخر قدوما فأتنى به.

ففعل، وجاء بالقدوم، فشد فيه رسول الله عودا بيده.

ثم قال :

اذهب فاحتطب وبع، ولا أرينك خمسة عشر يوما، فذهب الرجل يحتطب ويبيع فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبا وببعضها طعاما.

فقال له رسول الله :

هذا خير لك من أن تجيء المسألة نقطة سوداء فى وجهك يوم القيامة، إن المسألة لا تصلح إلى لذى فقر مدقع، أو غرم مقطع (دين ثقيل)، أو دم موجع؟؟

فالقصة السابقة هى نموذج مثالى أوضحه لنا النبى عليه الصلاة والسلام فى حسن الإدارة، واستثمار الإمكانات المتاحة، وزيادة الإنتاجية، وتحقيق الإيجابية.

والشاهد فى الحديث أن النبى . صلى الله عليه وسلم . استخدم المنهج القرآنى وهو :

. الدعوة إلى فضيلة، أو النهى عن رذيلة.

. بيان الإجراءات والوسائل العملية التى تساعد على اكتساب هذه الفضيلة، أو البعد عن تلك الرذيلة.

فالنبى لم ينهه عن سؤال الناس وكفى، وإنما ساعده على إيجاد فرصة العمل التى ستعيد إليه الثقة فى نفسه، وفى دينه، وفى كل شىء بدليل أن الرجل تحول من الصفر إلى قيمة إيجابية.

أما القدوم الذى قام الرجل بشرائه فيمكن تحويله إلى مفردات جديدة تناسب الزمن الذى نعيش فيه مثل :

. بقرة عشراء يتم رعايتها حتى تؤتى خيرها.

. قطعة أرض تستصلح.

. حفر بئر لسقى الأرض البور تمهيدا لرعايتها.

. حاسب آلى يستخدم لتقديم بعض الخدمات وتعليم الناس.

. ماكينة تطريز يتم التكسب منها وتعليم الفتيات.

. مركز تدريب مهنى يقدم للمجتمع أفرادا على درجة عالية من الكفاءة والخبرة فى كافة المجالات.

مثل هذه المجالات السابقة للعمل هى ترجمة عملية لما قام به رسول الله، وهى تثبت مسئولية المجتمع عن توجيه أبنائه إلى الأمانة والاستقامة، كما يحدث فى لجان الخدمة الاجتماعية بالمساجد.

٣ . مكافأة العامل الأمين أو الموظف الأمين تشجيعا له وحفزا لغيره على الأمانة وحسن أداء الواجب.

قال عبد الله بن دينار :

خرجت مع عمر . رضى الله عنهما . فعرسنا (استرحنا) فى بعض الطريق، فانحدر بنا راع من الجبل يرعى الغنم.

فقال عمر له : يا راع، بعنى شاة من هذه الغنم.

فقال الراعى : إنى مملوك.

فقال عمر يختبره:

قل لسيدك : أكلها الذئب.

فقال الراعى : فأين الله ؟

فبكى عمر . رضى الله عنه . ثم غدا مع المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه، وقال له:

لقد أعتقتلت هذه الكلمة فى الدنيا وأرجو أن تعتقك فى الآخرة.

لقد كفافأة عمر على أمانته وهذا يجعله يستمسك بها أكثر.

مثل هذه الوسائل والإجراءات التى يمكن إيجازها فى :

١ . إعطاء الناس حقهم كاملا.

٢ . توفير ظروف العمل الطيب للناس.

٣ . مكافأة الناس على أمانتهم.

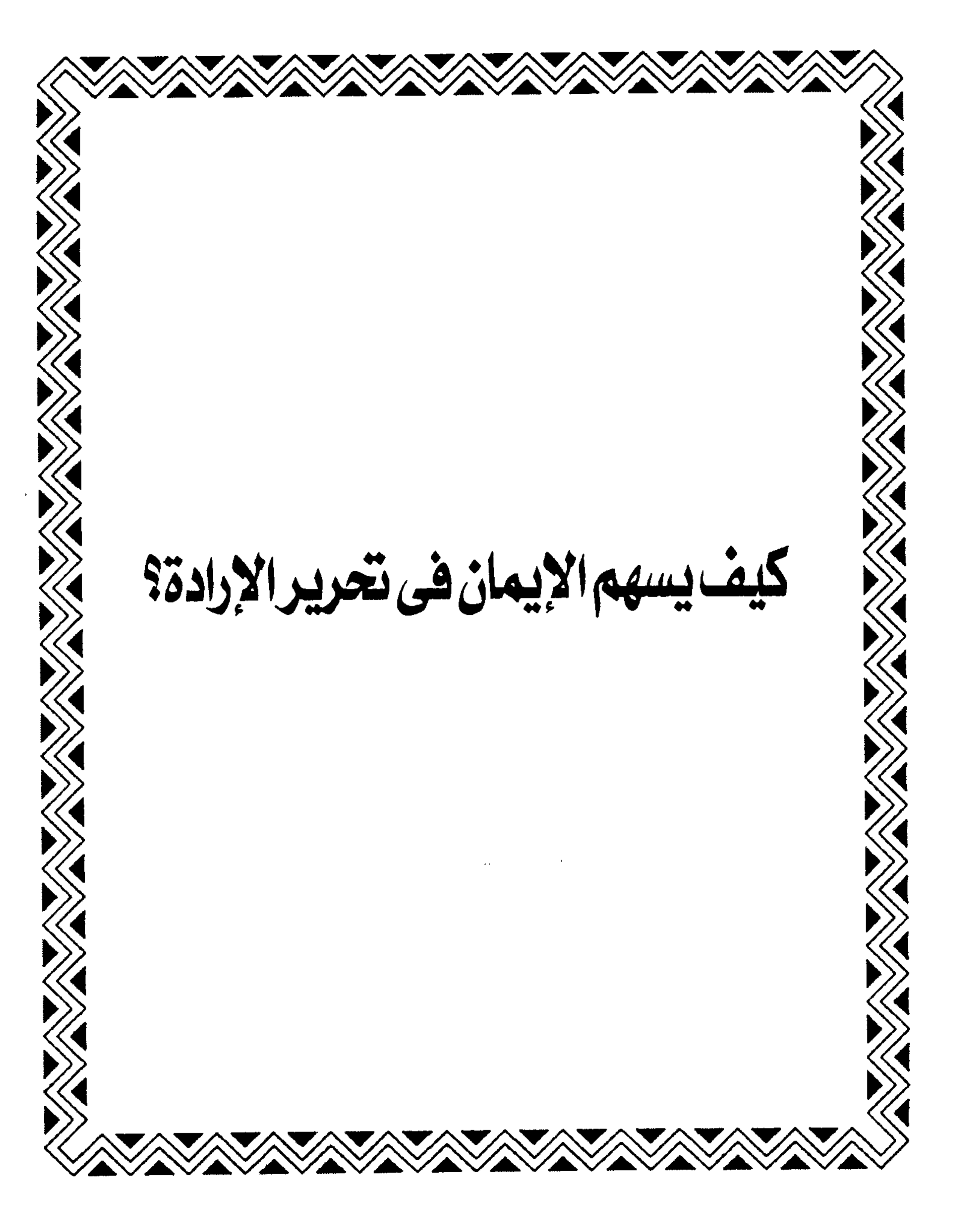
تشجع الناس على الأمانة وتجعلهم ينحازون إلى ما جبلوا عليه من الأمانة والأخلاق الحميدة، وترك الخيانة وكافة الرذائل.

وهنا أتوجه بدعوة أو تساؤل :

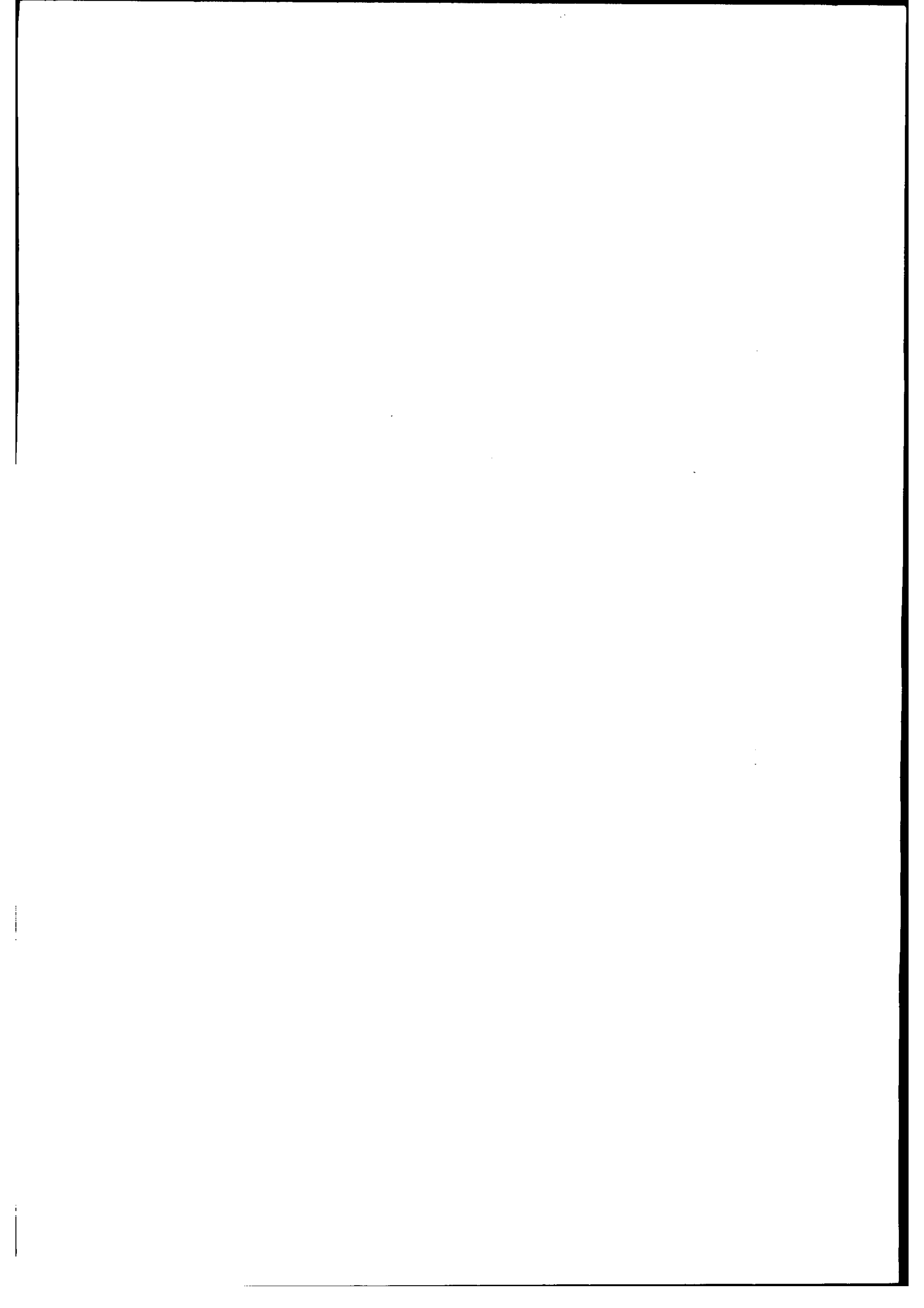
لماذا لا تتحول مناسباتنا الدينية إلى مناسبات لتشجيع الناس على الأمانة، وتكريم الأمناء منهم، كى نستعيد روح الصدق والأمانة والأخلاق الحميدة فى جميع مجالات الحياة؟

وما ذلك بصعب ولا مستحيل.

❖ ❖ ❖



كيف يسهم الإيمان فى تحرير الإرادة؟



يقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (الأنفال ٢٩).

كيف يسهم الإيمان فى تحرير إرادة الإنسان؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال لابد أن نبين أولا معنى الإيمان:

١. الإيمان ليس مجرد إعلان المرء بلسانه انه مؤمن، فقد ادعى قوم من الأعراب الإيمان بلسانهم ولكن القرآن رد عليهم ونفى الإيمان عنهم :

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحجرات ١٤).

٢. الإيمان ليس مجرد قيام المرء بأعمال وشعائر تعود القيام بها.. فما أكثر الذين يؤدون الشعائر وقلوبهم خاوية من حقيقة الدين:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧) ﴾ (الماعون ٤ . ٧).

٣. الإيمان ليس مجرد معرفة ذهنية، فهناك من الناس من يعرف الإيمان بعقله ولكنه يرفض الخضوع لحقيقة الإيمان فى سلوكه واعماله :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ (النمل ١٤).

ولكن الإيمان شىء آخر... يمكن أن نوجز معناه فى النقاط الآتية:

أولا: الإيمان هو إدراك عقلى تتكشف به حقائق الوجود على ما هى عليه فى الواقع، فبدون هذا الإدراك يقف الإنسان عاجزا عن فهم كثير من الظواهر الكونية والإنسانية. يصاحب الإدراك العقلى أمر آخر هو:

ثانيا : الخضوع القلبى والإرادى لحكم من آمن الإنسان به.

لذلك قال الله تعالى :

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (النور ٥١).

ويقول الله تعالى أيضا :

﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ...﴾ (النساء ٦٥).

يتبع هذين الأمرين أمر ثالث هو:

ثالثا : الحرارة الوجدانية التى تدفع الإنسان إلى العمل الصالح التى عبر عنها القرآن الكريم :

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ② الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ③ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (الأنفال ٢ ـ ٤).

فالإيمان إذن عبارة عن ثلاث مراحل :

١ . إدراك عقلى.

٢ . خضوع قلبى.

٣ . انفعال وجدانى يدفع إلى السلوك الصالح.

لكن المرحلتين الأولى والثانية لا تظهران بذاتهما، وإنما تعرفان بأثرهما، ولذلك قال بعض العلماء (الإيمان حقيقة إيجابية، ما أن تستقر فى الضمير حتى تعبر عن نفسها فى صورة عمل صالح، فالعمل الصالح هو الدليل على وجود الإيمان).

وكما قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم :

(ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل).

وهذا أيضا ما جاء فى حديث النبى صلى الله عليه وسلم إلى حارثة عندما قال له:

كيف اصبحت يا حارثة؟

فقال حارثة: أصبحت مؤمنا بالله حقاً.

فقال النبى : انظر ما تقول، فلكل حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟

فقال حارثة : عزفت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها وترابها، واسهرت ليلى واظمأت نهارى، واصبحت امشى فأنظر عن يمينى فأرى اهل الجنة فى الجنة ينعمون، وانظر عن يسارى فأرى اهل النار فى النار يعذبون، وانظر امامى فأرى عرش ربى بارزا.

فقال النبى : يا حارثة عرفت فالزم.

أى : لقد أدركت حقيقة الإيمان فالزم ما عرفت ولا تبتعد عنه. هذا هو الإيمان.

أما الإرادة فقد سبق أن أشرنا إلى ان الإنسان عندما يولد، فإنه يولد بإرادة حرة، حتى يتمكن من أداء الرسالة التى كلف بها على الأرض، فالإرادة الفردية إذن موجودة.. وكل إنسان، بغض النظر عن دينه ومعتقداته، عنده إرادة، وهذه الإرادة يصلح توجيهها للخير، ويصلح توجيهها للشر، لذلك جاء قول الله تعالى :

﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا... ﴾ (آل عمران ١٤٥).

وقال أيضا :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ (الشورى ٢٠)

لكن هذه الإرادة كما ذكرنا سابقا يمكن ان تقيد بقيود كثيرة تعطلها عن العمل.

والإرادة هى المرحلة الأخيرة التى تسبق الفعل، فإذا تعطلت الإرادة تعطل الفعل، وإذا تحركت الإرادة خرج الفعل إلى حيز الوجود ولذلك:

﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ... ﴾ (آل عمران ١٥٩).

فالعزم هو إذن المرحلة الأخيرة من الإرادة التى يأتى بعدها الفعل مباشرة، ومن هنا لكى تكون أفعالنا وقراراتنا حرة وتعبر عما يدور بعقولنا، لابد أن تتحرر إرادتنا، ولن تتحرر الإرادة إلا بالإيمان.

ونعود إلى السؤال الأول :

كيف يسهم الإيمان فى تحرير الإرادة؟

إن الإيمان الذى أقصده هنا هو الإيمان بالله واليوم الآخر، وهذا الإيمان هو الذى يرد الإنسان إلى إلى فطرته الأولى التى خلقه الله عليها، وعندما يعود الإنسان إلى فطرته، فإنه لن ينحرف ولن يضل ولن يشقى، لأن الفطرة ستهديه إلى الخير وإلى معرفة الله، وذلك بحكم ما جبلت عليه.

ولذلك قال الرسول عليه الصلاة والسلام:

(كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه).

ويقول الله تعالى :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ (الروم ٣٠).

فإذا عاد الإنسان إلى فطرته فإنه سيقبل أحكام الله ومنهجه، لأن هذا هو ما يتفق مع الفطرة، ولكن ذلك يحتاج إلى جهد كبير.

فالفطرة تفسد بسبب الموروثات الاجتماعية والثقافية التى يرثها الفرد من الأسرة والمجتمع الذى يعيش فيه، ومن هنا ركز الأنبياء على قضية الإيمان وتكررت عبارة:

﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ (الأعراف ٥٩ . ٦٥ . ٧٣ . ٨٥).

لأن هذه المسألة سترد الناس إلى الفطرة الصحيحة التى تعرف الله وتستمد منه أحكامها.

وقد قدم القرآن نموذجا عمليا لما صنعه الإيمان فى نفوس البشر حينما ردهم إلى الفطرة الصحيحة، ولما عادوا إلى الفطرة السليمة تغير فكرهم وكلامهم وسلوكهم، إنها قصة سحرة فرعون، فقد كان السحرة من رجال فرعون يساعدونه فى توطيد دعائم حكمه بما يقومون به من أعمال وحيل، ولما أرسل موسى إلى فرعون يدعوه إلى عبادة الله وحده، قال فرعون لمن حوله . كما يقول القرآن فى سورة الشعراء:

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء ٣٤ . ٥١).

فما الذى حدث؟ ما الذى غير هؤلاء السحرة؟ إنه الإيمان الذى أنار الله به عقولهم ونفوسهم فحدث التحول العظيم، إن إرادتهم فى البداية كانت مقيدة بأوامر فرعون الذى كانوا يعبدونه من دون الله، إن فطرتهم قد تلوثت بسبب المناخ الفرعونى الذى كانوا يعيشون فيه، ألم يقسموا، عندما ألقوا حبالهم وعصيهم، بعزة فرعون، إنا لنحن الغالبون؟

أهناك دليل أقوى من ذلك على تلوث الفطرة، ثم لما آمنوا وردهم الإيمان إلى فطرتهم التى خلقهم الله عليها كفروا بفرعون، وأعلنوا إيمانهم برب العالمين، ولم يرهبهم ما قاله فرعون، وإنما نظروا له فى سخرية واستهزاء.

إن الذين كانوا يتعلقون قبل المباراة بالأجر والرضا السامى الفرعونى، تعلقوا بالله والطمع فى رحمته ومغفرته، وزهدوا فى الدنيا:

﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ (طه ٧٢).

ولو نظرنا إلى الكلمات التى قالها السحرة قبل الإيمان نجدها كلمات متعلقة بالدنيا كالأجر والقرب من فرعون، ولو أمعنا النظر إلى الكلمات التى قالوها بعد الإيمان لوجدنا فيها الوضوح، الطمأنينة، الثقة، الوعى.

وهنا نسأل:

ما الذى يمكن أن يحول البشر من الغموض إلى الوضوح ومن القلق إلى الطمأنينة، ومن التردد إلى الثقة، ومن غياب الرؤية إلى الوعى؟

ما الذى يمكنه فعل ذلك فى الإنسان؟

إنه الإيمان بالله.

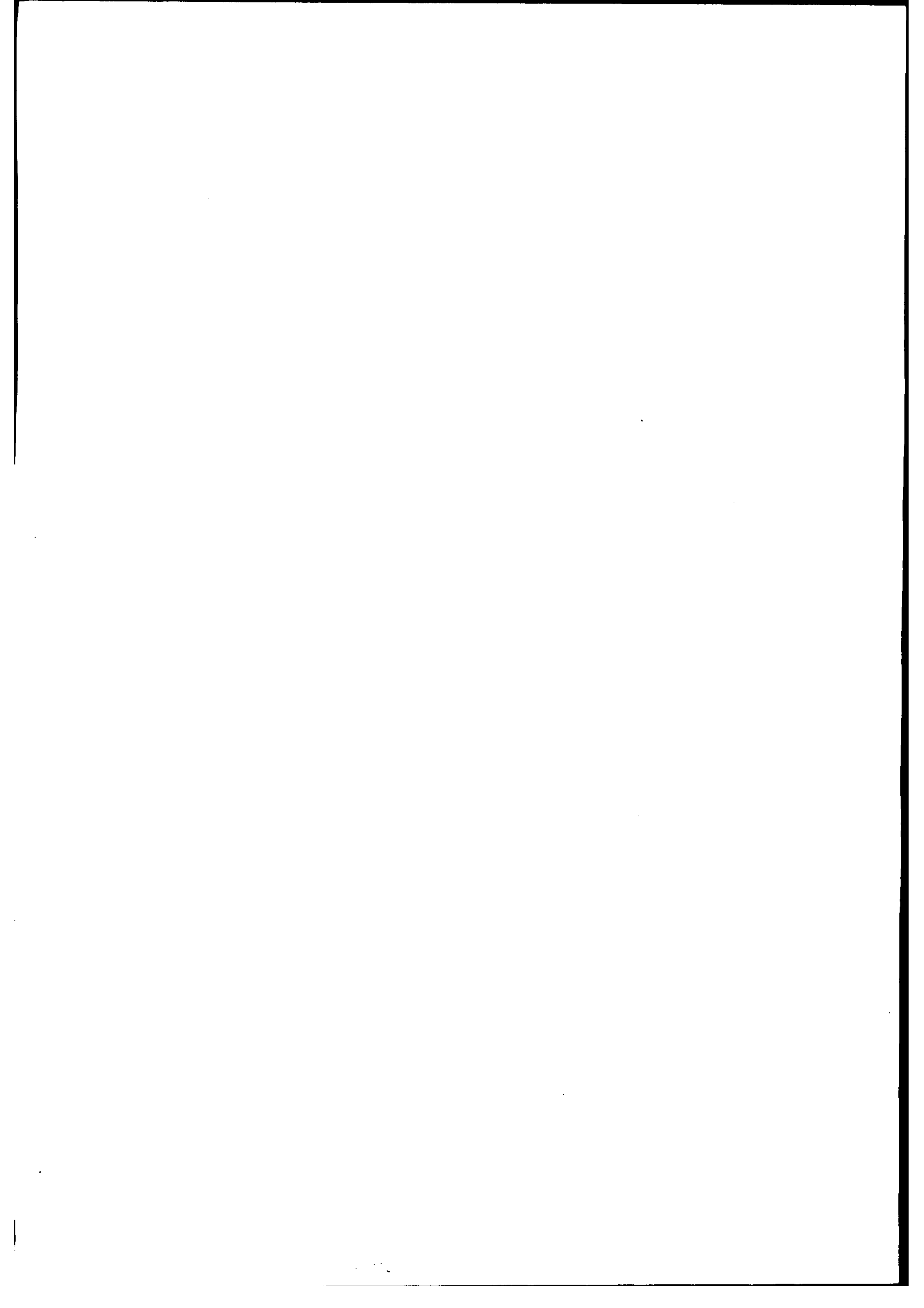
لقد أطلق الإيمان إرادتهم التى كانت مقيدة فانطلقوا يعبرون فى وضوح وجلاء وثقة، عما استشعروه فى نفوسهم، وهذه إحدى ثمرات الإيمان بالله تحرير الإرادة.

إن المشكلة التى نعانى منها الآن فى مجتمعاتنا هى غياب الإرادة الجماعية، التى تلتقى فيها الإرادات الفردية، إن غياب الإرادة الجماعية هى المسئول الأول عن غياب العمل الجماعى، وغياب العمل الجماعى هو المسئول عن كثير من أزماتنا، إن أحوالنا الآن تشبه عربة معطلة فى الطريق يدفعها بعض الناس إلى الأمام، ويدفعها البعض الآخر إلى الخلف، وهناك من يدفعها إلى الأجناب، ولن تتحرك العربة فى أى اتجاه بالطريقة السليمة إلا إذا التقت الإرادة الجماعية على دفع العربة فى اتجاه واحد وليس فى اتجاهات متعارضة، وإلا كان مصير العربة ان تنقلب!! أو على الأقل وفى أحسن الظروف لن تتحرك، بل ستظل واقفة.





كيف يسهم العلم فى تحرير الإرادة؟



يقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (البقرة ٣١ ، ٣٢).

كيف يسهم العلم فى تحرير إرادة الإنسان، وتحقيق الإصلاح الذى ننشده ؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال لابد من الإشارة إلى ثلاثة امور:

أولا : إن الحديث عن العلم إنما هو جزء من منظومة متكاملة تشكل طريقا للخروج من الأزمة التى تعيشها الأمة، ولا يمكن ان يحقق الإصلاح ثماره المرجوة إلا إذا تكاملت عناصر المنظومة التى تشمل : الإيمان، العلم، العمل، والحرية.

ثانيا : إن العلم الذى اتحدث عنه هو العلم بالمفهوم الإسلامى، لا بالمفهوم الأوروبى أو الغربى، فالعلم بالمفهوم الإسلامى يختلف فى المنطلقات والنتائج مع العلم بالمفهوم الغربى الذى يسود عالم اليوم والذى جر البشرية إلى مشكلات تتهدد الحياة البشرية، بأكثر مما قدمه لها من إمكانات ووسائل للتقدم.

ثالثا : إن العلم وسيلة محايدة، اى يمكن ان يستخدم للخير او للشر، ان يكون أداة تنوير أو أداة تدمير، ولذلك فإن العلم لا يصلح وحده لقيادة الحياة على الأرض فلابد من أن يتحرك وفق إطار الدين، ولذلك فإن العلم الإسلامى خادم للدين وليس سيدا عليه.

هذه هى الأمور الثلاثة التى أردت ان اشير إليها، قبل أن اتصدى للإجابة عن السؤال الذى طرحته فى البداية، وهو :

كيف يسهم العلم فى تحرير إرادة الإنسان وتحقيق الإصلاح الذى ننشده؟

الأمر يتطلب أولا ان نعرف معنى العلم.

فالعلم هو :

القدرة الخلاقة التى ميز الله بها الإنسان على جميع المخلوقات.

وقد كان هذا أمرا ضروريا، ليستطيع الإنسان القيام بواجب الخلافة فى الأرض.

وبالإضافة إلى ان الإنسان خلق مزودا بالقدرة على العلم والمعرفة:
﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل ٧٨).

فالله خلقنا وزودنا بوسائل العلم وهى السمع والبصر والأفئدة، بالإضافة إلى ذلك فقد تلقى الإنسان الأول العلم من الله تعالى مباشرة:

﴿ وعلم آدم الأسماء كلها . . . ﴾ .

اى ان الله وهب له اسماء الأشياء وخواصها، وما يتعلق بها، وهذا هو أساس العلم. وبعد ان هبط آدم إلى الأرض، وبدأت مسيرة الحياة الإنسانية، بدأت مسيرة العلم، فعلم آدم اولاده ما تلقاه من علم، واولاده علموه أولادهم.

وهكذا ظل العلم ينتقل من جيل إلى جيل حتى نشأت الحضارات الإنسانية الموغلة فى القدم، وتعتبر الحضارة المصرية القديمة من اقدم حضارات التاريخ، تلتها الحضارة الهندية، فالصينية، وبلاد فارس والعراق، ثم الحضارة اليونانية والرومانية، ثم الحضارة العربية الإسلامية، حتى وصلنا إلى الحضارة الأوروبية الحديثة التى تقود البشرية منذ حوالى خمسة قرون، فبدأ عصر النهضة الأوروبية من القرن الخامس عشر حيث تحولت أوروبا من دول منعزلة إلى قوة صناعية وعسكرية، ومع بداية القرن الثامن عشر (سنة ١٧٠٠) بدأت الثورة الصناعية الأولى، باختراع الآلة البخارية التى كانت المصدر الرئيس للطاقة، وفى نهاية القرن التاسع عشر تم اكتشاف المصباح الكهربائى، والمولدات الكهربائية، وفى بداية القرن العشرين تم اختراع الطائرة بواسطة (الأخوان رايت).

وفى منتصف القرن العشرين تم توليد الطاقة من المفاعلات النووية، كما حدثت ثورة فى الهندسة الكهربائية والإلكترونية باختراع جهاز الترانزستور، وفى العام نفسه تم استخدام المضادات الحيوية، ثم بدأ استكشاف الفضاء.

هكذا مكن العلم الإنسان من أن يكتشف كثيرا من أسرار الكون، وأن يسخرها لخدمته، وأن يستعين بها فى كسر القيود التى كانت تحيط به، ولولا العلم لظل الإنسان مقيدا بقيود الطبيعة التى قيدت حركته فى الماضى، فاستطاع بالعلم أن يتغلب على قيد الجاذبية الأرضية واستطاع بالعلم ان يتغلب على طول المسافات، وتباعد الأمكنة.

لكن هذا كله لم يخل من آثار سلبية، حيث أوجد العلم مشكلات عديدة أخطرها

التلوث البيئى، أو تدمير البيئة، وتدمير البيئة هو المقدمة لأن تكون الأرض التى ذللها الله للناس غير صالحة للحياة، وهكذا:

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الروم ٤١).

ومن هنا تحول العلم إلى أداة تدمير وإفساد، ومن هنا كان لابد من الدعوة إلى العلم بالمفهوم الإسلامى.

والعلم بالمفهوم الإسلامى هو :

أداة لفهم السنن والقوانين التى بنى عليها أمر هذا الكون، وتسخير هذه القوانين والاستفادة منها فى تعمير الأرض طبقا لمنهج الله.

فالمطلوب شرعا هو إعمار الأرض وفق أوامر المالك الحقيقى لها، والإنسان هو مجرد وكيل، وعلى الوكيل أن يلتزم بما طلب الموكل وإلا استحق أن يعزل عن الوكالة.

إن دعوة القرآن إلى العلم لا تحتاج إلى دليل، لكن حسبنا هنا أن نقف عند هذه الإشارة الواردة فى سورة النمل، والتى وردت ضمن قصة سليمان عليه السلام مع بلقيس ملكة سبأ، حيث طلب سليمان من جنوده إحضار عرش بليقس، قبل أن تأتى هى وقومها إلى سليمان لتعلن إسلامها لله رب العالمين.

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) ﴾ (سورة النمل ٣٨ . ٤٠).

هنا نلاحظ أن هناك مهمة محددة حددها سليمان لجنوده.

﴿ أيكم يأتينى بعرشها ﴾.

تصدى للمهمة أولا عفريت من الجن، وقال :

إنه يمكن أن يأتى بالعرش قبل أن يقوم سليمان من مقامه.

ولكن سليمان كان يطمح للحصول على العرش بأسرع من ذلك، فراح ينظر باحثا عمن يستطيع أن يأتى بالعرش أسرع من العرض الذى قدم له.

هنا قال شخص آخر :

﴿ أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾.

ووصف القرآن الشخص الذى قدم هذا العرض بأنه (الذى عنده علم من الكتاب).

ونلاحظ هنا أن تفاوت قدرة جنود سليمان يرجع إلى أن أحدهما عنده علم ليس عند الآخر، وهكذا يؤكد القرآن دور العلم فى هذه القضية، فالعفريت أراد إحضار العرش معتمدا على قوته الجسمية التى منحه الله إياها بدليل أنه قال (وإنى عليه لقوى أمين).

أما الآخر فقد اعتمد على العلم الذى عنده وهو ليس علما عاديا، وإنما هو علم من الكتاب، وهنا اختلف المفسرون فى حقيقة هذا الكتاب:

فقال بعضهم : إنه التوراة.

وقال البعض الآخر: إنه اللوح المحفوظ.

والأمر ليس كذلك، وإنما هناك أسرار كثيرة لا ندركها الآن، وعندما يشاء الله ستظهر على يد بعض خلقه.

إننا اليوم نستطيع بحكم الثورة العلمية أن ندرك كيف أتاح العلم تحقيق إنجازات تقترب من الواقعة التى حكاها لنا القرآن، إن كثيرا من الأمور نقر بوجودها الآن، دون أن نعرف كيف تحدث بالضبط.

ومن الملاحظات التى نستشفها عند قراءة قصة سليمان فى القرآن الكريم :

١ . أن لفظ الكتاب معرف ولكنه مبهم فى نفس الوقت، وهذا دليل قوى على وظيفة العلم فى تسخير القوانين المبثوثة فى الطبيعة من حولنا، فالعلم ما هو إلا كتاب حروفه مبثوثة فى أرجاء الكون، وما على الناس إلا أن يحسنوا القراءة والتدبر حتى يستفيدوا بما جاء فى هذا الكتاب.

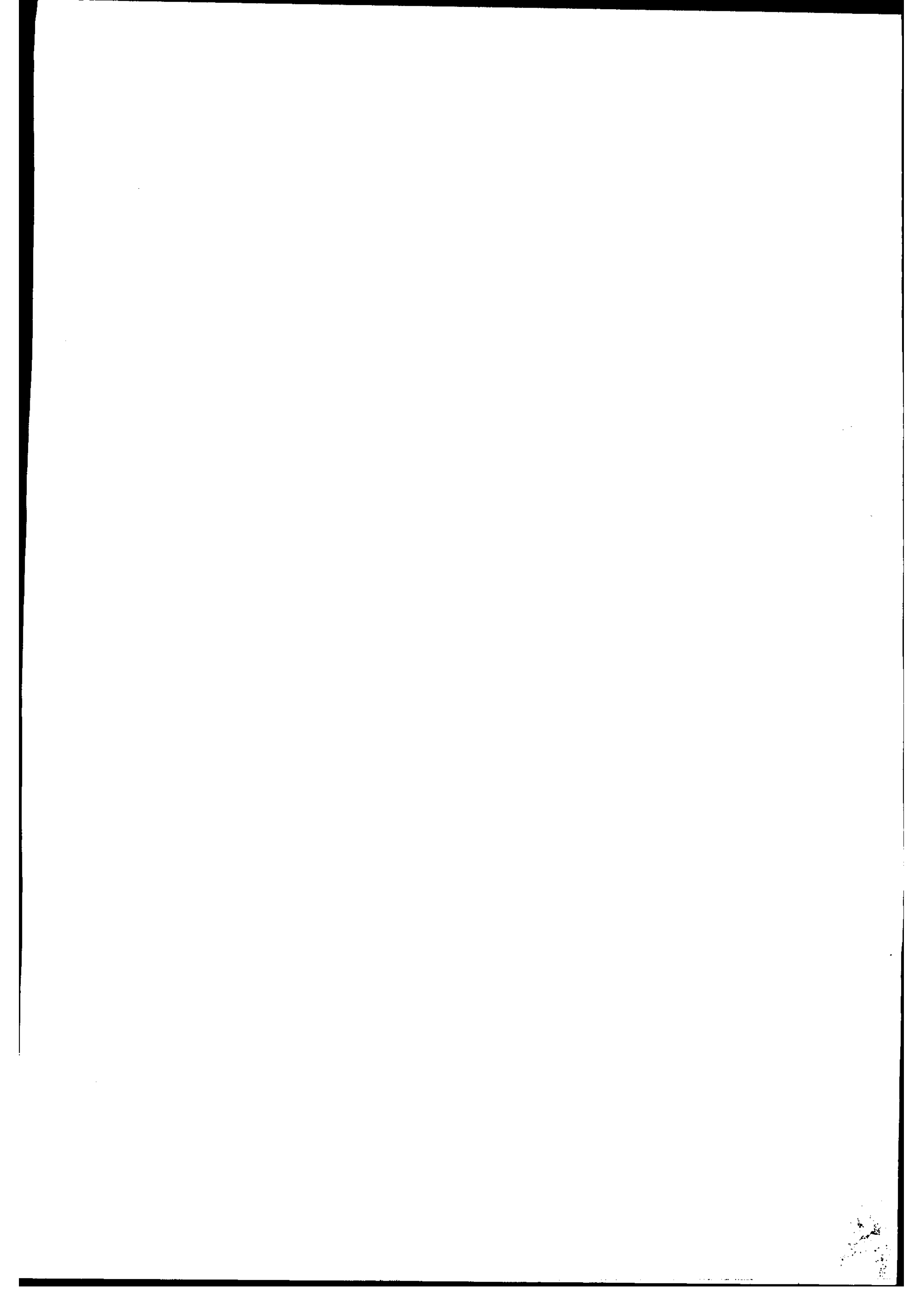
٢ . الملاحظة الأخرى التى نخرج بها من هذه الآيات أن هناك تفاوتا فى القدرة، بناء على التفاوت فى درجة العلم، فالعلم هو الذى مكن الآخر من أن يحقق ما لم يستطع أن يحققه عفريت الجن، وهذا درس مهم، فالعلم هو الذى يحقق لنا الإرادة فى تحقيق الأشياء.

ويبقى السؤال الهام وهو :

رغم وجود أكثر من مائتى جامعة على مستوى العالم العربى، وكثير من المعاهد والمراكز البحثية، فإنها لم تستطع أن تخلق بيئة علمية تحقق الغرض منها، فهل تسييس العلم هو الذي أفسد العلم أم أن العلم هو الذى أفسد السياسة؟



غياب الرؤية الشاملة



يقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ (الرعد ١١).

على مدى الأيام القليلة الماضية تابعت عددا من التحليلات والمحاورات التى تناقش الأوضاع التى تمر بها الأمة وانتهى أصحاب هذه التحليلات إلى أن السبب فيما يحدث للعرب والمسلمين من نكسات واعتداءات وانكسارات متتابعة إنما هو غياب الرؤية الشاملة.

وفسر بعضهم غياب الرؤية الشاملة: بأننا كمن يركب قطارا ولا نعرف إلى أين سيذهب بنا!!

ومن ثم لم نعد ندرى ماذا نفعل؟ ولا ماذا سيفعل بنا؟ حتى أصبحنا فى وضع المستقبل... لا المرسل، وهذا منتهى العجز الحضارى.

وهذا الكلام فى مجموعه صحيح، لكنه توقف بنا عند منتصف الطريق، وترك النصف الآخر الأهم... فلقد شخص الأزمة التى نمر بها ولم يتطرق إلى العلاج، ولا أظن أن عدم التطرق إلى العلاج بسبب الجهل به، وإنما لأن تحديد العلاج سوف تكون له تبعات لا يرغب كثير من الناس فى تحملها، ومع ذلك فإن مجرد التشخيص يستحق الإشادة والتقدير، لأننا فعلا نفتقد الرؤية الشاملة.

والسؤال هنا:

كيف نستعيد الرؤية الشاملة؟

وكيف نوظفها لخدمة قضايانا ومشكلاتنا حتى لا نفاجأ بنكسات جديدة وأصفار أخرى؟ ولا أدعى أن لدى الإجابة الشافية عن هذا السؤال، بيد أننى سأجتهد، ولكل مجتهد نصيب، ولكى نجيب عن هذا السؤال، نبدأ ببيان الفرق بين النظرة أو الرؤية الشاملة، والرؤية غير الشاملة.

فالنظرة غير الشاملة:

هى نظرة من يركب القطار دون ان يعرف إلى اين يتجه، ولا ماذا سيصنع، ولا الهدف الذى ركب القطار من أجله!!

أما النظرة الشاملة:

فهى نظرة من لا يركب القطار إلا بعد ان يعرف الجهة التى سيذهب إليها القطار، وأيضا الهدف الذى يريد أن يحققه والأدوات التى ينبغى ان يحملها معه لأداء مهمته إلى غير ذلك من الأمور التى يجب دراستها.

ولاشك ان أصحاب النظرة غير الشاملة يكونون عرضة للمفاجآت التى لم يستعدوا لها، ويصبحون فريسة سهلة فى ايدى غيرهم، عكس أصحاب النظرة الشاملة الذين يعرفون ما يريدون ويعرفون كيف يصلون إليه، ويضعون . دائما . احتمالا أو اكثر لما سوف يواجهون من اخطار.

وإذا تأملت أحوال الناس من حولك، وجدت أن كثيرا من الناس هم من اصحاب النظرة غير الشاملة، يعنى يركبون القطار دون ان يسألوا عن الجهة التى سيذهب إليها، لأنهم لم يسألوا لماذا نركب القطار أصلا ؟ ولكنهم ركبوا مع الكثرة، وليس بالضرورة ان تكون الكثرة على صواب، وقد حذر الله، تعالى . من ذلك حينما قال :

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ (الأنعام ١١٦).

أعود إلى السؤال:

كيف نستعيد الرؤية الشاملة للأمور؟

وهذا السؤال يسبقه سؤال آخر هام:

من اين نستمد رؤيتنا الشاملة؟

والجواب هو اننا نستمدها من الوحى المعصوم، فهو وحده الذى يمنحنا النظرة الشاملة للحياة فى كل جوانبها، إنه يحدد لنا الهدف الأكبر من الحياة:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات ٥٦).

والعبادة هنا ليست إقامة الشعائر وإنما هى عمل وإنتاج وإعمار وسعى وحسن

معاملة، كما أن الوحى المعصوم يحدد لنا طبيعة الحياة التى نعيش فيها حتى لا نغتر ولا ننخدع بها، فهى حياة كبد ومعاناة ومشقة، يقول الله فى كتابه الكريم:

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ (البلد٤).

كما أنها حياة ابتلاء :

﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً .. ﴾ (الملك ٢).

كما يحدد لنا الحلال والحرام :

﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ... ﴾ (الأنعام ١١٩).

﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ... ﴾ (الأعراف ١٥٧).

كما يحدد لنا العدو من الصديق، وفى هذا يقول الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ... ﴾. (الممتحنة ١).

كما يقول عز من قائل:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ... ﴾ (الممتحنة ١٣).

ويقول الله تعالى أيضا :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (المائدة ٨٢، ٨٣).

ويحدد لنا من الذى نعتصم به ونلجأ إليه عند الشدائد:

﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (آل عمران ١٠١).

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا... ﴾ (آل عمران ١٠٣).

كما حدد لنا الطريق الذى نسلكه فى هذه الحياة:

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام ١٥٣).

إن أى نظرة فى أى جانب من جوانب الحياة لا تستند إلى الوحى المعصوم، تورث أصحابها الضلال والتخبط، كما جاء فى قول الله تعالى :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف ١٧٥ . ١٧٦).

فمن ينسلخ من آيات الله يتبعه الشيطان ويستول عليه.

وقد بين لنا النبى . صلى الله عليه وسلم . العقاب الذى يصيب الأمة عندما تتخلى عن دينها حينما قال للصحابة :

(يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها.

فقالوا : أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟

قال : لا بل انتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور أعدائكم المهابة منكم، وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن.

قالوا : وما الوهن يا رسول الله؟

قال : حب الدنيا وكراهية الموت).

إن هذا الحديث يشتمل على قضايا يتصل بعضها بالمسلمين، وبعضها يتصل بغير المسلمين، وهو من علامات النبوة والتى يظهر فيها النبى كأنه يقرأ حال المسلمين اليوم، ويتضح من هذا الحديث عدة أمور:

الأمر الأول : أن الأمم الأخرى سوف تتكالب على المسلمين، وهذا التداعى يأتى فى سياق التدافع بين المسلمين وغيرهم كما قال الله تعالى :

﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ ﴾ (البقرة ٢٥١).

وهذا التداعى يشبه تداعى الأكلة على قصعة الطعام، فهذا يتكالب على أفكارها، وهذا يتكالب على ثرواتها....

الأمر الثانى : أن هناك تحولات ستقع لغير المسلمين، وهذه التحولات هى نفسية فى المقام الأول، فالله سينزع من صدور أعدائنا المهابة منا.

الأمر الثالث : أن التحول الذى سيحدث للمسلمين هو الوهن، الذى أصابهم فى نفوسهم وعقولهم وضمائرهم، إنه الوهن الثقافى والوهن الحضارى.. فحدوث الوهن

إنما كان بسبب غياب الرؤية الشاملة، ولن يزول هذا الوهن إلا باستعادة الرؤية الشاملة.

وإذا كان اليهود ينطلقون فى نظرتهم إلى الآخرين . ونحن من هؤلاء الآخرين . من خلال رؤية توراتية مزعومة ومن عقيدة أنهم شعب الله المختار، وإذا كان غير اليهود ينطلقون كذلك من رؤى دينية خاصة بهم... أليس من حقنا أن نفعل الشيء نفسه؟ فننطلق فى نظرتنا إلى أنفسنا وإلى غيرنا، من خلال نظرة إسلامية نواجه بها الأخطار التى تتربص بنا، إن من حقنا، بل من واجبنا أن نفعل ذلك.

إننا فى مرحلة نواجه فيها أخطارا محدقة، وواجبنا ألا نترك أسلحتنا، والدفاع عن النفس حق مشروع لكل البشر:

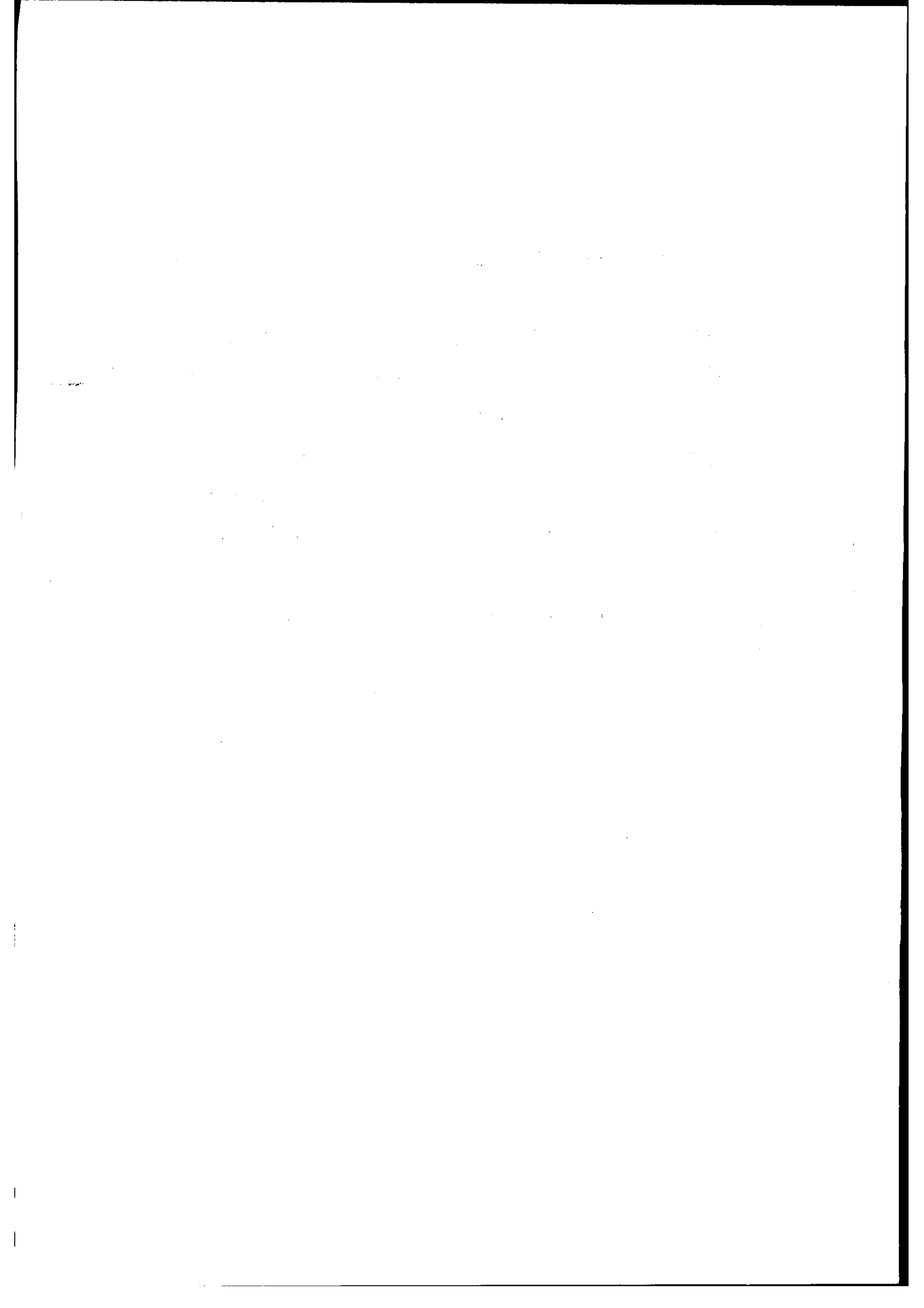
﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ﴾ (النساء ١٠٢).

ومن أهم أسلحتنا اليوم أن نستمسك بالذى أوحى إلينا، وأن نصدر عنه فى كل أقوالنا وأفعالنا فهذا هو السلاح الأقوى:

﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الزخرف ٤٣).

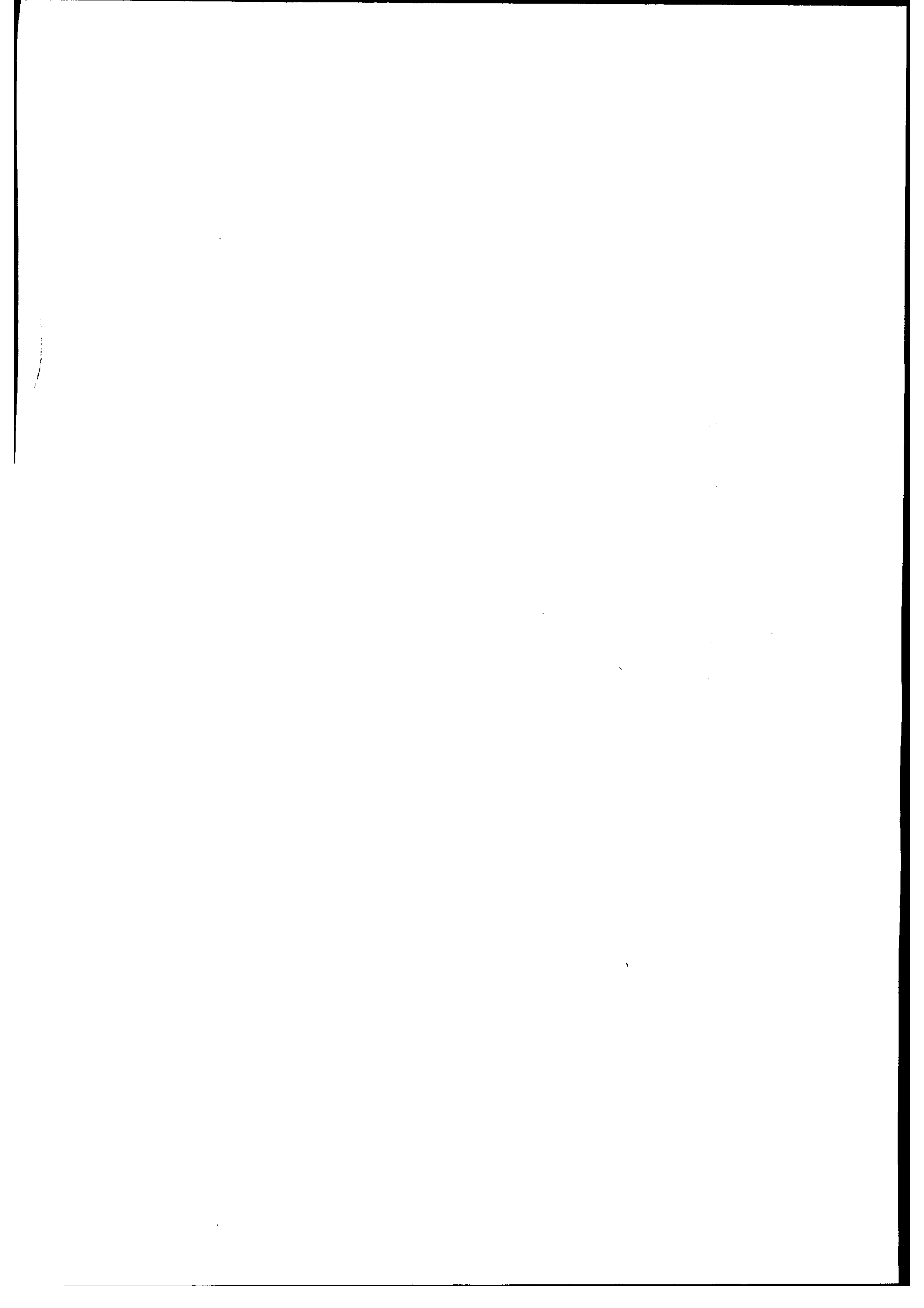
ولن يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.







خيار المقاومة



يقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (الأنفال١٥ . ١٦).

هل صحيح أن مصيرنا سيتقرر عبر القمم العالمية الثلاث التي ستعقد هذا الشهر والتى ستعيد ترتيب أوضاع العالم ونحن فى المقدمة منه؟

وهل صحيح أن التاريخ يعود إلى الوراء وأننا سنشهد عهود استعمار جديدة تذكرنا بالاستعمار القديم، الذى تصورنا . خطأ . أنه ذهب إلى غير رجعة؟

وهل ما يدبر لنا في الخفاء هو نوع من الإصلاح الحقيقي؟

أم أنه مسعي لفرض الهيمنة علينا وإعادة تأهيلنا للدخول إلى العصر الجديد، وركوب سفينة نوح قبل أن يغرقنا الطوفان القادم؟

وللرد على هذه التساؤلات أمامى إجابتان أو اجتهادان بلغة الفقهاء:

الاجتهاد الأول : يري أصحابه أنه لم يعد أمامنا إلا اختيار واحد هو :

الاستسلام والرضا بالمقسوم حتى ولو كان الفتات فذلك افضل من لا شيء، لأننا فى النهاية أشبه بالأيتام على مأدبة اللئام.

الاجتهاد الثانى : يرى أصحابه :

أن الأمر ليس بهذه البساطة، فلسنا قطعة من الخبز أو طبقا من الحلوى، وأننا لن نكون لقمة سائغة فى أفواه الآخرين، وسنقاوم كل محاولات التذويب والتمزيق حتى آخر قطرة من دمنا مهما طال الزمن، وكثرت التضحيات.

والسؤال الآن :

إلى أى الاجتهادين ننحاز؟

هل ننحاز إلى الاجتهاد الأول الذى يعتمد الواقعية منهجا وأسلوبا فى التفكير؛ مع ما يستتبع ذلك من تنازلات لا حدود لها.

(لأنك عندما تستسلم فإن سقف التنازلات يرتفع حتى لا يكاد يرى أصلا).

أم ننحاز إلى الاجتهاد الثانى الذى يعتمد المقاومة منهجا وأسلوبا، مع ما يستتبع ذلك من تقليل حجم الخسائر والتنازلات؟

(لأنك عندما تقاوم فأنت تجبر خصمك على التراجع أمامك، وتقليل المطالب التى يطلبها منك).

والجواب عندى :

اننا سننحاز إلى الاجتهاد الثانى وهو خيار المقاومة، ليس فقط لتقليل حجم الخسائر والتنازلات، ولكن لأن المقاومة هى الطريق الوحيد الذى سيحقق لنا ولأبنائنا فى المستقبل الحياة الحرة الكريمة، أضف إلى ذلك أن هذا الخيار يستمد قوته من عدة أمور.

الأمر الأول:

ان أسباب القوة ما تزال كامنة بين أيدينا، وهنا لابد أن نفرق بين أسباب القوة، ومظاهر القوة، فمن يملك مظاهر القوة لا يكون بالضرورة قويا.

وقد نبهنا القرآن إلى ذلك:

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة ٢٤٩).

وفى موضع آخر:

﴿ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ (الأنفال ٦٥).

فالكثرة مظهر من مظاهر القوة، ولكنها لا تملك أسباب القوة، ومن ثم تغلب وتنهزم، وقد رأينا مصداقا لذلك مدنا معاصرة استعصت على الأعداء، لنتذكر مثلا:

مدينة بورسعيد فى عام ٥٦.

والسويس فى معركة العبور ١٣٩٣هـ.

ولنتذكر أيضا جنين وغزة فى فلسطين.

والفلوجة فى العراق.

فهذه المدن لم تكن تملك مظاهر القوة، لكنها كانت أقوى من خصومها، والسبب أنها

تملك أسباب القوة، ومن أهم أسباب القوة أنها كانت على الحق فى حين كان أعداؤها على الباطل.

وأمتنا ما تزال تملك أسباب القوة، وإن كانت معطلة, إلا انه سيأتى الوقت الذى تعمل فيه، وأسباب القوة عندنا عديدة:

الإسلام كدين ونظام.

والعروبة كلغة وثقافة...

لو أحسنا الاستفادة منها فلن نكون لقمة سائغة فى أفواه الآخرين.

إذن الأمر الأول أننا نملك أسباب القوة.

الأمر الثانى :

علينا أن ندرك أن ما يجرى الإعداد له الآن لا يخرج عن كونه جزءا من طبيعة الصراع فى الحياة، والصراع فى الحياة سنة إلهية لا يملك أحد أن يغيرها:

﴿ولَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ (البقرة ٢٥١).

وهذا التدافع بين الناس يقتضي المنافسة والتسابق، والتحكم فى الآخرين، فى أسواقهم، وثرواتهم، وعوامل القوة عندهم.

وفي هذا الصدد لابد أن نذكر أن مفهوم الصراع عندنا يختلف عن المفهوم الغربى له :

فالمفهوم الغربي للصراع:

يقوم على إلغاء الآخر، والاستعلاء عليه، وباختصار هو مفهوم عدوانى، وتجليات ذلك ما حدث فى سجن أبو غريب بالعراق وغيره.

أما المفهوم الإسلامى للصراع:

فهوم مفهوم يقوم على احترام الآخر، والإقرار بحقه فى الاختلاف والتحاور معه.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ...﴾ (آل عمران ٦٤).

وفى موضع آخر :

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾ (الكافرون ١-٦).

أرأيت كيف يخاطب القرآن أهل الكتاب والكفار؟

هل تستشعر منطق التعالى والعدوانية؟

أم منطق المساواة والندية والإقرار بحق الآخر (أهل الكتاب والكفار) فى الاختلاف؟

إذن الأمر الثانى هو ما يجرى الآن هو من طبيعة الصراع.

الأمر الثالث:

ماذا يكون شأن المؤمنين عندما يرون العدو زاحفا عليهم، هل يفرون من المواجهة أم يثبتون؟

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (الأنفال ١٥ . ١٦).

وفى موضع آخر:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الأنفال ٤٥).

فشأن المؤمنين عند ملاقاة الأعداء هو الثبات والصمود، وعدم الفرار من الميدان، وفى صحيح مسلم عن ابى هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلي الله عليه وسلم قال :

(اجتنبوا السبع الموبقات.....)

ومنها التولى يوم الزحف.

فالفرار أمام العدو كبيرة من الكبائر يصاب صاحبها بغضب من الله ومأواه جنهم وبئس المصير.

لكن يجوز الفرار فى حالتين فقط:

١ . ان يذهب المقاتل إلى جهة افضل لقتال العدو.

٢ . أو ان ينحاز إلى فئة من المؤمنين ينصرونه ويستعين بهم فى القتال.

فى هاتين الحالتين فقط يجوز الفرار، ولا يستحق الفار غضب الله.

لكن انظر إلى الصورة التى يقدمها القرآن لمن يفر أمام العدو:

﴿ .... فلا تولوهم الأدبار ﴾.

يقول القرطبى:

لا تعطوهم أدباركم، والأدبار جمع دبر، والدبر هو مؤخرة الإنسان، فالمسألة هنا ليست

مجرد النهى عن الفرار، ولكن تبشيع صورة من يفر، فالذى يفر كأنما يعطى دبره لخصمه؛ وهذا من التعريض كما يسميه أهل البلاغة، فالقرآن لا يصرح بذلك، وإنما يعرض به تقبيحا وتنفيرا.

إذن الأمر الثالث أن القرآن نهى عن الفرار أمام العدو فى ميدان القتال.

لكن هذا لا يقتصر على ميدان القتال فقط وإنما فى كل الميادين التى نلاقى فيها الخصم، ومن هنا فإن المقاومة المطلوبة اليوم أكبر من المقاومة بالسلاح، إن ساحة المقاومة قد اتسعت جدا، إنها تشمل اليوم كافة ميادين الحياة.

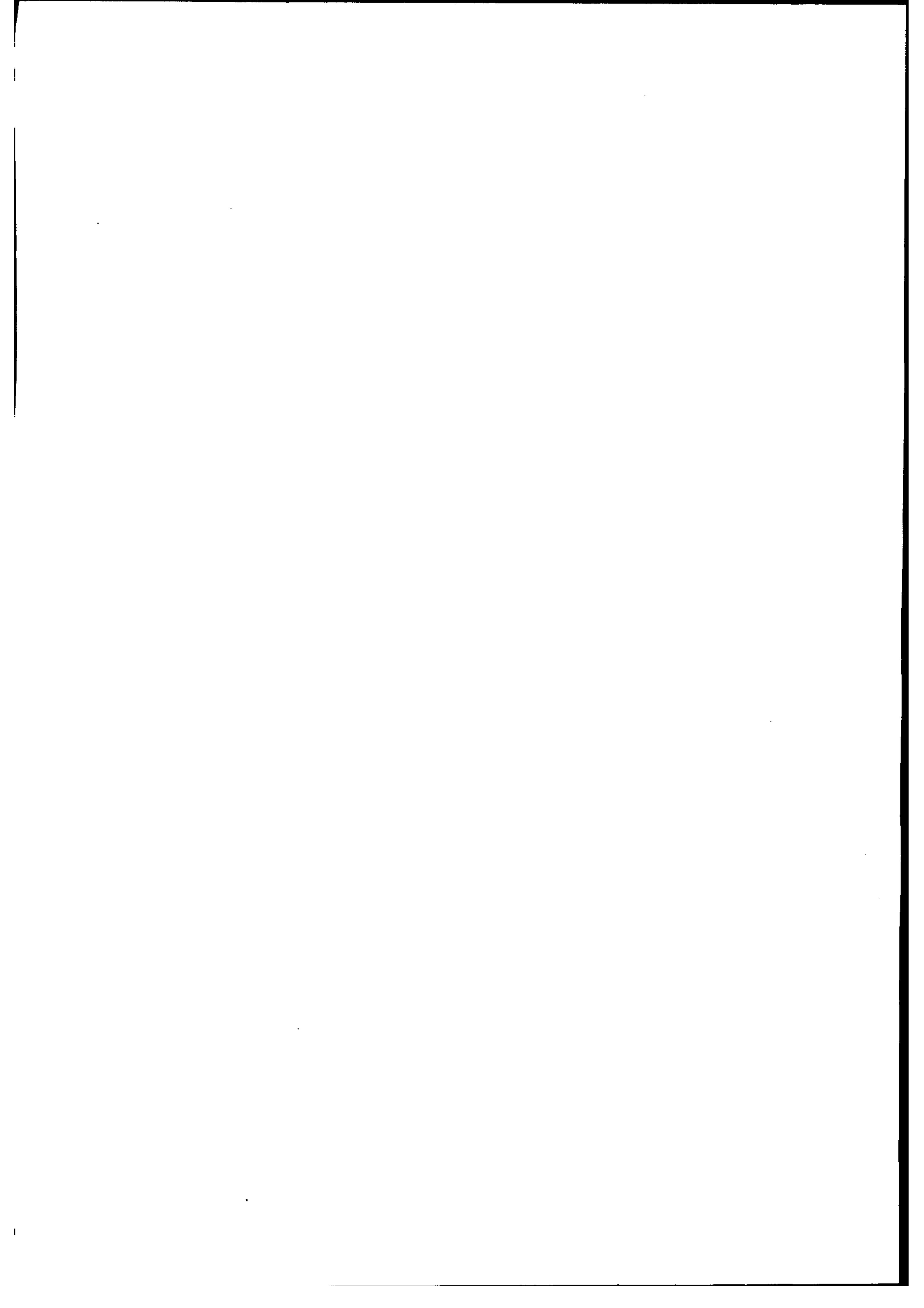
إنها تشمل اليوم الثقافة والاقتصاد، والتكنولوجيا، والعلم والعمل بكافة صورهما.

والفرار من هذه الميادين لا يقل عن الفرار فى ميدان القتال، لأنه يؤدى فى النهاية إلى الهزيمة أمام الأعداء.

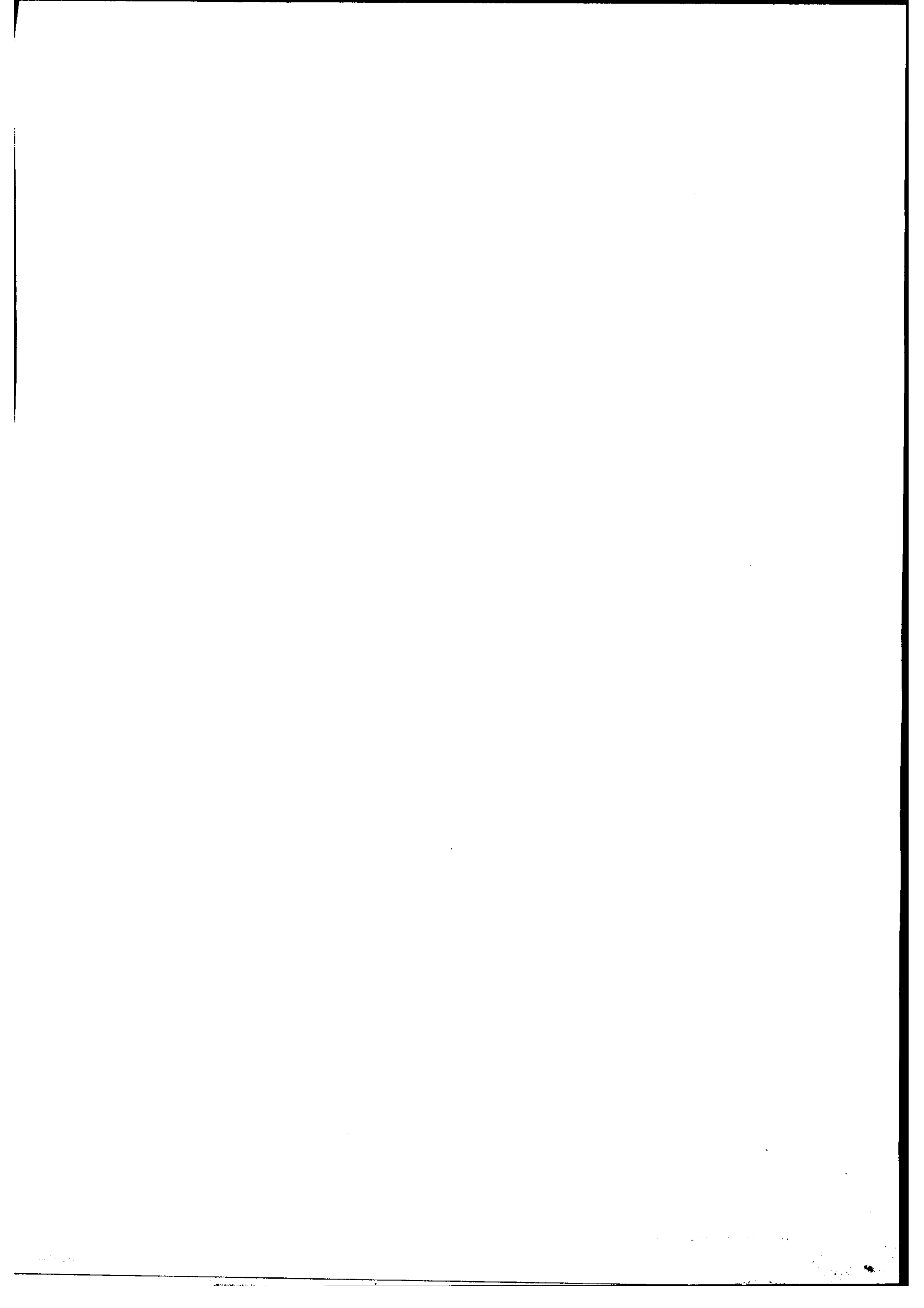
إن الخطر قادم لاشك، والمواجهة قادمة لا محالة، وعلينا أن نستعد لها بالثبات والصمود وعدم ترك المواقع، إن الكائن الحى يبدو فى وضع الاستعداد إذا استشعر الخطر، علينا أن نكون فى وضع استعداد مثلما يفعل المتسابقون، الكل مستعد للمواجهة:

في البيت، فى المدرسة، فى الجامعة، فى المصنع، فى الحقل، فى المزرعة، الكل يقاوم فى الميدان الذى اختاره له القدر، فلا نفر ولا نجزع.





الاستعداد لأعداء الأمة (١)



يقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾(الأنفال ٦٠).

هذه آية من كتاب الله هى الآية الستون من سورة الأنفال، وسورة الأنفال هى السورة الثامنة فى ترتيب المصحف، وقد نزلت بالمدينة على ساكنها افضل الصلاة واتم التسليم، وقد جاءت هذه الآية الكريمة عقب الحديث عن غزوة بدر الكبرى التى جعلها الله فرقانا بين الحق والباطل.

وورود الآية فى هذا الموضع لا يخلو من إشارة لها مغزاها ومعناها، سوف نتعرف عليها فى حينه، ولكن السؤال الأهم هو :

إلى أى حد التزم المسلمون بهذا الأمر الإلهى ؟

وكيف يمكن تفعيل هذا الأمر فى ظل الظروف التى تمر بها الأمة الإسلامية اليوم ؟ قبل الإجابة أحب أن أقرر ثلاثة أمور :

الأمر الأول : أن موضوع هذه الآية من الأمور الأساسية التى خالف فيها المسلمون أمر ربهم، فقد أمرهم ربهم بالإعداد والاستعداد، فلم يفعلوا! فى حين أحسن غيرهم الإعداد والاستعداد، ومن ثم تداعت عليهم الأمم والجماعات كما تتادعى الأكلة إلى قصعتها، كما أخبرنا بذلك الصادق المعصوم.

الأمر الثانى : أننا نعيش اليوم فى عصر منطق القوة، لا قوة المنطق، ومعنى هذا انه لا مكان للضعيف على الأرض، أو قل إن شئت إن مكانه لا يختلف كثيراً عن مكان الأمتعة التى تنقل من مكان إلى آخر.

فالضعف فى حد ذاته يغرى القوى بالاعتداء على الضعيف، فالقوة ليست وحدها السبب فى حدوث الاعتداء، وإنما ضعف الخصم ايضا، ولذلك قبل ان نلوم القوى على

... لابد ان نلوم الضعيف على ضعفه واستضعافه، أضف إلى ذلك أن عصرنا ... قوة فقط، وإنما هو عصر القوة المفرطة، وهذا لأن هناك ضعفا مفرطا، ... يد هو الذى أنتج القوة المفرطة أو الشديدة.

... ث: إن قصة الحياة على الأرض هى قصة صراع بين الخير والشر، بين ... من أول خلق آدم:

﴿ ... مُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ... ينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ ... رْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (البقرة ٣٥، ٣٦).

... البشر قائمة منذ الأزل (بضعكم لبعض عدو)، هكذا حكم الله ازلا بأن ... يكونون أعداء لبعض أو ان هذه العداوة ستكون بين آدم وذريته من ناحية، ... وذريته من ناحية أخرى، وهذه العداوة مصدرها اختلاف الناس بين ...

﴿ ... خلقكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (التغابن ٢).

﴿ ... مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (الكهف ٢٩).

﴿ ... لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ (هود ١١٨).

... آخر فى المسألة :

... ان الصراع على الأرض هو سنة من سنن الله، له وظيفة فردية وإجتماعية، ... فى صراع بين الخير والشر، وكذلك الأمم والجماعات، والصراع هو الذى يجدد الحياة ويحرك التاريخ، ولن يتوقف الصراع إلا بتوقف الحياة:

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ (الأنعام ١١٢).

والصراع هنا ليس صراع القوة والعضلات فقط، إنما هو صراع الفكر والإرادة والعمل والمنافسة ... المصنع والمتجر والملعب والمزرعة، الحياة كلها صراع.. ولكل صراع قوانينه وأدواته ... الصراع على استضافة المونديال، ولكى ننجح فى أى صراع لابد ان نتقن أدواته.

هذه هى الأمـور الثلاثة التى أردت أن أوضحـهـا وأضـعـهـا بين يدى الحـديث عن هذا التوجيه القرآنى العظيم، وأعود بعد ذلك إلى الآية الكريمة :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ .... ﴾.

فما معنى الإعداد؟ وكيف طبقه النبى صلى الله عليه وسلم فى مجتمع القدوة؟

يشير المعنى اللغوى للكلمة إلى التهيئة والإحضار: فنقول أعددنا الطعام أى هيأناه وأحضرناه، أو أعـددنا الموضوع أى هيأناه، وأعددنا الغرفة أى هيأناها ونظمناها، وأعددنا الأرض للزراعة أى هيأناها وجهزناها للزراعة.

ومسألة الإعداد والاستعداد تعد الخطوة الأولى فى أى عمل ناجح، ولذلك فإن أى عمل يتم بلا إعداد، أو بإعداد ناقص فإن المحصلة النهائية له تكون صفرا، والسبب أنه تم بدون إعداد أو بدون إعداد جيد، والإعداد غير الجيد مثله مثل عدم الإعداد، والإعداد للاشياء ليس شأنا بشريا فقط، ولكنه شأن إلهى أيضا، فالله تعالى القادر على كل شىء، والذى يقول للشىء كن فيكون يقول عن نفسه إنه أعد الجنة وأعد النار، وأعد للمؤمنين المغفرة وأعد للكافرين عذابا أليما، مهينا، وأعد لهم سعيرا، وإذا كان الله تعالى يعد للأشياء على هذا النحو، وهو القادر على أن يجعلها بلا إعداد، ولكنه أراد أن يعلم الناس ضرورة الإعداد والاستعداد للأشياء، والفرق بين العمل الجيد وغير الجيد إنما يرجع إلى عملية الإعداد والاستعداد، ومن ثم تهتم الدول والشعوب المتحضرة بعملية الإعداد، فى حين تترك الشعوب المتخلفة نفسها للصدفة أو للحظ أو للوهم.

وإذا تساءلنا :

كيف طبق النبى (صلى الله عليه وسلم) منهج الإعداد فى حياته؟

فسوف نشير إلى مثلين :

الأول لما أراد النبى أن يهاجر من مكة إلى المدينة.

والثانى لما استقر فى المدينة.

ماذا فعل (صلى الله عليه وسلم) ؟

أولاً فى موضوع الهجرة : نجد أن هناك إعدادا مسبقا للأشياء :

١ . إعداد الرفيق المصاحب له (اختياره أبو بكر).

٢ . إعداد أداة السفر (الراحلتان اللتان أعدهما أبو بكر).

٣ . إعداد الدليل المرشد من اهل الكفاءة (عبد الله بن اريقط).

٤ . إعداد الخطة التى ستتم بها الهجرة :

. اختيار التوقيت المناسب.

. اختيار الطريق غير المألوف.

٥ . التمويه على الأعداء :

. مبيت على بن أبى طالب فى فراش النبى صلى الله عليه وسلم.

. مكثه فى غار ثور ثلاثة أيام حتى ييأس الأعداء من اللحاق به.

ثانيا : فى موضوع الاستقرار فى المدينة :

لما استقر النبى (صلى الله عليه وسلم) فى المدينة كان اهم ما قام به هو وضع الأسس الهامة للدولة الإسلامية الناشئة، وهذه الأسس ثلاثة :

١ . بناء المسجد.

٢ . المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

٣ . كتابة وثيقة تحدد نظام الحياة فى المدينة بين المسلمين بعضهم مع بعض، وبينهم وبين غيرهم، خصوصا اليهود.

هذه الأسس تشكل مرحلة الإعداد للمراحل التالية للهجرة والانتقال من مكة إلى المدينة، فنجاح الرسول فى الخروج من مكة مهاجرا إلى المدينة شكل ضربة لجهود قريش فى القضاء عليه، هذا بالإضافة إلى أن وجود الرسول فى المدينة سوف يقوى شوكته، فأتباعه يزيدون باستمرار، ودعوة الرسول تكسب كل يوم أرضا جديدة، وكان من الطبيعى أن هذا الوضع سيثير غضب قريش، وستسعى إلى تجميع قوتها للقضاء على هذه الدعوة الجديدة.

وبناء على ذلك كان لابد أن يعد الرسول نفسه وأتباعه للمواجهة مع كفار قريش، فوضع الأسس التى تهيىء المسلمين للتعامل مع الواقع الجديد، تمثل ذلك فى ثلاث خطوات:

١ . فكان المسجد هو الخطوة الأولى فى بناء المجتمع الإسلامى :

المسجد لا يقتصر دوره على ترسيخ العقيدة، وإنما ايضا فى بناء القوة الإسلامية، فالمسجد يشيع روح العدل والمساواة بين المسلمين، ويشيع روح الانضباط والنظام.

٢. أما الخطوة الثانية فكانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار :

فأي مجتمع لا يستطيع أن يواجه الظروف الصعبة وهو مفكك الأوصال، ممزق العلاقات، ومن ثم يكون من الضروري تقوية أواصر العلاقات بين أفراد المجتمع، حتى تتوحد الجهود والطاقات، ولم تكن المؤاخاة شعارا نظريا، وإنما كانت ممارسة عملية، فلم يقل لهم النبي مثلا : تآخوا، ولكنه آخى بين عدد من المهاجرين وعدد من الأنصار بالاسم، مثلما آخى بين سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف.

٣. أما الخطوة الثالثة فكانت الدستور الذي سينظم الحياة داخل المدينة :

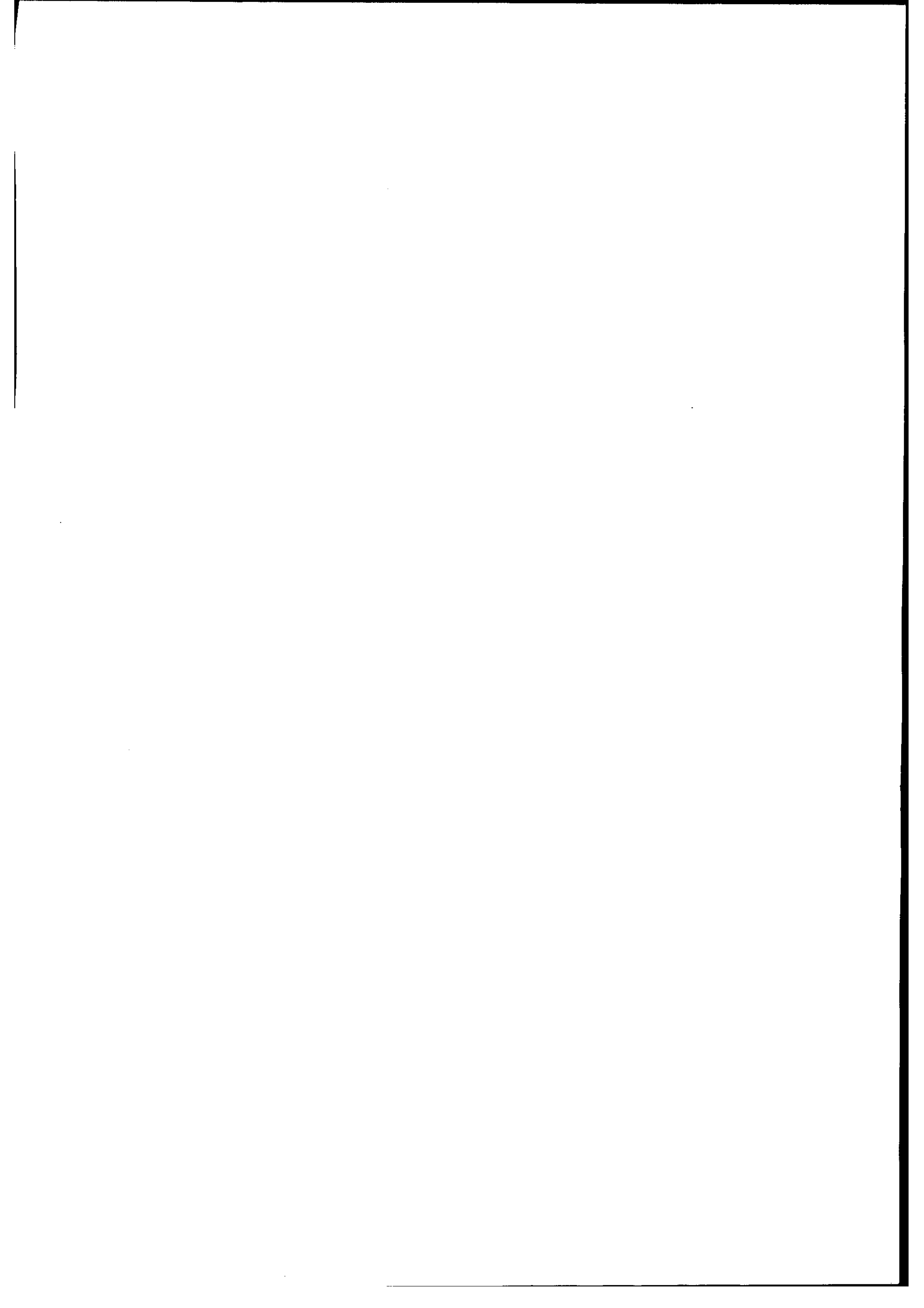
حتى لا يبقى شيء للأهواء أو للرغبات، وحتى يعرف المسلمين ما لهم وما عليهم، ومن هنا فقد انصهر المسلمون وشكلوا المجتمع الجديد بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم .

هذه هي الخطوات الثلاث التي تشكل مرحلة الإعداد الجيد لما سوف يواجهه المسلمون بقيادة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وهكذا طبق النبي التوجيه الإلهي أحسن تطبيق، بل إن تطبيقه يظل دائما هو القدوة والأسوة الحسنة لكل المسلمين.

ويوم أن أخذ العرب والمسلمون في العصر الحديث بهذا المنهج تحقق لهم النصر، وغير بعيد عنا أن معركة العبور في رمضان استغرق الإعداد لها أكثر من خمس سنوات ما بين إعداد سياسي وعسكري ومعنوي داخليا وخارجيا، ومن أهم صور الإعداد الجيد لهذه الحرب أن الجيش المصري أجرى ثلاثمائة (٣٠٠) تجربة لعبور قناة السويس واقتحام خط بارليف، ومن ثم تحقق النصر بفضل الله تعالى وبفضل الامتثال للأمر الإلهي والالتزام بالإعداد الجيد.



الاستعداد لأعداء الأمة (٢)



يقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾(الأنفال ٦٠).

هذه هى الآية الستون من سورة الأنفال، جاءت عقب الحديث عن موقعة بدر التى جعلها الله فرقانا بين الحق والباطل، وقد بدأت الحديث عن هذه الآية من قبل، وأشرت إلى ان مسألة الإعداد تعد الخطوة الأولى لأى عمل ناجح، ومن ثم فالذى يغفل مسألة الإعداد لا ينبغى له ان ينتظر النجاح، كما ان الإعداد للأشياء ليس شأنا بشريا فحسب بل هو ايضا شأن إلهى كذلك، فمع أن الله تعالى قادر على أن يخلق اى شىء بلا إعداد، وهو إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون، ولكنه أراد أن يعلم الناس، أن القدرة على الشىء لا تعنى عدم الاستعداد له.

وأعود إلى مسألة الإعداد ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم ﴾ . مرة اخرى.

كيف نحقق اليوم هذا الأمر الإلهى ؟

وأعنى أن القرآن عندما قال ﴿ وَأَعِدُّوا ﴾، فإن مفهوم الإعداد سيختلف قطعاً من زمن إلى آخر، فالإعداد فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم يختلف عن الإعداد فى زمن الصحابة والخلفاء الراشدين، إلى غير ذلك حتى عصرنا الحاضر، فمدلول الإعداد إذن سيتغير بحسب تغير الزمان والظروف.

ومن ثم لكى نحقق اليوم الاستجابة الصحيحة للأمر الإلهى بالإعداد، علينا إذن ان نأخذ فكرة مختصرة عن الحروب الحديثة، فالحروب الحديثة لن تقع بين جيشين كل منهما فى مواجهة الآخر، وإنما هناك إمكانات علمية وتكنولوجية غير عادية تحقق أهداف الحرب دون أن ينشأ تلاحم بين الصفوف، فالمهارات القتالية ستعتمد على الإمكانات التكنولوجية قبل اى مهارة اخرى والقتال الآن صار فناً وعلما وتكنولوجيا،

ومن ثم فإن الاستعداد للحروب الحديثة لم يعد مقتصرا على ميدان القتال فحسب، وإنما يشمل الإعداد كافة ميادين الحياة ومن ثم فإننا نحتاج إلى البدء فى الإعداد فى الميادين الآتية:

١ . الإعداد العلمى والتكنولوجى والمراد به بناء قاعدة علمية صلبة من مدارس وجامعات ومراكز بحوث لتحقيق النهضة العلمية.

٢ . الإعداد الاقتصادى الذى يقوم على نهضة اقتصادية شاملة من تجارة وصناعة وزراعة لتحقيق الاكتفاء الذاتى.

٣ . الإعداد الاجتماعى الذى يقوم على العدل بين أفراد المجتمع بحيث يجد كل فرد حقه الطبيعى فى حياة كريمة تجعله مواطنا صالحا.

٤ . الإعداد السياسى الذى يعنى إقامة نظام حكم ديمقراطى حقيقى بآليات تسمح بتداول السلطة وعدم احتكارها من قبل فئة معينة.

٥ . الإعداد العسكرى الذى يعنى الحصول على أحدث الأسلحة والسعى إلى إقامة صناعات عسكرية مستقلة توفر السلاح المطلوب وتعفينا من تحكم الآخرين.

٦ . الإعداد المعنوى الذى يقوم على تأهيل أفراد الأمة نفسيا لاستشعار أجواء المواجهة والخطر الذى يتربص بهم، وفى هذا الصدد أشير إلى مثلث :

الإعلام ، التعليم ، المسجد

فهذا المثلث هو المنوط به تحقيق ما يسمى بالإعداد المعنوى أو النفسى.

٧ . الإعداد المعلوماتى حيث تشكل المعلومات الآن ثروة لمن يحصل عليها، فنحن نعيش بحق فى عصر المعلومات، وأصبحت المعرفة قوة، والقوة أيضا معرفة، وصارت المعرفة مالا بعد أن أصبح موردا تنمويا يفوق فى أهميته الموارد المالية، وحتى المعاملات المالية صارت بدورها مجرد معلومات عبارة عن شفرات إلكترونية تتبادلها البنوك فى التعامل فيما بينها.

والسؤال الآن هو :

هل الإعداد بهذا الشكل مسئولية الفرد أو مسئولية الدولة؟

وهل هو مسئولية دينية أو مسئولية دنيوية؟

إذا عدنا للآية نجد أن الخطاب القرآنى موجه للمجموع وليس للفرد ويظهر ذلك

فى كلمة ﴿ وأعِدُّوا ﴾، ومن ثم فالإعداد يجب أن يقوم به المجتمع أو الدولة، والدولة هى نظام استحدثه الإنسان، بموجبه يقوم بعض الأفراد . بالنيابة عن المجتمع . بما يحقق مصلحتهم جميعاً.

والإعداد على هذا النحو هو جزء من وظيفة الدولة ومسئوليتها، بحكم سعة إمكاناتها وقدراتها وغير ذلك، ولكن هذا لا يسقط دور الفرد فى عملية الإعداد، وربما أخصص حديثا مستقلا عن دور الفرد فى عملية الإعداد مستقبلا، لكنى الآن معنى بأن أؤكد أن الإعداد الشامل لا يقوم به إلا الدولة.

أما أن الإعداد مسئولية دينية أم دنيوية فلا يجادل أحد فى أنه مسئولية دينية فى المقام الأول، وقد فصل العلماء بين نوعين من الخطاب الإلهى:

خطاب يتوجه إلى الفرد نفسه.

والنوع الآخر خطاب يتوجه إلى المجموع.

١ . أما الخطاب الأول فإن المسؤولية فيه تقع على عاتق الفرد نفسه، فلا يسأل عنه غيره.

٢ . وأما الخطاب الثانى، فالمسئولية فيه تقع على الجميع.

الخطاب الأول : الموجه للفرد فرض عين، وهذا يتناول شعائر العبادة من صلاة وصيام وزكاة أو صدقة، وقد يتناول كذلك ترك الكبائر كالزنا والربا وكل ما يتعلق بالسلوك الخاص.

الخطاب الثانى : الموجه إلى المجموع يتصل بكل الفنون والصناعات التى تنهض بها الأمة، فهو يتصل بالقضاء بين الناس، وتعليمهم، وأيضا رصف الطرق لهم، وكافة المرافق العامة التى تخدم مجموع الناس.

والمجتمع الإنسانى فى حاجة إلى النوعين معا، إلى الخطاب الفردى، وإلى الخطاب الجماعى.

ولنزد الأمر وضوحا :

فالصلاة فرض عين، لأن كل إنسان يستطيع الصلاة.

أما القضاء والتدريس والهندسة والطب فهى فروض كفاية (خطاب للمجتمع) لأنه ليس كل إنسان بقادر على أن يكون قاضيا أو مدرسا أو مهندسا، ومن ثم فإن تم ترشيح إنسان لهذه الوظيفة أو تلك من الوظائف العامة، فإن قيامه بأعباء منصبه هذا أصبح

فرض عين، كالصلاة والصيام، لا يجوز له أن يتراخى فيه، وإلا اعتبر عاصيا لله ومعتديا على الدين، ومن هنا فإن عليه أن يوزع وقته وجهده بين الصلاة المفروضة عليه، والعمل المطلوب منه اجتماعيا، والأمران معا سيسأل عنهما مسئولية دينية، وتقصيره فى أحدهما يستوجب العقاب من الله تعالى، ولعل تقصيره فيما يسأل عنه بمفرده يكون أهون من تقصيره فيما يسأل فيه عن غيره.

ولهذا يجب على الناس أن يدركوا أن ما يقومون به من عمل يتعلق بمجموع الناس كالطب والهندسة والقضاء وإصلاح الطرق وغيرها هو مسئولية دينية فى المقام الأول، فإذا قصروا فى أدائها كانوا عصاة لله، واستحلوا ما حرم الله، فالزارع فى مزرعته، والعامل فى مصنعه، والحارس فى حراسته، والقاضى فى المحكمة، والمعلم فى مدرسته، والطبيب فى مستشفاه، والشرطى فى عمله، كل هؤلاء وغيرهم ممن يقومون بأعمال عامة يستحقون من الله الثواب إذا أحسنوا، والعقاب إن قصروا وأهملوا.

فالإعداد إذن مسئولية دينية قبل أن تكون دنيوية، وكل جهد يبذل فى أى مجال من مجالات الإعداد يكون محلا للثواب من الله تعالى، يقول النبى صلى الله عليه وسلم:

(إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه . والرامى به . ومنبله) (الذى يعطى الرامى السهام ليرمى بها).

إذن فى العمل الواحد يشترك ثلاثة أشخاص فى الثواب :

. من صنع أداة القتال.

. من رمى بها.

. من يناول السهم أو يضعه.

وفى حديث آخر :

(من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا)

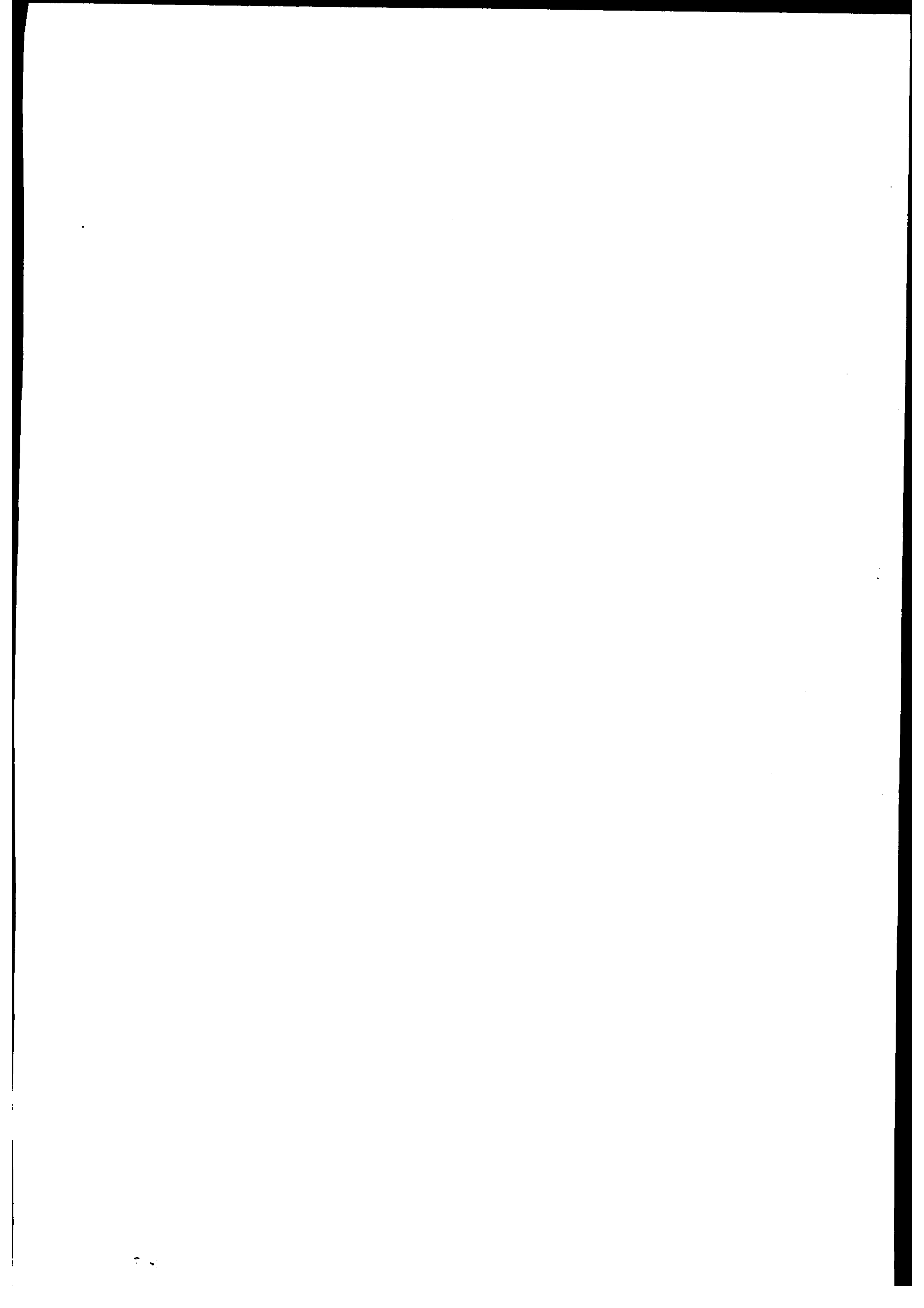
هذان الحديثان يثبتان أمرا على درجة كبيرة من الأهمية وهو أن الله يكافىء من قام بالإعداد كما يكافىء من قام بالتنفيذ، فصانع السلاح يتساوى فى الأجر والثواب مع من استخدمه ومن جهز الغازى فإنه يكون قد استحق أجر من غزا، لأن الإعداد لا يقل . فى الأهمية عند الله . عن التنفيذ ولذلك قال الله تعالى فى كتابه الكريم :



﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم ﴾.

❖ ❖ ❖

الاستعداد لأعداء الأمة (٣)



يقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾(الأنفال ٦٠).

فالواجبات الشرعية أنواع :

منها ما يتعلق بالفرد كالصلاة. ومنها ما يتعلق بالجماعة كالطب والهندسة والفقه، فالفقهاء يقولون : إنه إذا اعتدى على أرض المسلمين أحد، وجب على باقى المسلمين مجاهدته ودفعه وإخراجه، ويجب عليهم فعل ذلك بالمال أو بالنفس أو بهما معا. والجهاد فى هذه الحالة هو واجب الوقت الذى يتقدم على أى واجب آخر، وهذا من فقه الأولويات فإذا وجب الجهاد فإن له آدابا وشروطا وقواعد، حتى لا يتحول إلى أداة فساد وإفساد فى الأرض، وهذه القواعد والآداب مكانها كتب الفقه.

وعلى درب علمائنا القدامى أقول :

إن واجب الوقت على المسلمين جميعا . كل على قدر استطاعته . هو الإعداد والاستعداد، لتحقيق المقصد الشرعى من الإعداد، وهو إرهاب العدو وهذا المقصد مذكور بنص الآية:

﴿ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ . . . ﴾ .

وتحقيق الإرهاب للعدو لن يكون إلا عن طريق الإعداد والاستعداد، فإذا كنا مستعدين فإن العدو سيخشانا ويفكر عشرات المرات قبل أن يعتدى علينا، وهكذا يتحقق لنا . بالإعداد . ما يسمى بتوازن القوى، فالتوازن هو الذى يمنع وقوع الحرب أما اختلال ميزان القوى لصالح أحد الطرفين فإن ذلك يكون سببا فى نشوب الحرب، إذ أن الضعيف يغرى القوى بالاعتداء عليه.

وإذا كان الإعداد . إذن . واجبا شرعيا فإنه يستلزم أمورا عديدة تصبح أيضا واجبات شرعيا، وقد تحدثت من قبل عن صور الإعداد الواجبة شرعا، وأشرت إلى الإعداد العلمى والتكنولوجى والاجتماعى والاقتصادى والعسكرى والمعلوماتى، ولكننى اليوم سأركز على الإعداد النفسى.

فالإعداد النفسى يسبق أشكال الإعداد الأخرى، وبدونه لا يتحقق الهدف من الإعداد، ولا نصل إلى هدفنا وغايتنا، وهذا ما لا نركز عليه غالبا، والإعداد النفسى يقصد به أمران :

. استنهاض الهمة والعزيمة لدى الإنسان.

. إزالة كل عوامل الخوف والتردد من نفسه وقلبه.

وهذان الأمران مهمان قبل القيام بالعمل وأثناء القيام بالعمل كذلك، ولذلك يهتم أصحاب الأعمال الناجحة بهذا الجانب غاية الاهتمام، لأنهم يدركون أثره على عملية الإنتاج، فالعامل المهزوز نفسيا والخائف والمتردد سيخرج العمل من بين يديه مهزوزا ومضطربا، وقل مثل ذلك فى الطالب والمدرس والطبيب وغيرهم، كل هؤلاء إذا لم يكونوا مؤهلين نفسيا للعمل الذى سيقومون به فإنهم لن يحسنوا القيام به.

ومن ثم فإن الإعداد النفسى ليس مطلوبا للمقاتل فقط، وإنما لكل الأفراد، ولكل الأعمال، حتى الألعاب الرياضية صار يستعان فيها اليوم بأخصائى نفسى، يعرف كيف يستنهض همم اللاعبين ويحفزهم إلى تحقيق الفوز فى المباريات.

ومن نماذج الإعداد النفسى اخترت ثلاثة نماذج :

. النموذج الأول من القرآن الكريم.

. النموذج الثانى من السنة النبوية.

. النموذ الثالث من الحياة العملية.

النموذج الأول :

إعداد موسى لمواجهة فرعون ولمواجهة السحرة، فقد شاءت إرادة الله أن يبعث موسى إلى فرعون وملائه :

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣)﴾ (الأعراف ١٠٣).

وفى موضع آخر :

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (١٧) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ (٢٤)﴾ (النازعات ١٥ . ٢٤).

ماذا كان من شأن الله مع موسى قبل ان يذهب إلى فرعون فى سورة طه من الآية٩ . ٢١:

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (٩) إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ (طه ٩ . ١٦).

لاحظ بداية الإعداد فى الجزء القادم :

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (٢١)﴾ (طه ١٧ . ٢١).

هذه العصا ستكون سلاحه فى مواجهة السحرة الذين سيجمعهم فرعون، فلما اجتمعوا :

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩)﴾ (طه ٦٥ . ٦٩).

النموذج الثانى : فى سنن أبى داوود عن أبى سعيد الخدرى قال :

دخل رسول الله . صلى الله عليه وسلم . ذات يوم المسجد فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامة، فقال:

يا أبا إمامة ما لى أراك فى المسجد فى غير وقت الصلاة؟

فقال : هموم لزمتنى وديون يا رسول الله.

فقال : الا اعلمك كلماتٌ إذا انت قلتهن أذهب الله عز وجل همك وقضى عنك دينك؟

قال : بلى يا رسول الله.

قال : قل، إذا اصبحت وإذا امسيت :

(اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال).

قال : ففعلت ذلك، فأذهب الله عنى همى وقضى عنى دينى.

نحن هنا أمام مشكلة اقتصادية ادت إلى مشكلة نفسية، فالديون أدت إلى الهموم، أو العكس، فما العلاج الذى قدمه النبى للرجل؟

لقد قدم له النبى علاجا نفسيا أولا قصد به أمرين :

. استنهاض همة الرجل وحفزه إلى العمل.

. إزالة عوامل الضعف والعجز النفسى عن نفس الرجل.

فلما فعل الرجل ذلك، تغيرت حالته النفسية، فأقبل على العمل فرزق، فسدد ديونه وأزال همه.

النموذج الثالث : هو وصية أم (أمامة بنت الحارث) لابنتها عند الزواج.

اى بنية :

إن الوصية لو تركت لفضل أدب، تركت لذلك منك، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها، وشدة حاجتهما إليها، كنت أغنى الناس عنه، ولكن النساء للرجال خلقن، ولهن خلق الرجال.

اى بنية :

إنك فارقت الجو الذى منه خرجت، وخلفت العش الذى فيه درجت إلى وكر لم تعرفيه وقرين لم تألفيه، فاحفظى له خصالا عشراً يكن لك ذخرا:

أما الأولى والثانية :

فالخشوع له بالقناعة، وحسن السمع والطاعة.

وأما الثالثة والرابعة:

فالتفقد لمواقع عينيه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح.

وأما الخامسة والسادسة :

فالتفقد لوقت منامه وطعامه، فإن تواتر الجوع ملهبة وتنغيص النوم مغضبة.

وأما السابعة والثامنة :

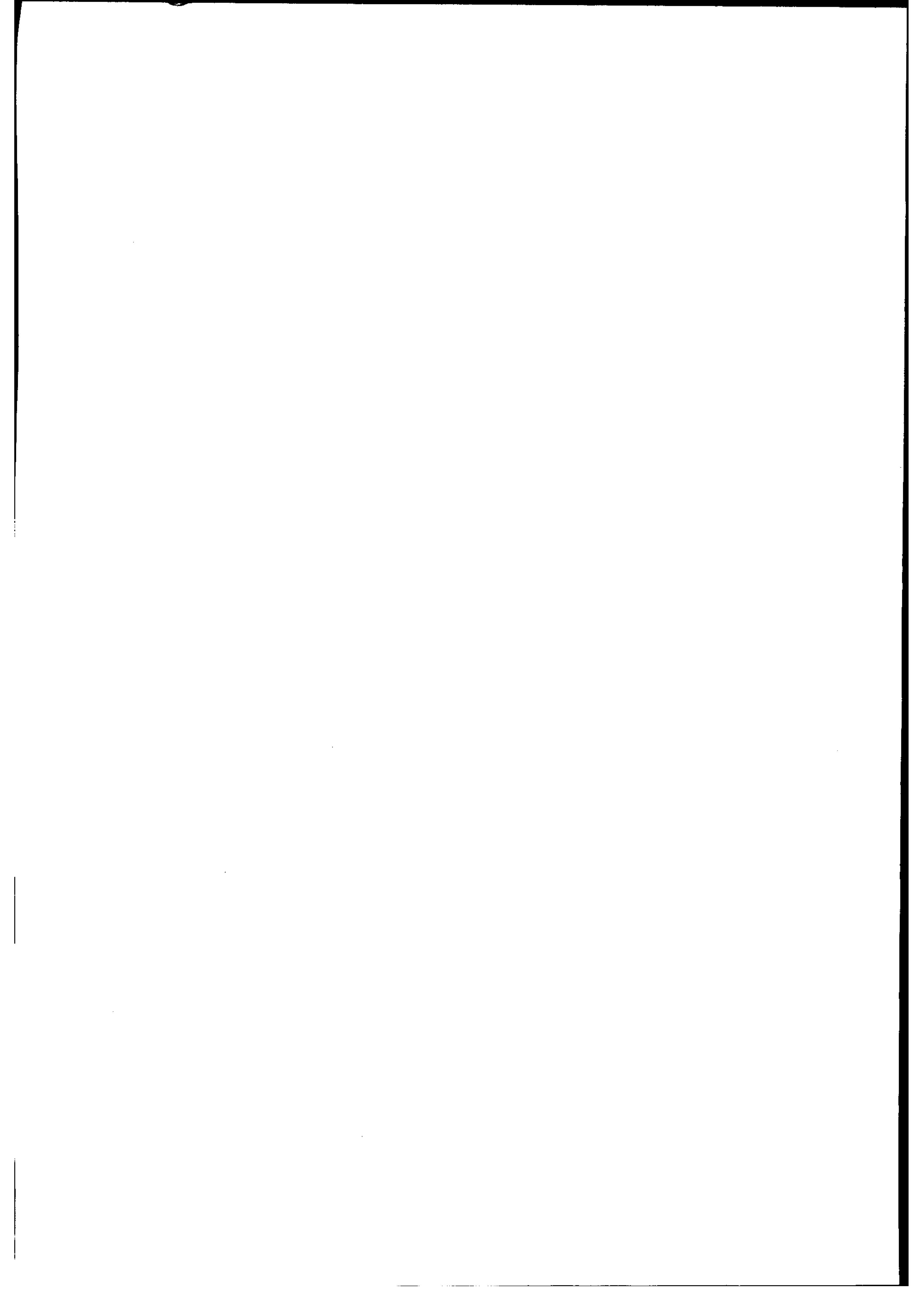
فالاحتراس بماله، والإرعاء على حشمه وعياله، وملاك الأمر فى المال حسن التقدير، وفى العيال حسن التدبير.

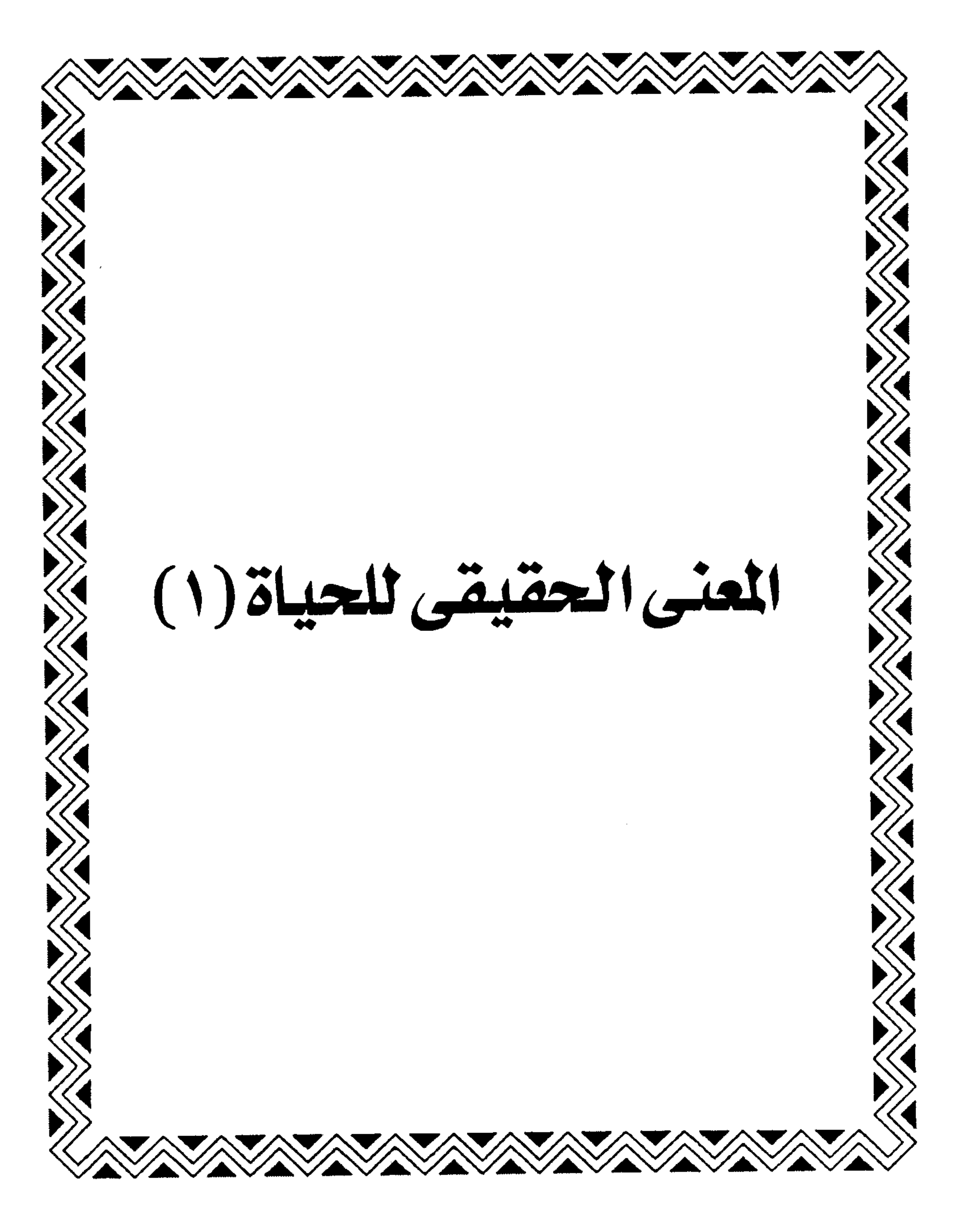
وأما التاسعة والعاشرة :

فلا تعصين له أمرا ولا تفشين له سرا، فإنك إن خالفت أمره أو غرت صدره، وإن افشيت سره لم تأمنى غدره، ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مهتما، والكآبة بين يديه إذا كان فرحا).

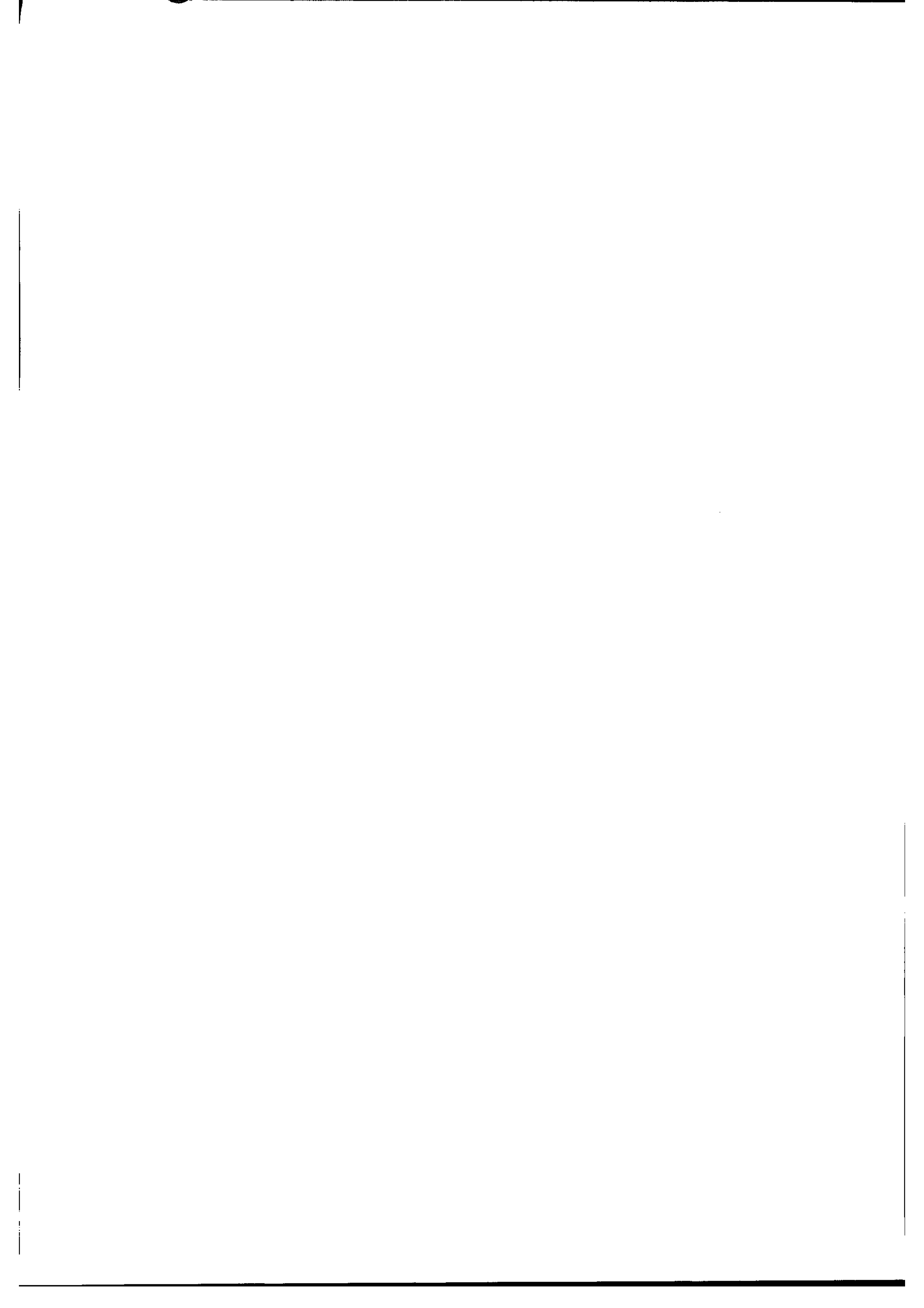
إنه إعداد نفسى على أعلى درجة، وعلى هذا النحو يكون الإعداد.







المعنى الحقيقى للحياة (١)



يقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) ﴾ (الأنفال ٢٤).

هذه هى الآية الرابعة والعشرون من سورة الأنفال.

وأول ما يلفت النظر فى الآية هو هذه المفارقة، فالله تعالى يأمر المؤمنين بأن يستجيبوا، وهم لا يكونون مؤمنين ولا يوصفون بالإيمان إلا إذا كانوا مستجيبين، وكان من المتوقع أن يكون الخطاب موجها إلى الذين كفروا، وليس إلى الذين آمنوا، لكن توجيه الخطاب إلى المؤمنين بالأمر بالاستجابة لا يخلو من دلالة، إذ المراد هو ترغيب المؤمنين فى تحقيق المزيد من صور الاستجابة لله وللرسول.

وثانى ما يلفت النظر هو الربط بين أمرين:

١. الاستجابة لله وللرسول من ناحية.

٢. إدراك المعنى الحقيقى للحياة من ناحية أخرى.

فالاستجابة لله وللرسول هى التى تحقق الحياة التى ينشدها القرآن، فمن استجاب لله وللرسول، فقد أدرك معنى الحياة، ومن لم يستجب فإنه قد أدرك الحياة ولكنه لم يدرك معناها وقد جعل الله الموت مقابلا لعدم الاستجابة، فالمستجيب هو الحى وغير المستجيب هو الميت :

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (الأنعام ٣٦).

فالموتى هنا هم الذين رفضوا الاستجابة، ولو استجابوا لعدهم القرآن من الأحياء، إذن فهناك ارتباط وتلازم بين الاستجابة من ناحية، وإدراك المعنى الحقيقى للحياة من ناحية أخرى.

والسؤال الآن هو :

إلى أى شىء يدعونا الله ورسوله ؟

إن رسول الله . صلى الله عليه وسلم . يدعونا إلى الحياة بكل معانيها، ولكن قبل أن افصل القول فى هذا الأمر اتساءل :

لا ينكر أحد اننا أحياء الآن، لكن :

هل حياتنا اليوم مثل حياة غيرنا ممن يعيشون معنا على الأرض؟

هل حياتنا اليوم مثل حياة أجدادنا الذين بنوا حضارة هى الأساس الذى قامت عليه الحضارة الحديثة؟..

هل يستوى من يبسط يده بالخير لعباد الله مع من يبسط يده يطلب طعاما أو سلاحا من غيره؟..

هل يستوى من ينكفى على نفسه ويغلق باب الحجرة عليه ويقول لا شأن لى بغيرى، مع من ينافس غيره على مكان الريادة والقيادة؟

واعود إلى السؤال الأهم :

إلى اى شىء يدعونا الله ورسوله إذن؟

كما ذكرنا سابقا إن الرسول يدعونا إلى الحياة الحقيقية.

والحياة الحقيقية تقوم على الارتباط الدائم بالله والاتصال الوثيق به

فكل حياة تقوم على الارتباط بالله هى حياة حقيقية.

وكل حياة تبعد الإنسان عن ربه، وتقطع ما بينه وبين ربه هى حياة مزيفة، أو هى الموت الحقيقى.

والقرآن يصحح مفهومنا عن الحياة والموت حين يقول :

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (آل عمران ١٦٩).

او فى قوله تعالى :

﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ ﴾ (البقرة ١٥٤).

او فى قوله تعالى :

﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الأنعام ١٢٢).

فالحياة الحقيقية إذن هى القائمة على الاتصال بالله الذى هو أساس كل نجاح وفلاح.

وتحقيق الصلة بالله هو الهدف الكبير الذى جاء كل الأنبياء لتحقيقه فى حياة البشر:

﴿ ... يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ... ﴾ (الأعراف ٥٩).

دعوة تكررت كثيرا على لسان الأنبياء، وهذه الدعوة تحمل فى طياتها فكرة الحياة الحقيقية، لأن عبادة الله والصلة به هى التى تجعل للحياة معنى وهدفا نبيلا.

والحياة الحقيقية أبعد ما تكون عن الجانب المادى فى الحياة:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (آل عمران ١٤. ١٥).

والحياة الحقيقية هى التى يطمئن فيها الفرد ويسعد، ويستقر فيها المجتمع ويقوى.

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾(طه ١٢٣ . ١٢٤).

فالفرد بغير دين كالقشة فى مهب الريح، والمجتمع بغير إيمان يفقد الإحساس بالأمان.

والحياة الحقيقية هى الدار الآخرة:

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾(العنكبوت ٦٤).

أما هذه الحياة فكل ما فيها عرض زائل، لا يدوم لها حال، وإنما خلقنا فيها للإبتلاء، فهى دار ممر والآخرة دار مقر، لكن الإيمان بالدار الآخرة لا يكون على حساب الدنيا، وما كلفنا فيها من عمل :

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (القصص ٧٧).

فالإسلام يرفض العمل للدنيا على حساب الآخرة، أو للآخرة على حساب الدنيا، وقد فسر المفسرون كلمة لما يحييكم فى الآية بأنها :

١ . الجهاد لأنه سبب الحياة فى الظاهر، ... والموت فى الجهاد هو الحياة الأبدية.

٢ . وقيل هو القرآن والسنة.

٣ . وقيل هو الإيمان والإسلام.

ومهما يكن، فإن دعوة الرسول دعوة إلى الحياة، فقد دعانا إلى عقيدة تحيى القلوب، بدونها تكون القلوب خرابا، دعانا إلى شريعة تصلح الحياة، دعانا إلى الجهاد لإعلاء راية الدين، دعانا إلى منهج للفكر والنظر والاعتبار فى كل جوانب الحياة.

إن ما جاء به سيدنا محمد . صلى الله عليه وسلم . هو منهج كامل، منهج هو دعوة للحياة، وليس دعوة إلى اليأس من الحياة.. دعوة إلى الحياة الطيبة :

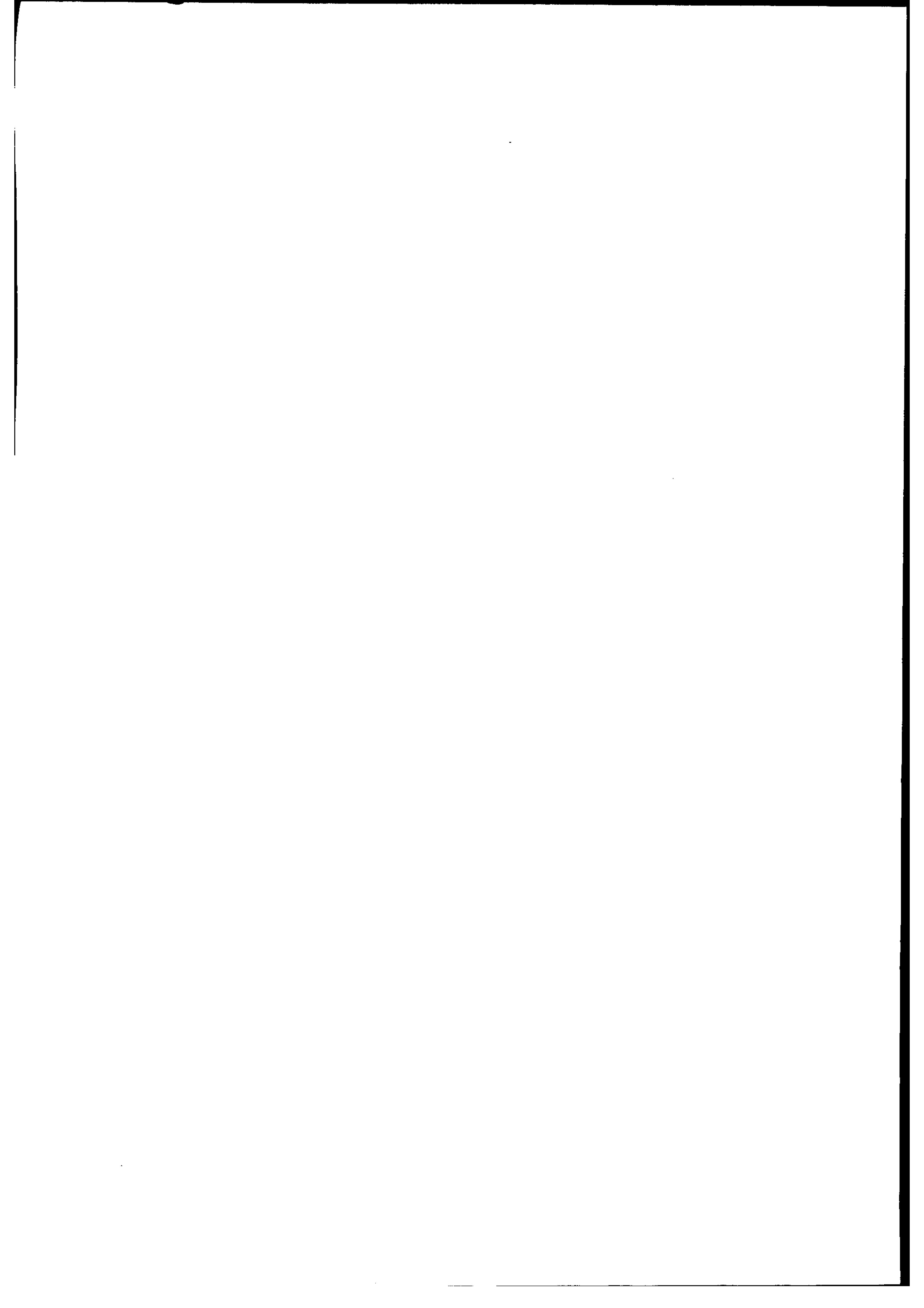
﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل ٩٧).

للإمام على . كرم الله وجهه . كلام جميل فى شأن الحياة الدنيا :

(إنما المرء فى الدنيا غرض للمنايا (الموت)، ونهب للمصائب، ومع كل جرعة شرق، وفى كل أكلة غصص، ولا ينال العبد فيها نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يستقبل يوما من عمره إلا بهدم آخر من أجله، فنحن أعوان الحتوف (المهالك)، وأنفسنا تسوقنا إلى الفناء، فمن أين نرجو البقاء؟ وهذا الليل والنهار لم يرفعا من شىء شرفا إلا أسرعا الكرة فى هدم ما بنيا، وتفريق ما جمعا فاطلبوا الخير وأهله، واعلموا أن خيراً من الخير معطيه، وأن شراً من الشر فاعله).



المعنى الحقيقى للحياة (٢)



يقول الله نعالى فى كتابه الكريم :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (الأنفال ٢٤).

إذا كان القرآن قد اهتم بالعقل، لما له من أهمية في حياة البشر، فإنه قد اهتم أيضا بالقلب، وإذا كانت كلمة العقل ومشتقاتها تتكرر كثيرا فى القرآن، فإن كلمة القلب، تأخذ الاهتمام ذاته.

ومن هنا يجب أن نعرف كيف كانت تعاليم الإسلام إحياء للقلب، كما كانت إحياء للعقل؟، قبل أن أبدأ فى الإجابة أحب أن أنبه إلى ثلاثة أمور :

أولا : أن العلاقة بين العقل والقلب فى الإنسان لا تشبه العلاقة بين الغرف المنفصلة فى البيت الواحد، كل منها له باب مستقل، بحيث إذا دخلت إحداها انعزلت تماما عن الأخرى... لا، إن العلاقة بينهما مفتوحة، فهى علاقة تواصل لا انفصال، تكامل لا تعارض، آيات كثيرة تشير إلى ذلك :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (الحج ٤٦).

لاحظ قلوب يعقلون بها... والقلب هنا مطلوب منه أن يعقل، مما يدل على تداخل الأمرين.

ثانيا : نحن لا نتحدث عن عضوين من أعضاء جسم الإنسان، كالكبد والطحال مثلا وحتى العضو الموجود فى الجسم المسمى بالقلب، ليس هو المقصود، لأن هذا العضو موجود فى جميع الحيوانات والطيور، وإنما القلب والعقل هنا هما هبة من الله للإنسان، هما معنى لطيف، أعنى ليس لها كتلة أو كثافة.

يقول الإمام الغزالى فى المنقذ من الضلال :

(اعلم أنه قيل في المثل المشهور، إن النفس كالمدينة، واليدين والقدمين وجميع الأعضاء ضياعها . والضيعة هى الأرض المزروعة، أو هى الحرف التى تدر دخلا . والقوة الشهوانية واليها، والقوة الغضبية شحنتها، والقلب ملكها، والعقل وزيرها، والملك يدبرهم حتى تستقر مملكته وأحواله ويجب أن يشاور الوزير، ويجعل الوالى والشحنة يد الوزير (العقل) فإذا فعل ذلك استقرت أحوال المملكة وتعمرت المدينة. وكذلك القلب يشاور العقل ويجعل الشهوة والغضب تحت حكمه، حتى تستقر أحوال النفس ويصل إلى سبب السعادة من معرفة الحضرة الإلهية .. (صفحة ١١٦ المنقذ من الضلال).

فالقلب إذن شيء معنوي ينزل على القلب المادى الذى هو معروف فى الجسم دون أن نعرف كيفية ذلك.

ثالثا: إن الإنسان فى التصور الإسلامى تتوقف مكانته ومنزلته على ما فى قلبه، وليس على صورته الظاهرة أو ما فى يده من متاع الحياة، فاللون والشكل والنوع والوزن والمال والمنصب، كل هذه الأشياء لا اعتبار لها عند الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ (سبأ ٣٧).

وانظر إلى قول رسول الله صلي الله عليه وسلم:

(إن الله لا ينظر إلى صوركم وأشكالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم).

(الا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله).

ومؤكد أن الصلاح والفساد هنا هما أمران معنويان.

ونعود بعد هذه المقدمة الضرورية إلى السؤال :

كيف كانت تعاليم الإسلام فى القرآن والسنة إحياء للقلب ؟

أولا : عمق مفهوم الحياة عند البشر

فالناس قبل الإسلام كانوا يعتقدون أن الحياة فقط هى التى يعيشون فيها علي هذه الأرض :

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ (الجاثية ٢٤).

وفى آية أخرى :

﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (المؤمنون ٣٧).

قبل الإسلام إذن كانت مساحة الحياة ضيقة ومحدودة بل لا قيمة لها وهذا كله يميت القلب، فلما جاء القرآن بمفهوم جديد للحياة وهو:

(إن الحياة ليست فقط هى الحياة الدنيا وإنما الحياة هى حياة الآخرة).

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (العنكبوت ٦٤).

بمعنى أنها الحياة الحقيقية :

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (الأنعام ٣٢).

ومن مشاهد يوم القيامة :

﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) ﴾ (الفجر ٢١ . ٢٤).

فهذه هى الحياة الحقيقية التى تستحق اسم الحياة، وتستحق أن يستعد لها الإنسان.

فماذا يدخر لها ؟ إنه يدخر لها (يا ليتنى...).

أمنية فيها الحسرة الظاهرة، وهى أقسى ما يملكه الإنسان فى الآخرة .

انعكس هذا المفهوم على المؤمنين حتى عبر بعضهم قائلا :

تأخرت أستبقى الحياة فلم ... أجد لنفسى حياة إلا أن أتقدما

لم يذهب للقتال حتى يحافظ علي حياته، فاكتشف أن الحياة الحقيقية هى فى الإقدام على القتال وأن يموت الإنسان من أجل قضية.

ثانيا : صحح مفهوم الموت :

فالموت فى نظر الناس فناء وعدم :

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ (الجاثية ٢٤).

﴿ ولا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (آل عمران ١٦٩).

الموت حياة أخرى لها خصائص تختلف عن الحياة الأولى، والموت مرحلة تلى الحياة وتسبق الحساب وبهذا نعمق مفهوم الحياة والموت عند الناس، وهذا فيه إحياء لهم.

ويتبقى سؤال :

ما صلة هذا الكلام بالواقع المعاصر؟....

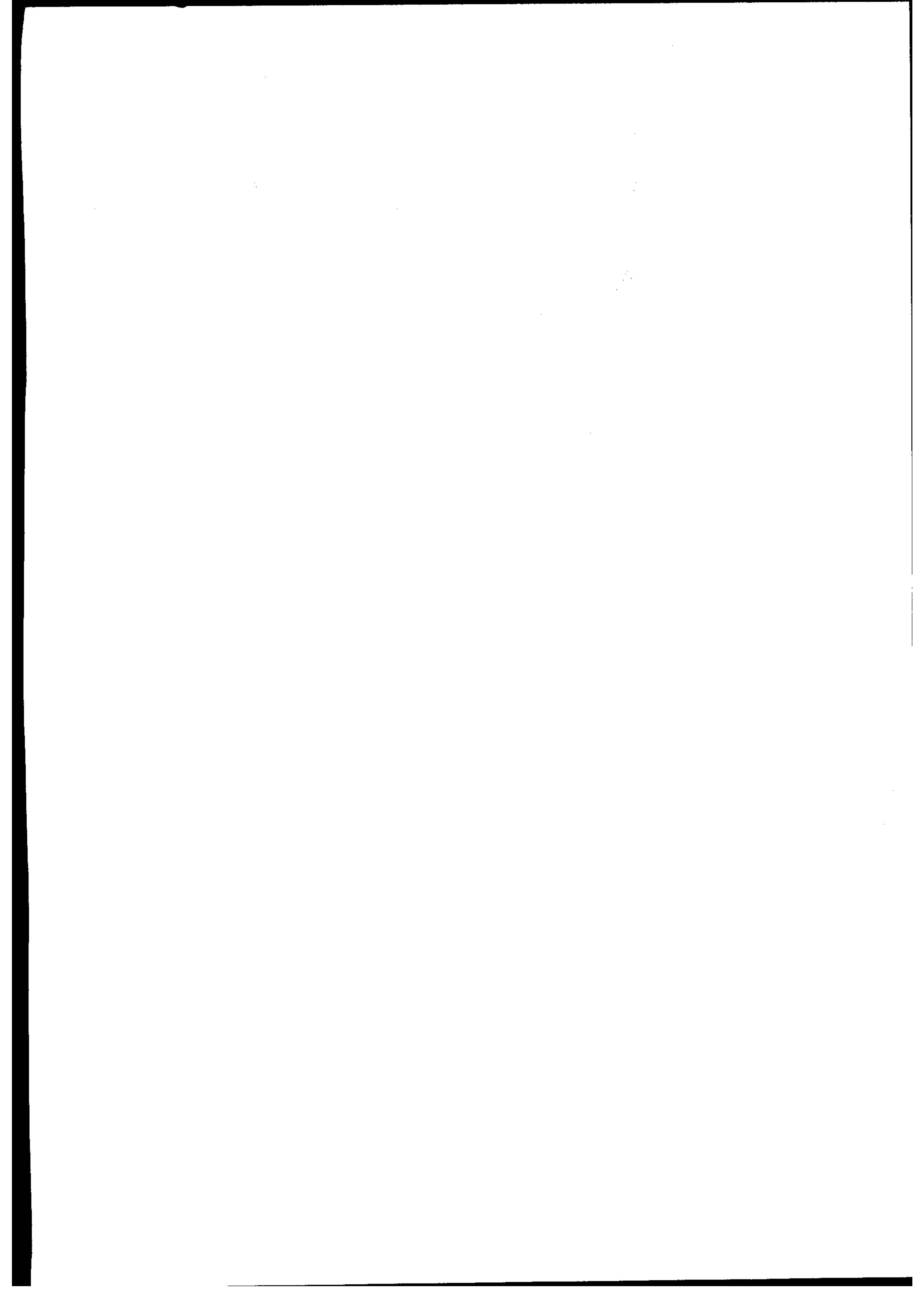
هناك الآن محاولات مستميتة لصرف الناس عن المفهوم الحقيقى للحياة، واختزال الحياة فى الفكرة القديمة :

﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (المؤمنون ٣٧).

إن أحوال أغلب الناس، فى زماننا هذا، ترجمة لهذا الشعار القديم، لأن حضارة العصر الذى ننتمي إلية حضارة مادية، بكل ما فى هذه الكلمة من معنى، حضارة لا تستحى من الله ! ولا تؤمن بالبعث حقاً، وهى بذلك تحكم على نفسها، وعلى أتباعها، بالفناء والدمار، لأنها خرجت الطريق الصحيح.



المعنى الحقيقى للحياة (٣)



يقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) ﴾ (الأنفال ٢٤).

ما هو معنى الحياة؟

هناك فرق كبير بين الحياة ومعنى الحياة، يشبه الفرق بين الحيوان والإنسان، فالحيوان والإنسان يشتركان فى الحياة، لكن الإنسان وحده هو الذى يدرك معنى الحياة.

ومعنى الحياة هو مقصدها، والغاية منها، ومقصد الحياة والغاية منها هو معرفة الله والقيام بما ينبغى له من العبودية والطاعة لقوله تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات ٥٦).

والعبادة هى الطاعة، والطاعة لله هى التى تحقق معنى الحياة، فمن أطاع الله فقد أدرك معنى الحياة، ومن عصى الله فهو من الأموات.

انظر لقوله تعالى :

﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ . . . ﴾ (الأنعام ١٢٢).

إنه لا يحدثنا عن الحياة والموت فى صورتيهما الظاهرة، وإنما فى صورتيهما الحقيقية :

إن المعصية موت، وإن الطاعة حياة، ولذلك كلمة ﴿ مَن كَانَ مَيْتًا ﴾ تدل على أن الإنسان هو الذى اختار ذلك، ولكن الله رحمه فأحياه.

ثم انظر إلى قوله تعالى :

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ ﴾ (فاطر ٢٢، ٢٣).

إنه لا يحدثنا عن الصورة، إنما يحدثنا عن المعنى، معنى الصورة وليست الصورة، فالأحياء . حقا . هم الطائعون لله، والأموات . حقا . هم العصاة له سبحانه، وعلى هذا

فإذا مات الطائع فى الظاهر فإنه لم يمت وإنما هو حى، وإذا عاش العاصى فى الظاهر، فإنه لم يعش، وإنما هو ميت.

تأمل . كذلك قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ (البقرة ١٥٤).

إذن فالإنسان لا يدرك معنى الحياة إلا بمعرفة الله، وطاعته.

ولذلك قال الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (الأنفال ٢٤).

فطاعتكم لله وللرسول هى التى ستبلغكم معنى الحياة ويظهر ذلك فى كلمة ﴿ يُحْيِيكُمْ ﴾.

والقرآن فى مجموعه هو دعوة لإحياء الحياة أو لإعطاء الحياة المعنى الكريم واللائق بجنس البشر، والذى ينسجم مع قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة ٣٠).

وقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء ٧٠).

والسؤال الآن هو:

كيف أحيا القرآن الحياة؟

أشير هنا إلى أربعة مجالات هى:

. إحياء العقل.

. إحياء الطبيعة.

. إحياء القلب.

. إحياء الحضارة.

وسأكتفى اليوم بالحديث عن إحياء العقل، وحتى نعرف كيف أحيا القرآن العقل لابد من أن نشير . فى إيجاز . إلى أن العقل الإنسانى قبل القرآن قد انتهى به الأمر إلى أحد اتجاهين :

. إما عقل مادى بحت.

. وإما عقل تسليمى مطلق.

أما العقل المادى البحت :

فقد كان اليهود والمشركون والوثنيون هم عنوان هذا العقل.

ألم يحدثنا القرآن عن اليهود الذين قالوا لموسى (ارنا الله جهرة).

وقال بعض اتباعه : (اجعل لنا إلها كما لهم آلهة).

وعبدوا العجل من دون الله :

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ (الأعراف ١٥٢).

فقد وصل بهم الأمر إذن إلى أن الإله فى نظرهم إله مادى.

أما العقل التسليمى :

فكان يقوم على النقيض تماما، إنه عقل يقوم على التسليم المطلق، يسلم بكل ما يقال من الكهنة والأحبار والرهبان دون مناقشة، حتى ولو كان ما يقال يتعارض مع العقل فالمهم أن يسلم الإنسان بما يقال ولا يناقش، ولهذا رفضت الكنيسة . فى أوروبا . العلم وحاربت العلماء، ودعت إلى حرقهم، لأنهم نادوا بحقائق علمية على غير هوى الكنيسة.

هذان الأسلوبان إذن قتلا العقل الإنسانى، وحكما عليه بالتحجر والجمود، وحكما على الحياة كذلك بالتحجر والجمود، فأصبح الإنسان أسير عقله، قد عاشت البشرية فى ظلام دامس إلى أن بزغ فجر الإسلام.

وهنا . بمجىء القرآن . عادت الحياة إلى العقل الإنسانى مرة أخرى.

كيف أحيا الإسلام العقل؟

هناك أمور أساسية، ثلاثة منها رفضها الإسلام، وثلاثة دعا إليها.

ونبدأ بالأمور التى رفضها الإسلام :

. أولاً : رفض التفسير الخرافى للحياة، أو لما يجرى فيها من أمور وأحداث، والتفسير الخرافى هو الذى يقوم على ربط الأحداث بغير أسبابها الصحيحة، عن المغيرة بن شعبة

قال : كسفت الشمس على عهد رسول الله . صلى الله عليه وسلم . يوم مات إبراهيم، فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم، فقال رسول الله:

(إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم فصلوا وادعوا الله).

ثانيا : رفض التسليم بكل ما جاء عن الآباء من معارف وعادات وغير ذلك. وعاب على من يفعلون ذلك :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة ١٧٠).

وفى آية أخرى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ (المائدة ١٠٤).

إن التسليم بكل ما ورد عن الأقدمين يؤدى إلى جمود الفكر وجمود الحياة.

ثالثا : حرم كل ما يؤدى إلى تغييب العقل والفكر كالخمر وما أشبهها به كالمخدرات:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ (المائدة ٩٠ . ٩١).

هذه هى الأمور الثلاثة التى رفضها الإسلام. أما ما دعا الإسلام إليه فهو كما يلى :

أولا : دعا إلى النظر والتفكر فى خلق الله:

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (العنكبوت ٢٠).

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (سبأ ٤٦).

﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يونس ١٠١).

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (آل عمران ١٩٠ . ١٩١).

وهذا النظر والتفكير من شأنه ان يحيى العقل باستمرار.

ثانيا : دعا إلى العلم وأمر به، ورفع شأنه وشأن العلماء فقال :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ (العلق ١).

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران ١٨).

وهناك آيات كثيرة تبين قيمة العلم :

﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (المجادلة ١١).

فطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة.

والعلماء هم ورثة الأنبياء، وقل رب زدنى علما.

فهناك آيات وأحاديث كثيرة تحض على العلم إحياء لدور العقل فى الإنسان. ولاشك أن طلب العلم فيه إحياء للعقل.

ثالثا: دعا إلى الاجتهاد، وفتح الباب أمام العقل لكى يستنبط الحكم الشرعى على مستويين :

مستوى الأمة، ومستوى الأفراد:

فالفرد العادى محتاج إلى الاجتهاد فى الأمر الذى يصيبه ولا يجد من يسأله، ومثال ذلك قصة عمرو بن العاص لما احتلم فى ليلة شديدة البرد، وكان فى إحدى الغزوات فخاف إن اغتسل ان يهلك من شدة البرد، فتيمم ثم صلى بأصحابه صلاة الصبح، فلما جاء النبى . صلى الله عليه وسلم . ذكروا ذلك فقال : يا عمرو، صليت بأصحابك وانت جنب؟

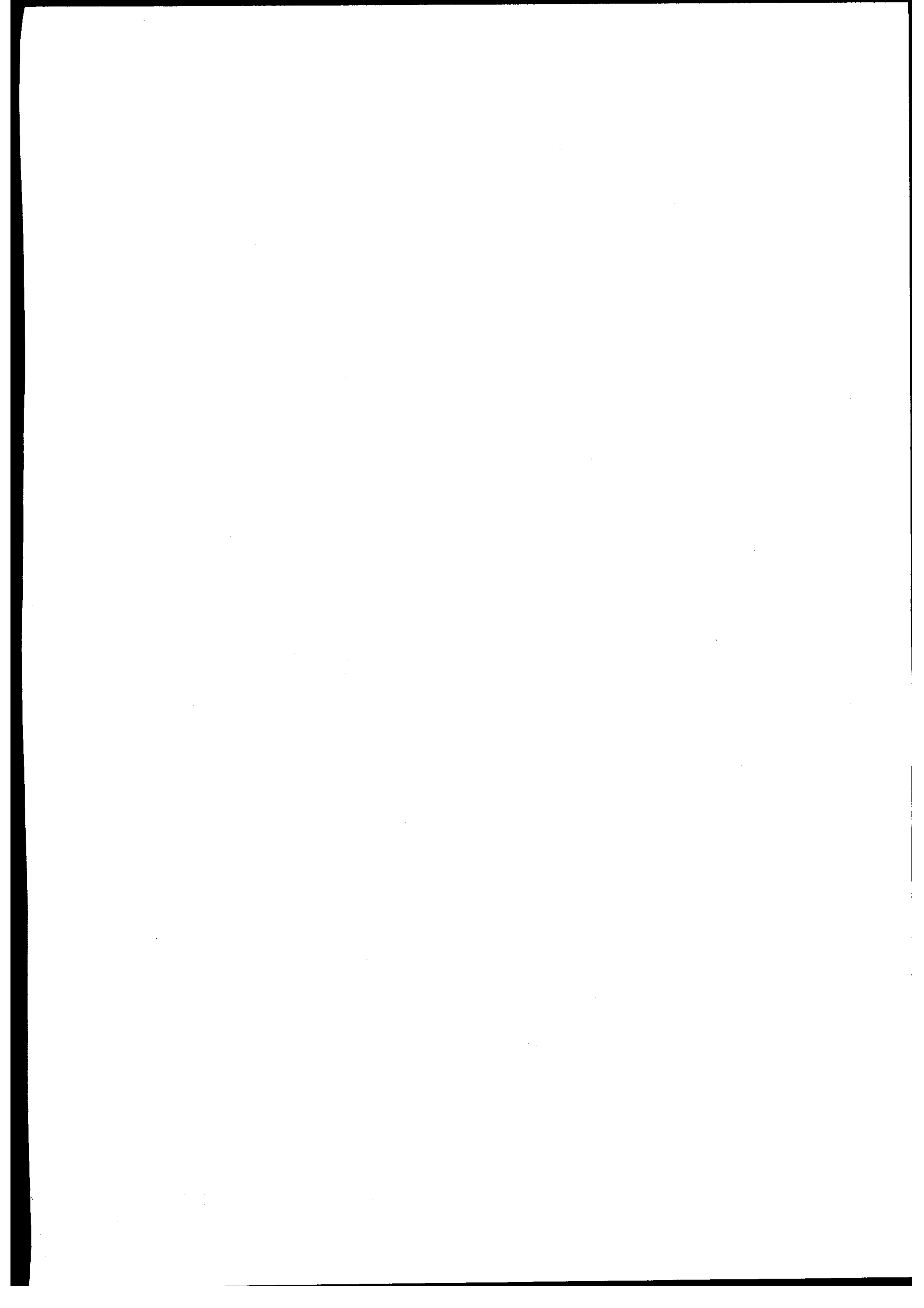
قال تذكرت قول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (النساء ٢٩).

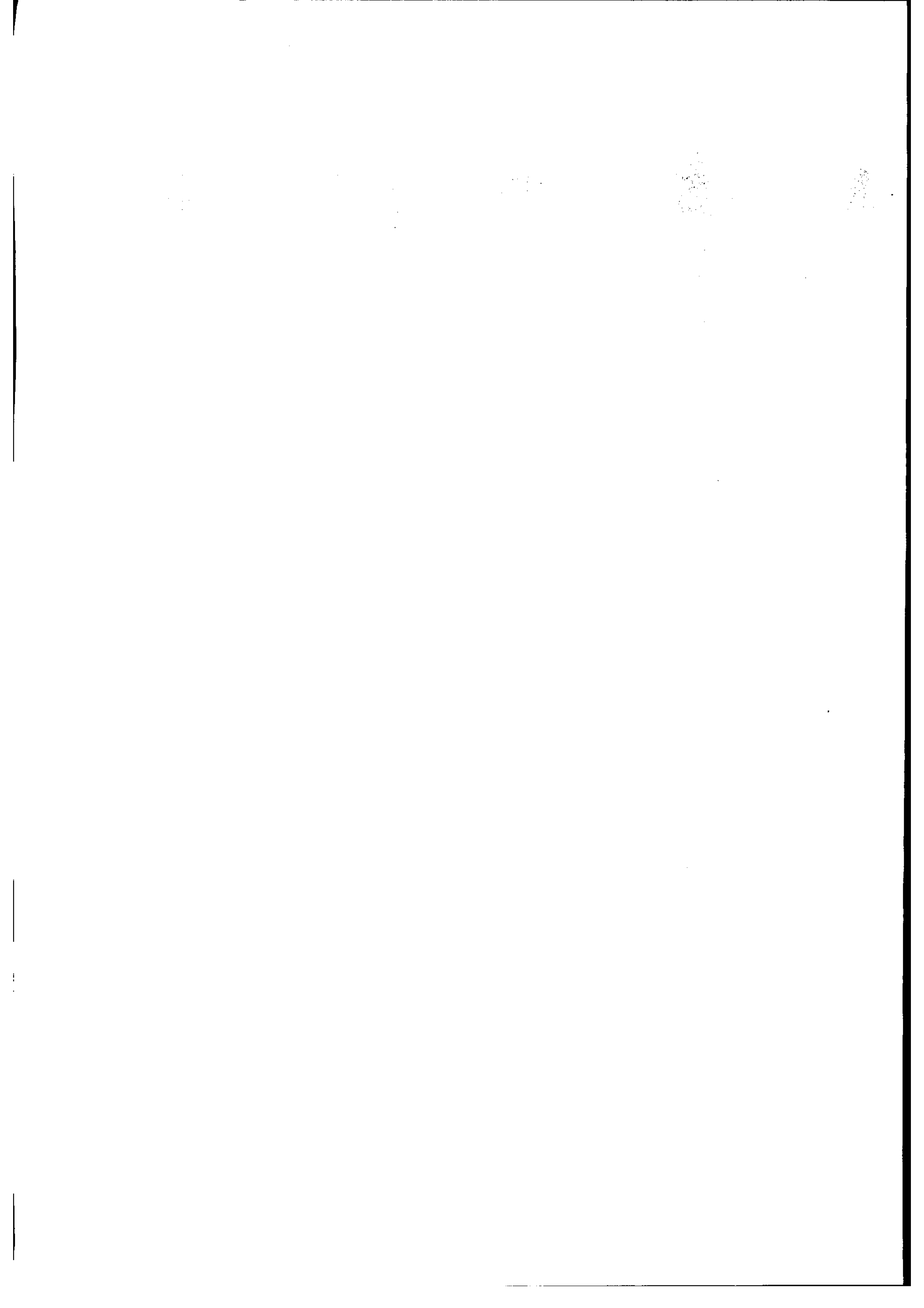
فتيممت ثم صليت، فضحك رسول الله ولم يقل شيئا، يعنى أقره على ما فعل.

وهكذا يجعل الإسلام الإجتهاد سبيلا إلى إحياء العقل حيث يحتاج المسلم باستمرار إلى إعمال عقله فى فهم ما جاء به الوحى، أو فهم الظروف التى يواجهها فى الحياة.

❖ ❖ ❖



المعنى الحقيقى للحياة (٤)



يقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (الأنفال ٢٤).

سئل ذات مرة المرحوم الشيخ محمد الغزالى عن تعريف مختصر للإسلام فأجاب فى جملتين :

(الإسلام عقل يرفض الخرافة، وقلب يرفض الرذيلة).

فكيف حقق الإسلام ذلك؟

إن الإجابة تتطلب منا أن نعرف معنى الخرافة، وكذلك معنى الرذيلة.

أولا ما الخرافة :

الخرافة عند علماء اللغة هى الحديث المستملح من الكذب، يعنى الكلام المختلق الذى ليس له أساس من الصحة، ولكن إذا سمعه السامع أعجب به، ولكن مدلول الخرافة قد يكون أعم من هذا، فتطلق كلمة خرافة على كل قول لا يستطيع الإنسان أن يثبت صحته بالدليل، وقد عاشت البشرية كثيرا من الفترات التى شاعت فيها الخرافات، وانتشرت على حساب العقل الإنسانى، فكان الناس يفسرون كثيرا من مظاهر الكون أو أسرار الغيب تفسيرا خرافيا، من ذلك مثلا ما ذكر عن غروب الشمس، من أنها إذا غربت ابتلعها حوت!!! وأن الأرض مستقرة على ظهر حوت، يلتقى طرفاه بالعرش، وأن ظاهرة خسوف القمر تعبير عن اختناق القمر، وأظن أن طفلا صغيرا لن يصدق اليوم هذا الكلام، مع أنه كان منتشرا فى وقت من الأوقات.

وكان انتشار هذه الخرافات اعتداء على العقل الإنسانى، لذلك اهتم الإسلام برفع هذا العدوان على العقل وعلى الحياة، فوضع برنامجا من ثلاثة محاور للقضاء على الخرافة، وما يدور فى فلكها من دجل وشعوذة وغير ذلك، وهذه المحاور هى :

المحور الأول :

طالب العقل بأن يقوم بوظيفته، ووظيفة العقل هى التفكير والتأمل والتدبر، والقرآن يحرض المسلم على ذلك، على أن يتفكر ولا يمشى وراء الخرافة ﴿ وقل إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ (سباء ٤٦). سباء، ونقرأ كثيرا فى القرآن كلمات تحث المسلم على التفكر مثل افلا تعقلون، افلا تذكرون، لعلهم يتفكرون.

المحور الثانى :

طالب بالمحافظة على العقل الذى هو هبة من . سبحانه وتعالى . كما طالب بتنميته، والمحافظة على العقل تتم بأمور كثيرة منها :

. طلب العلم ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾(طه ١١٤) و ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ . الَّذِي خَلَقَ ﴾ (العلق ١).

. تحريم كل ما هو مؤثر على العقل كالخمر وغيرها، مما يؤثر على قدرة العقل على أداء وظيفته.

المحور الثالث :

حرر العقل من العوائق التى تمنعه من العمل :

. نهى عن التقليد وذم من يفعله ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ (المائدة ١٠٤).

. نهى عن اتباع الهوى ﴿ فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا . . . ﴾ .

. نهى عن اتباع الظن ﴿ اجتنبوا كثيرا من الظن ﴾ .

وبهذا المنهج تعلم العقل أن يرفض الخرافة وانتقل بعد ذلك إلى الجملة الثانية فى تعريف الشيخ الغزالى للإسلام وهى أن الإسلام قلب يرفض الرذيلة.

أولا ما الرذيلة:

الرذيلة تطلق على كل أمر قبيح تنفر منه الطباع السليمة، بحيث لا تحتاج إلى من يطالبها باجتنابه، لأنها بالفطرة تجتنبه، ولذلك كل ما حرمه الإسلام من الطعام والشراب والعلاقات بين الرجال والنساء، يتفق مع الفطر السليمة، لأنه دين الفطرة، أى أن احكامه تنسجم وتلتقى مع الفطرة كما خلقها الله . سبحانه وتعالى . .

ولما كان القلب هو محل العزم والإرادة فى الإنسان فقد عنى القرآن به عناية خاصة

حتى اعتبره النبى . صلى الله عليه وسلم . هو مصدر الفساد والصلاح فى الإنسان ﴿ ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب ﴾.

والقلب إما أن يكون مرتعا للفضائل أو الرذائل، فلا يوجد الأمران معا، ولا يفرغ القلب من أحدهما، إذ لا فراغ فى الطبيعة، فالقلب إما مشغول بالفضيلة، وإما مشغول بالرذيلة، خاصة وأن لديه استعداداً لكل منهما، ولكى يرفض القلب الرذيلة هناك ثلاثة محاور أيضا :

المحور الأول:

وهو التزام العبادات كالصلاة والصيام، والزكاة، والحج، والذكر فكل هذه العبادات تطهر القلب من الخبائث والقبائح، والرغبة فى الفحشاء والمنكر، والإنسان الذى يصلى ويصوم ويزكى، ويذكر الله فى كل أحواله، هل يفكر فى الرذيلة ؟

إن العبادات تصل الإنسان بربه، والموصول بالله لا يترك الرذائل فقط، وإنما يجتنب كل ما يذكره بها، وفى ذلك آيات كثيرة :

. ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾.

. ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ (التوبة ١٠٣).

. ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة ١٨٣).

. ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ ﴾ (البقرة ١٩٧).

. ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ (الأعراف ٢٠١).

المحور الثانى :

وهو القيم والأخلاق وعلى رأسها الحياء والعفة والطهارة والتقوى و (مراقبة الله):

. ﴿ الإيمان بضع وسبعون شعبة .... ﴾.

. ﴿ إذا لم تستح فافعل ما شئت ﴾.

. ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ (النور ٣٣).

. ﴿ رَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ (يوسف ٢٣).

المحور الثالث :

وهو التحريم، فقد حرم الإسلام الرذائل وكل ما يوصل إليها من قول أو عمل. فحرم

الزنا، وحرم العلاقات الشاذة، وحرم كل ما يوصل إليها حتى يحافظ على نظافة القلب، فهذه الأمور تقتل الإنسان وتحوله إلى كائن غريزى لا يحركه العقل، وإنما تحركه الغريزة وحدها.

بهذه المحاور حصن الإسلام القلب من الرذيلة، فالقلب المرتبط بالله على هذا النحو لا يمكن أن يكون فيه مكان للقبائح ناهيك عن الرذائل.

لكنى ألمح أمرا آخر فى الإجابة السابقة التى عرف بها الشيخ الغزالى الإسلام، هو أنها تشير إلى النموذج الإنسانى الذى يقدمه الإسلام للبشر، إن الإسلام بتعاليمه يقدم للبشر جميعا إنسان العلم والخلق والفضيلة، فى مقابل إنسان اللذة والشهوة والغريزة، الذى تقدمه الحضارة المادية المعاصرة، والتى أخذ العقلاء الذين عاشوا فيها يشكون منها، ومما أحدثته من فساد وتدمير لقيم الإنسان وحولته إلى كائن غريزى.

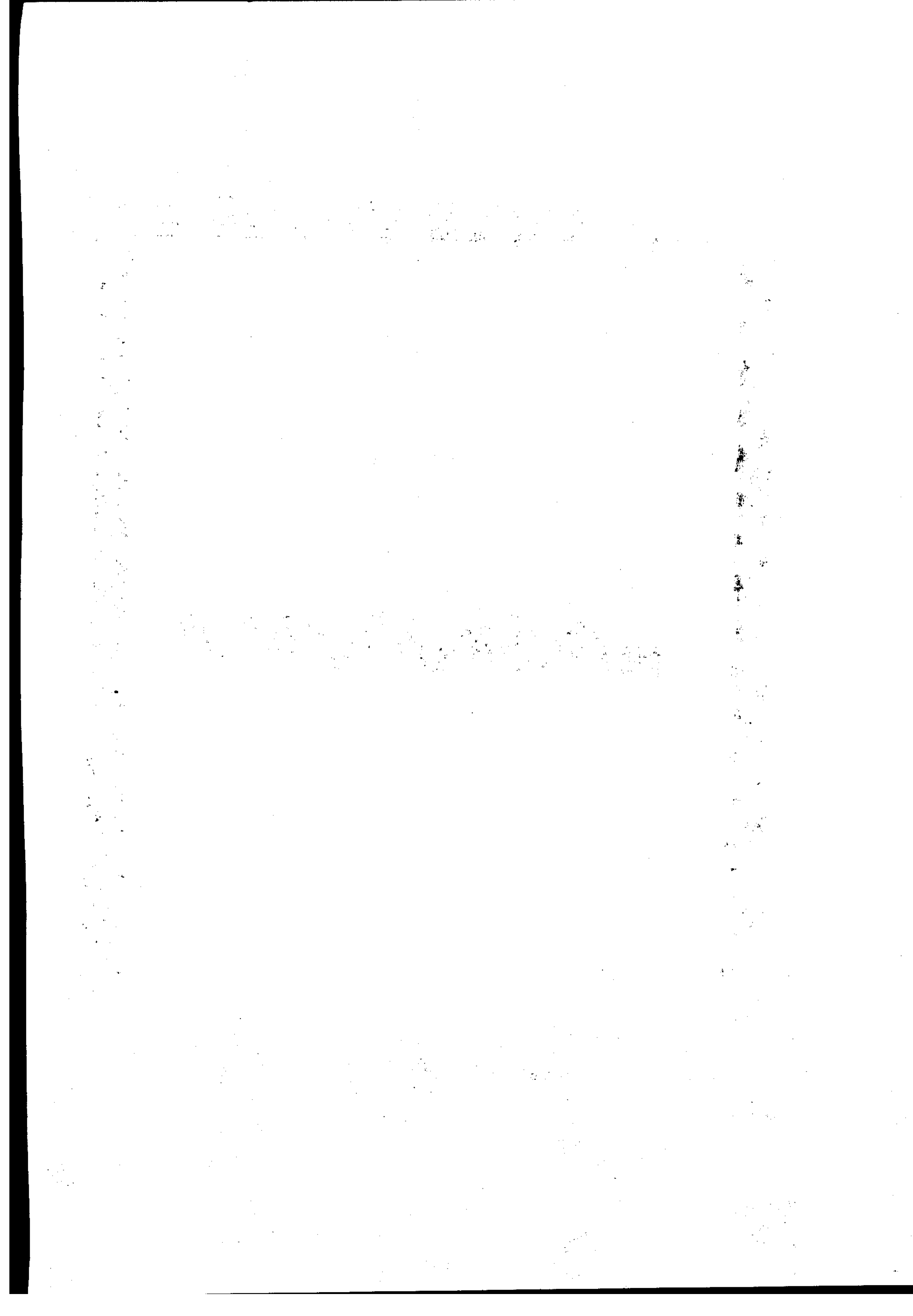
ومن هؤلاء الأمير (تشارلز) ولى عهد بريطانيا وأمير (ويلز)، فقد ألقى محاضرة بعنوان الإسلام والغرب وجاء فيها ما ترجمته :

(إن الإسلام يمكن أن يعلمنا طريقة للتفاهم والعيش فى العالم الأمر الذى فقدته الديانة المسيحية؛ مما أدى إلى ضعفها، ويكمن . فى جوهر الإسلام . حفاظه على نظرة متكاملة للكون، فالإسلام يرفض الفصل بين الإنسان والطبيعة، والدين والعلم، والعقل والمادة، لقد أصبحت الحضارة الغربية مولعة بالكسب واستغلاله على نحو متزايد بما يتنافى مع مسئوليتنا البيئية، إننى على ثقة بأن البعض سيسارع لاتهامى . كما يحدث عادة . بأننى أعيش فى الماضى، وأرفض التأقلم مع الواقع والحياة العصرية، إن الأمر عكس ذلك فما أدعو إليه هو فهم أوسع وأعمق وأشمل لعالمنا، فهم يشمل البعد الروحى بالإضافة إلى البعد المادى بغية استعادة التوازن الذى تخلينا عنه....).

الا يتفق هذا الكلام مع النموذج الحضارى الذى يقدمه الإسلام للمسلمين، ولغير المسلمين، عقل يرفض الخرافة، وقلب يرفض الرذيلة، هذه هى الحضارة التى يدعو إليها الإسلام، والحياة التى ينشئها على الأرض.



السنن الإلهية فى القرآن الكريم



يقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (١٤٣) ﴾ (آل عمران ١٣٧ - ١٤٣).

هذه آيات كريمة من سورة آل عمران نزلت بعد معركة أحد، ومعركة أحد لم تكن معركة فى الميدان فقط حينما التقى الجمعان، جمع المؤمنين وجمع الكافرين، وإنما كانت معركة فى الضمير الإسلامى، داخل النفوس البشرية، وكان القرآن يعالج هذه النفوس، ويصارعها أقوى مما يصارع المقاتلون خصومهم.

ولقد كانت نتيجة معركة أحد متغيرة من بداية المعركة وحتى نهايتها، فكان النصر أولا من نصيب المسلمين، ثم كانت الهزيمة عليهم ثانيا...

ثم جاء النصر الكبير للمسلمين فى النهاية.

وهذا النصر لم يكن انتصارا ماديا بقدر ما كان انتصارا معنويا، ولاشك أن التحول من النصر إلى الهزيمة، ومن الهزيمة إلى النصر كانت له نتائج ملموسة فى ميدان القتال من ناحية، وفى ميدان النفس البشرية من ناحية أخرى.

فى هذه المعركة فقد المسلمون عددا كبيرا من الصحابة، حيث قتل منهم سبعون صحابيا، وقامت نساء الكفار بالتمثيل بجثث المسلمين، حتى إن هند بنت عتبة (زوج أبى سيفان) شقت بطن حمزة عم النبى، وأخرجت كبده ومضغتها ثم لفظتها، وكان

ذلك إمعانا فى الانتقام من المسلمين الذين سبق قتلوا كثيرا من المشركين فى غزوة بدر قبل هذه المعركة.

وما حدث للمسلمين فى هذه الغزوة كانت له هزة فى النفوس وصدمة، لعلها لم تكن متوقعة بعد النصر العجيب الذى تحقق فى بدر، وبلغ الأمر ببعض المسلمين ان تساءلوا :

انى هذا؟

كيف تجرى الأمور معنا هكذا ونحن المسلمون ؟

﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (آل عمران ١٦٥).

فى هذه الظروف إذا نزلت هذه الآيات لترد المسلمين إلى الحقائق الأساسية التى يبني عليها أمر الناس في هذه الدنيا، وأول هذه الحقائق :

١ . أن هناك سننا وضعها الله فى هذا الكون تحكم كل شىء

يقول الله تعالى :

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (آل عمران ١٣٧)

وهكذا يربط القرآن الحاضر بالماضى، والماضى بالحاضر، فما حدث للناس من قبل يحدث الآن وسيظل يحدث بلا تغيير.

والسنن جمع سنة وهى القانون الثابت الذى لا يتبدل ولا يتغير.

وهناك نوعان من السنن :

. سنن كونية : وهى التى تتعلق بالكون مثل شروق الشمس من المشرق وغروبها من المغرب، وهناك ايضا تعاقب الليل والنهار:

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ (يس ٣٧).

وهى سنن لن تتبدل إلا عند قيام الساعة.

. سنن اجتماعية : وهى التى تتعلق بالبشر، فللنجاح سنن، وللفشل سنن، وللنصر سنن، وللهزيمة سنن، وللصحة سنن، وللمرض سنن، ولتقدم المجتمعات سنن، ولتراجعها وتخلفها سنن.

وهكذا فلا شىء متروك للصدفة، وعلى الرغم من أن القرآن لفت نظر المسلمين إلى هذه القوانين أو هذه السنن، إلا أن المسلمين لم يتعلموا منه شيئا.

إنهم يريدون أن يحققوا النصر فقط لأنهم مسلمون!!

يريدون أن يهزموا عدوهم فقط لأنهم مسلمون !!

إنهم يتساءلون، وانظر عم يتساءلون ؟

كيف ينال منهم عدوهم وهم مسلمون ؟

كيف يهزمون وهم مسلمون ؟

ويمكن أن يكون السؤال أيضا :

كيف تدمر بيوتهم ويقتل شيوخهم ونساؤهم وهم مسلمون ؟

وكأن الإسلام جاء ليعصم المسلمين من مثل هذه التضحيات، وهذا ضلال كبير...

فليس المسلمون معصومين من مثل هذه الشدائد، إن ما يجرى عليهم هو ما جرى على غيرهم، إنهم ليسوا بدعا فى الحياة، حتى ينالوا كل شىء بلا مقابل :

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ (العنكبوت ٢ . ٣).

فهناك إذن قوانين تحكم البشر فى هذه الحياة، وعلى المسلمين أن يلتفتوا إليها، ومن هذه القوانين:

القانون الأول : أن عاقبة المكذبين واحدة على مدار التاريخ، فى الماضى والحاضر والمستقبل.

﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ..... ﴾ (الكهف ٥٩).

القانون الثانى : مداولة الأيام بين الناس، وهذا يعنى أن القوى اليوم ضعيف غدا، والعكس صحيح :

﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ... ﴾.

﴿ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ ... ﴾.

القانون الثالث : أن هناك ابتلاءات لابد أن يصاب بها المؤمنون :

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴾ (العنكبوت ٢).

وهذه الابتلاءات تؤدى إلى فرز المؤمنين من غيرهم، وإلى اختيار الله للشهداء من المؤمنين.

﴿ ... وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (آل عمران ١٤٠).

القانون الرابع : أن النصر فى النهاية من نصيب المؤمنين الصابرين، وأن المحق والإزالة من نصيب الكافرين المكذبين :

﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ﴾ .

﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ (آل عمران ١٤١).

القانون الخامس : وهو متعلق بالموت، فالموت والحياة بيد الله وحده :

﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا موجلاً . . . . ﴾ .

والموت له موعد لا يتغير، فلكل نفس أجل لا ريب فيه، وهذا الأجل لا يتقدم ولا يتأخر :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (الأعراف ٣٤).

كما أنه لا مكان يعصم من الموت :

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ . . . . ﴾ (النساء ٧٨).

﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ . . . . ﴾ (الجمعه ٨).

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (لقمان ٣٤).

وأيضا لا حال يعصم من الموت، فإذا كان الإنسان فى فراشه وجاء الأجل لجاءت الملائكة المكلفة بقبض الروح إلى فراشه :

﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ (آل عمران ١٥٤).

كما انه لا سبب محدد للموت، فكما نقول تعددت الأسباب والموت واحد :

﴿ الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(آل عمران ١٦٨).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(آل عمران ١٥٦).

هذه مجموعة من السنن الإلهية وهى تحكم حياة البشر فى كل زمان ومكان، لأنها

سنن لا تتغير أبدا وضعها الخالق، كما أن هذه السنن لا تجامل أحدا بدليل أن الله قال فى كتابه الكريم : (ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها).

والمسلمون بحاجة اليوم إلى فقه هذه السنن، إن معركتهم مع أعدائهم تحكمها سنن وقوانين ثابتة لا تتغير، والتضحيات التى يقدمونها فداء لدينهم وعقيدتهم ليسوا بدعا فيها وإنما سبقهم غيرهم إليها.

وليتذكر المسلمون أن رسول الله . صلى الله عليه وسلم . قد جرح فى إحدى المعارك وسال دمه الشريف دفاعا عن الحق... كما أن سبعين من الصحابة قتلوا فى معركة واحدة ومنهم حمزة عم النبى، وأن من أصحاب الرسول من مات على فراشه ومنهم من قتل، وأن شجرة الشهداء ستظل مثمرة إلى يوم الدين، وأن الشهادة شرف يشرف الله به من يشاء :

﴿ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾(آل عمران ١٤٠).





متى نصر الله ؟



يقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (البقرة ٢١٤).

متى نصر الله ؟...

سؤال يدور الآن على ألسنة كثير من المسلمين، خصوصا بعد هذه الضربات المتلاحقة التى وجهت إلى الأمة على يد عدوها، وسقوط مئات بل آلاف الشهداء، حتى أصبح الدم العربى بلا ثمن، بالإضافة إلى استعلاء الكيان الصهيونى المؤيد بالغطرسة الأمريكية التى أصبحت تحتقر العرب وتوجه لهم كل حين الصفعة تلو الأخرى.

فى مثل هذه الظروف يتساءل الناس :

متى نصر الله ؟

والقرآن قدم الإجابة عن السؤال بطريقة سهلة وغير متوقعة فقال الله تعالي :

﴿ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾.

ولم يقل مثلا :

قل إن نصر الله قريب

وإنما قال :

﴿ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾.

فبدأ الجواب بأداة تنبيه وهى الا اى : انتبه يا من تسأل متى نصر الله ؟

فإن نصر الله قريب، ولم يقل أيضا مباشرة :

إن نصر الله آت.

وإنما قال : قريب، اى أقرب مما تتصور.

فإن نصر الله ليس آتيا فقط وإنما هو قريب، مثلما قال الله فى آية أخرى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ... ﴾ (البقرة ١٨٦).

ولم يقل : فقل إنى قريب، كى يدل على شدة الأقتراب.

وهكذا يكون نصر الله قريبا من المؤمنين إذا انطبقت عليهم سنة الله .

وسنة الله في المؤمنين فى كل زمان ان يرسل إليهم الشدائد ويبتليهم بالمصائب، وأن يزلزلهم بمعني أن تضطرب أحوالهم اضطرابا شديدا، فلا يعرفون ماذا يصنعون، حتى يصلوا إلى اقصى درجات الشدائد والأهوال، فإذا وصلوا إلى هذه الحال، وأخذوا بالأسباب وفعلوا كل ما يستطيعون، ونفد كل ما فى ايديهم من سبل وقوة وعتاد، طلبوا النصر من الله فقالوا :

متى نصر الله؟....

فنصر الله قريب، ومدخر لمن يستحقه، والمؤمنون لا يستحقون النصر الإلهى إلا إذا ذاقوا الشدائد والأهوال على يد أعدائهم، فتظل الشدائد مسلطة عليهم حتى تنال منهم، وتزلزل كيانهم وعليهم أمام هذه الشدائد الأخذ بالأسباب أولا لتحقق النصر الإلهي، هذه سنة الله فى تحقيق النصر للمؤمنين، لابد أن تصيبهم الشدائد والكروب.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة ٢١٤).

والبأساء اي الشدة التى تصيب الإنسان فى غير جسمه، كان يخرج من داره، او يترك أرضه، والضراء اى الشدة التى تصيب الإنسان فى بدنه بالجرح والقتل، وزلزلوا أى اهتزوا من الداخل واضطربت حالهم، حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه، والرسول هنا هو كل رسول من عند الله، والذين آمنوا معه هم كل من تحمل معه الشدائد والأهوال فى سبيل الحق، ويصور القرآن حالة أشد من ذلك، وهى حالة الرسل الذين يئسوا من ان يستجيب لهم أحد كما يقول القرآن :

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (يوسف ١١٠).

فهذا القانون ينطبق ايضا على الرسل، إذ لا يأتيهم النصر من الله إلا بعد أن يبلغ بهم الألم والإيذاء كل مبلغ حتى يصلوا إلى حالة من اليأس من أن يستجيب لدعوتهم احد، هنا يأتى نصر الله لرسله وللمؤمنين، وهذا ما حدث لنوح وقومه، ولهود وقومه، وصالح، وغيرهم من الرسل.

وهذا النصر الذى يأتى للمؤمنين، ويأتى للرسل متطابق مع سنة الله تعالي فى نصر المؤمنين كما يقول القرآن :

﴿ .... وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الروم ٤٧).

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ (الصافات ١٧١ . ١٧٣).

وقد أشار القرآن إلى أسباب نصر الله، او السنن الإلهية لنصر المؤمنين فى آيات كثيرة ومن هذه الأسباب :

١ . اليقين بأن دخول الجنة يبدأ بطريق به كثير من الاختبارات والابتلاء بالشدائد والكروب والأهوال:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾(البقرة ٢١٤).

وايضا يقول الله تعالى :

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ (العنكبوت ٢).

٢ . الأخذ بالأسباب والاستعداد التام للعدو :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (الأنفال ٦٠).

معنى ذلك ان نأخذ بأسباب النصر ونعد اقصى ما نستطيع من قوة سواء كانت قوة علمية، أم قوة اقتصادية، أم قوة اجتماعية، ام قوة عسكرية، حينئذ حتى ولو كان عدونا اقوى منا عسكريا، يتدخل الله ويجئ نصر الله (الا إن نصر الله قريب).

٣ . هناك سبب هام جدا للنصر اشار إليه عمر بن الخطاب فى رسالته إلى سعد بن ابى وقاص التى جاء فيها :

(إنى آمرك ومن معك من جند بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله افضل العدة على العدو، واقوى المكيدة فى الحرب، وآمرك ومن معك ان تكونوا اشد احتراسا من المعاصى منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش اخوف عليهم من عدوهم وإنما ينصر المسلمون بطاعتهم لله ومعصية عدوهم له، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عددنا

ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة..

٤ . من أسباب النصر أيضا الصبر والثبات على الشدائد والأهوال وعدم التحول وترك المعركة:

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (الأنعام ٣٤).

فقد تعرض الرسل للاضطهاد والإيذاء والتكذيب من أقوامهم وكان شأنهم هو الصبر والتحمل والثبات حتى جاءهم نصر الله، ولقد وعد الله المؤمنين بمثل ما وعد الرسل فقال :

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ (غافر ٥١).

إذا طبقنا هذه السنن على واقع المسلمين الآن، فهل بوسعنا أن نقول :

إننا سنحقق النصر.

أوبصيغة أخرى :

هل نستحق نصر الله ؟

إنه سؤال يحتاج إلى وقفة صريحة مع النفس للإجابة عنه.

يقول الشيخ رشيد رضا :

(ولعمرى إن المسلمين لم يصلوا فى تلك الشدة إلى تلك النهاية التى قال فيها أولئك الرسل ما قالوا، ولقد قتل بعض النبيين بضروب من القتل، حتى ورد أن منهم من نشر بالمنشار وهو حى، ناهيك عن أصحاب الأخدود الذين أحرقوا المؤمنين فيه بالنار أحياء. كذلك فإن المسلمين اليوم قد انتشرت منهم المعاصى والمنكرات، وتساووا معدوهم فى ذلك بل زادوا عليه، فكيف يتحقق لهم النصر؟ كذلك فإن المسلمين قصروا فى الأخذ بأسباب القوة وأسباب الحذر، وصدقوا عدوهم، وأيضا يتعرض المسلمون اليوم للإيذاء على يد المسلمين أكثر من يد أعدائهم، فكيف ينصرهم الله؟.

إن هناك قوانين وسننا يتحقق بها النصر الإلهي، إذا أخذ بها المسلمون تحقق لهم نصر الله، وكتب الله لهم العزة، وإذا لم يأخذوا بها خذلهم الله وأذلهم لأنهم لا يستحقون نصره.

لقد أسفرت الأحداث الدامية التى وقعت خلال الفترة الماضية عن حقيقة مرة هى أن العرب والمسلمين لم يعد لهم إلا خيار بين أمرين :

إما الاستسلام للمخطط الأمريكى الإسرائيلى الواضح...

وإما المواجهة.

ولأن خيار الاستسلام غير مطروح وغير مقبول إطلاقا، فإن الخيار الثانى هو الخيار الوحيد أمامنا، أو هو واجب الساعة، وهذا الخيار يقتضى تعبئة كل طاقات الأمة لبناء قدراتها الذاتية لمواجهة الحاضر الصعب والمستقبل المخيف.

وعندما أقول المواجهة، فإن المواجهة لا تعنى الحرب. وإن جاز أن تكون الخيار الأخير. وإنما تعنى أن نشعر العدو بأننا موجودون.

وأننا قادرون على الفعل

قادرون على أن نعتمد على أنفسنا وإمكاناتنا.

فمنطق المواجهة يعنى أننى إذا كنت فى حاجة إليك فأنت أيضا فى حاجة إلى، فإذا استغنيت عنى فأنا أيضا مستعد للاستغناء عنك، منطق المواجهة يفرض على أعدائنا أن يعملوا لنا حسابا قبل الإقدام على أى خطوة متهورة.

والمواجهة تكون بالصبر.

بالعلم

بالعمل.... ..... .

وبالإبداع.

كذلك فالمواجهة لا تكون شعارا وإنما هى موقف، وأول علامات المواجهة اليوم هى أن نغضب ولكن بطريقة إيجابية، بحيث يصبح الغضب نورا ينير الطريق لا نارا تحرق، إن الغضب الإيجابى ما هو إلا عملية توجيه الطاقات داخلنا التوجيه السليم، الذى يؤدى إلى زيادة قوتنا العلمية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية والعسكرية إلى الحد الذى يجبر عدونا على احترامنا، وإذا جاز لنا أن نحدد على سبيل المثال بعض الأمور والتصرفات التى نعتبرها من مظاهر الغضب :

١. إن إتقان العمل فى أى موقع من مواقع العمل هو تعبير إيجابى عن الغضب.

٢ . إن مقاطعة السلع والبضائع الأمريكية والإسرائيلية هو تعبير إيجابى عن الغضب.

٣ . إن رفض السطحية والتفاهة فى حياتنا هو تعبير إيجابى عن الغضب.

٤ . إن إصلاح النفس والبيت، ومكان العمل تعبير إيجابى عن الغضب.

٥ . إن تشجيع الإبداع العلمى والابتكار هو تعبير إيجابى عن الغضب.

٦ . إن رعاية الموهوبين فى كل مكان وفتح أبواب العلم لهم هو تعبير إيجابى عن الغضب.

٧ . إن احترام مشاعر الناس وحرياتهم وحقوقهم وعدم إيذائهم تعبير إيجابى عن الغضب.

٨ . إن إصلاح مؤسساتنا العلمية والتعليمية تعبير إيجابى عن الغضب.

٩ . إن احترام قواعد النظام والنظافة وإشارات المرور تعبير إيجابى عن الغضب.

١٠ . إن مد يد العون بكل الطرق المتاحة لإخواننا فى فلسطين والعراق هو تعبير إيجابى عن الغضب.

إذا كان من واجبنا اليوم أن نغضب، فمن واجبنا كذلك أن نحول الغضب إلى أفعال لا إلى صيحات كما أن علينا أن نواجه مسئولياتنا بصيحة المستيقظ لا فزعة النائم.



كيف نتعامل مع الأحداث؟

يقول الله تعالى فى كتابه الكريم:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ④ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ⑤ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (القصص ٤، ٦).

ماذا يحدث عندما يعلو الشر وينتفخ الباطل، ولا يجد من يقاومه من البشر؟...

ماذا يحدث عندما يكثر الظلم ويعتدى على الحرمات، وتغتصب الأرض وينتهك العرض؟..

ماذا يحدث إذا عجز الناس عن مواجهة الباطل وجنوده؟.

هل يترك الله تعالى الظالمين يعيشون فى الأرض فسادا، فيقتلون من يريدون، ويعذبون من يريدون، أم ماذا؟...

قبل الإجابة لابد أن نعلم أمرا هاما وهو أن شأن المسلم، وهو يتعامل مع الأحداث التى تقع له ولغيره، أن يحتكم إلى كتاب الله الذى جاء بالحقيقة المطلقة فى كل شيء بحيث يجد المسلم فى القرآن الإجابة عن كل ما يتعرض له أو يواجهه من أحداث أو مشكلات فإذا عرضنا هذه الأسئلة على القرآن فماذا نجد؟

بالعودة إلى الآيات السابقة نجدها تقرر ثلاثة أمور :

الأمر الأول : إن فرعون وهو رمز الشر والطغيان فى الأرض قد تجاوز كل الحدود وعلا فى الأرض والعلو، وهو رمز التكبر والتجبر فى الأرض، ويقال لكل متجبر إنه قد علا وتعظم.

ويفسر القرآن هذا العلو بأن فرعون حينما أراد أن يحفظ ملكه قام :

. يجعل أهلها شيعا، والمقصود هنا أهل مصر حيث كان يعيش بنو إسرائيل فجعلهم فرعون جماعات صغيرة متفرقة.

. كان فرعون يستضعف طائفة منهم فكان يذبح أبناءهم ويستحيى نسائهم، وكان من المفسدين.

الأمر الثانى : أنه فى مقابل إرادة فرعون جاءت إرادة الله: (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض، ونجعلهم أئمة، ونجعلهم الوارثين، ونمكن لهم فى الأرض).

الأمر الثالث : أن الله تعالى يريد أن يرى فرعون وهامان، وجنودهما ما كانوا يخشونه ويحذرون من الوقوع فيه.

وهكذا نجد أنفسنا أمام قوتين :

١ . قوة فرعون المنتفشة التى تبدو للناس أنها قادرة على الكثير.

٢ . والقوة الثانية هي قوة الله عز وجل التى تتهاوى أمامها القوى التى يخاف الناس منها... ولكن ما الذى نستخلصه من هذه الأمور، إذا تدبرنا الآيات فإننا نجد الآتى :

أولا : إن الشر حين يستفحل ويتجبر فإنه يحمل سبب هلاكه فى ذاته، وإن الظالم حين يتجاوز الحد فإنه يحفر قبره بيده :

﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (هود ١٠٢).

ثانيا : إن الذين استضعفوا فى الأرض قد وعدوا بأشياء كثيرة وهى :

١ . أن الله سيجعلهم أئمة، لا عبيدا ولا تابعين.

٢ . أن الله سيمكن لهم فى الأرض، وسيجعلهم أقوياء ويحقق ما كان فرعون وهامان وجنودهما يخشون من وقوعه.

لكن هذه الإمامة وهذا التمكين لن يستحقهما المستضعفون إلا بالإيمان والصلاح، لأن الله لا يجامل أحدا، فالأرض ملك لله، يمنحها الصالح المصلح، ويمنعها الفاسد المفسد.

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (الأنبياء ١٠٥).

كيف ننظر إلى الأحداث المعاصرة؟

بعد الذى نشر عن فضائح التعذيب وفظائعه التى جرت لإخواننا وأهلنا فى العراق، على يد قوات الاحتلال والغزو الأمريكى البريطانى، فقد أصيب الكثيرون منا بالإحباط واليأس، واستشعروا العجز والمهانة، وبعضهم لم يذق طعم الطعام أو النوم بعد الذى رآه بعينيه، إلى غير ذلك من ردود الأفعال التى نعرفها جميعا، وقد ذكرتنى ردود الفعل الحالية بردود فعل سابقة لحودات مماثلة، بيد أننا سريعا ما ننسى وننشغل ونغيب عن الوعى ولا نفيق إلا على لطمة أخرى توجه إلينا، وفى كل مرة يحدث ذلك لا يزيد رد الفعل عما أشرت إليه منذ قليل.

واعتقد انه قد حان الوقت لنعيد النظر فى أسلوب تعاملنا مع الأحداث، ولو على الأقل من باب إرباك العدو الذى بات يتوقع ردود افعالنا، ومن ثم يوجه إلينا الضربة تلو الأخرى وهو آمن مطمئن إلى أننا لن نغادر منطقة رد الفعل إلى الفعل.

إلا أننا إذا أردنا أن نحدد الأسلوب الأمثل فى التعامل مع هذه الأحداث أو ما يشابهها فإننى أذكر الأمور الآتية :

الأمر الأول : أن ننظر إلى الأحداث نظرة شاملة، فلا نظهر اهتماما ببعضها، ونهمل البعض الآخر، بمعنى أن ما حدث فى سجن (ابو غريب) كان فظيعا، ولكن الأفظع منه هو أن يضيع بلد عربى بالكامل وتغتصب ثرواته، ونحن شهود، إن هذا تناقض صارخ لا يقبله عقل أو منطق فالمشكلة أننا ننظر إلى الأحداث بطريقة جزئية لا شاملة، ولذلك مررنا الحدث الأفظع وغضبنا لما هو اقل فظاعة.

الأمر الثانى : الا نصاب بالصمم العقلى امام اى إصابة تلحق بنا كأفراد أو مجتمعات والقرآن يلفت نظرنا إلى ضرورة تحليل الأسباب التى أدت إلى ما حدث.

وبداية الطريق لتحليل الحدث تحليلا صحيحا أن نتساءل :

لماذا حدث ما حدث؟ ومن المسئول ؟

وان نبدأ بأنفسنا فى البحث عن أسباب ما حدث :

﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (آل عمران ١٦٥).

اى عند البحث ستجدون أنكم السبب فيما جرى، وليس عدوكم هو السبب.

الأمر الثالث : الا ندع اليأس والإحباط ينال من عزيمتنا، فإن اسوا ما تبتلى به أمة هو ان تصاب باليأس والإحباط :

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (يوسف ٨٧).

فلماذا نيأس نحن ولا ييأسون هم رغم اننا على الحق وهم على الباطل ؟

إن الحياة صراع وفى الصراع غالب ومغلوب، وإذا كان اليوم لهم فإن الغد سيكون لنا بإذن الله:

﴿ ...وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ... ﴾ (آل عمران ١٤٠).

الأمر الرابع : أن يقوم كل مسلم بواجبه الذى يمليه عليه ضميره الإسلامى وانتماؤه لهذه الأمة، فلا ينتظر تكليفا من احد، إذ كيف تنتصر أمة لا يقوم افرادها بواجبهم فى امور الدين والدنيا...؟

إن أداء الواجب هو المقدمة الأولى لتحقيق النصر، ولابد ان يكون أداء الواجب أمرا يستشعره الفرد من داخل نفسه، وينتظر الجزاء والأجر عليه من الله تعالى قبل الناس، ولا يستحقرن احد جهده، فقد دعانا الله تعالى إلى عدم الزهد فى أى جهد :

﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) ﴾ (التوبة ١٢٠ ، ١٢١).

الأمر الخامس : ان نستصحب السنن التى تحكم الكون وتحكم البشر على هذه الأرض وفى هذا يقول الله تعالي فى كتابه الكريم :

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (آل عمران ١٣٧)

ومن سنن الله :

.ان النصر مع الصبر.

.أن الله ينصر من ينصره.

.أن الفرج بعد الشدة.

.أن الله ينصر المؤمنين.

.أن اليسر بعد العسر.

.أن جند الله هم الغالبون.

ومن سنن الله التى ذكرها فى القرآن الكريم :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ (آل عمران ١٤٦).

بمثل هذه الأمور نواجه الأحداث التى تقع لنا ولإخواننا من المسلمين فى أى مكان على الأرض، إذا أردنا أن يغير الله ما بنا، ولن يغير الله ما بنا حتى نغير نحن ما بأنفسنا وذلك طبقا لسنة التغيير.

إن الأحداث التى وقعت مؤخرا فى العراق تفرض السؤال التالي :

من الذى كشف عورة الآخر ؟ إن النظرة السطحية تقول إن الجنود الأمريكيين هم الذين كشفوا عورة الأسرى العراقيين فى المعتقلات الأمريكية بالعراق، ولكن النظرة العميقة تقول العكس وهو أن المقاومة العراقية الباسلة هى التى كشفت عورة الاحتلال، بل كشفت سقوط الحضارة الغربية بأسرها لأن الذى حدث هو أبشع انتهاك لحقوق الإنسان الذى كانت تدافع عنه أمريكا وأوروبا.

لم يعد هناك شك فى أن مسئوليتنا قد تضاعفت بعد هذا! الذى رأيناه من صور التعذيب، إذ لم يكن المقصود هو التعذيب فى حد ذاته، وإنما هو الإذلال، والإذلال كان رسالة موجهة للكل، فهل استوعبنا الدرس ؟

ماذا ننتظر؟ .. ماذا ننتظر لنتحرك؟ ألا يكفينا ما نراه ؟

إن من صور سطحية المسلمين وعدم تحليلهم ما حولهم من أحداث، قصة فى أيام سقوط الخلافة العباسية على يد التتار فى بغداد، حينما أراد جندى تترى قتل مسلم، ولكن أعوزة السلاح، فما كان منه إلا أن أصطحبه للذبح، وقال له : ابق هنا ولا تتحرك،

ثم غاب عنه لحظة وعاد بيده السلاح فذبحه!! لهذه الدرجة انعدم التفكير والإرادة من المسلمين؟.

وهناك قصة أخرى وهى ان جنديا مسلما دخل مكانا فيه كثير من الناس فبدأ بقتلهم كيفما اتفق وهو واحد وهم كثير، ولكنهم لا يفعلون شيئا سوى الاستسلام!! حتى جاء لأحدهم فكرة أن قاتلهم ليس أكثر من فتاة ضعيفة، فهجموا عليها فوجدوها فتاة فعلا فقتلوها، هكذا ألقى الله الرعب فى نفوس المسلمين من أعدائهم.

أما السؤال عن :

ماذا نفعل ؟

فلم يعد له محل.

إذ ماذا يسع من يشاهد حريقا إلا إن يسارع إلى إطفائه؟

أو من يشاهد حفرة إلا أن يسارع إلى ردمها...؟

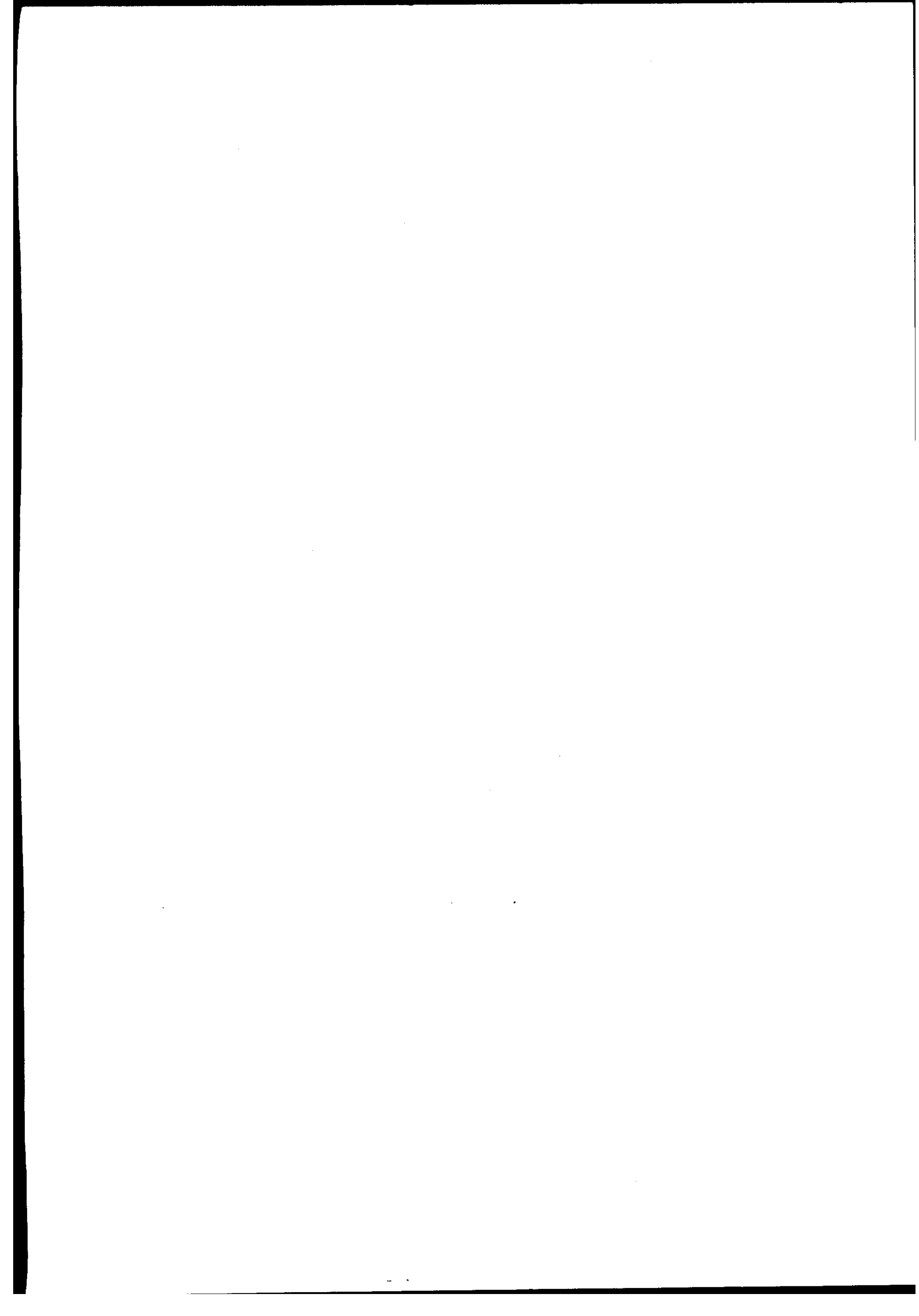
فى أوقات الخطر لا استئذان وإنما عمل وإخلاص.

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (العنكبوت ٦٩).

❖ ❖ ❖



القضاء والقدر (١)



يقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

﴿ما أصابَ من مُصيبةٍ في الأرضِ ولا في أنفسكُمْ إلاَّ في كتابٍ مّن قَبْلِ أن نَّبْرَأَهَا إنَّ ذَلكَ علَى اللَّه يَسيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾(الحديد ٢٢ ، ٢٣).

فى الحياة مواقف كثيرة، يتعرض لها الإنسان ويتمنى فى ذات نفسه، ان يكون قد فعل فيها شيئا لم يفعله، أو لم يقل شيئا كان . من الأحسن . الا يقوله، أو ان يكون قد تصرف . فى موضوع ما . بطريقة لم تعجبه، ومن ثم نسمع ونرى من يقول : لو أنى قلت كذا وكذا لكان كذا وكذا، ولو انى ذهبت إلى مكان كذا، ما حدث لى كذا وكذا، وهكذا....

مواقف عديدة نسمع فيها هذه العبارة من غيرنا أو نقولها بيننا وبين انفسنا.

والسؤال الآن :

هل من الحكمة أو الخير ان نفكر بهذه الطريقة؟

ماذا نفعل إزاء المواقف التى نتعرض لها وتأتى نتائجها عكس ما كنا نرجو ونرغب؟

هل نصرف الجهد والطاقة فى البكاء على ما فات؟

أم نلم شملنا ونرنو بأبصارنا صوب المستقبل؟

قبل الإجابة عن هذه التساؤلات احب ان اثبت امرين :

أولهما : يتعلق بطبيعة الإنسان.

ثانيهما : يتعلق بطبيعة الحياة.

أما ما يتعلق بطبيعة الإنسان :

فالإنسان كائن محدود العلم، محدود الإرادة، ومحدودية العلم تعنى أن الإنسان مهما أوتى من علم، فإن معرفته بعواقب الأمور تظل ناقصة، لأنه بسبب محدودية العلم لا يرى إلا وجها واحدا من الصورة، وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (الإسراء ٨٥).

والقليل هنا بالقياس إلى ما عند الله من علم، فهو وحده الذى يتميز بالعلم الكثير الذى لا حدود له، وسيظل علم الإنسان قليلا حتى يأتى أمر الله :

﴿ ... حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس... ﴾ (يونس ٢٤).

اما محدودية الإرادة فتعنى أن الإنسان كائن ضعيف، ومن علامات ضعفه أنه يستسلم بسرعة لما يصيبه، فلا يصبر على ما اصابه، وإنما يشكو منه ويكثر من الشكوى، ولقد صور الله تعالى هذه الطبيعة فى قوله :

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ (المعارج ١٩ . ٢١).

لاحظ خلق هلوعا هى صيغة مبالغة اى كثير الهلع، اى انه لا يصبر على اى شىء وهذا الهلع يحمله على أن يتصور اللحظة الحاضرة كأنها مؤبدة، أو كأنها العمر كله.

لاحظ ايضا الكلمات الأخرى: هلوع . جزوع . منوع، الكلمات ترسم سمات الإنسان وملامحه حتى يبدو وكأنك تراه وقد أصابه الهلع فى الحالتين:

هلوع فى الشر، وهلوع فى الخير..

بالطبع هذا هو الإنسان قبل أن يدخل الإيمان قلبه، فإذا دخل الإيمان قلبه تغيرت ملامحه، وتغيرت الصورة تماما فنرى الإنسان داخليا مطمئنا ثابتا.

وأما ما يتعلق بطبيعة الحياة :

فإن الملاحظة العادية للحياة تكشف لنا عن طبيعتها وهى انها تأبى ان تدوم على حال واحدة، ومن ثم تنقلب بنا من النقيض إلى النقيض :

من الصحة إلى المرض أو العكس

من الفقر إلى الغنى أو العكس

من القوة إلى الضعف أو العكس:

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ (الروم ٥٤).

وملاحظة عدم دوام الحياة على حال واحدة يؤيدها القرآن الكريم فى قوله تعالى:

﴿ . . .وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ. . .﴾ (آل عمران ١٤٠).

وهذه الطبيعة تقتضى الا يدوم لها الم أو لذة، أو سعادة أو شقاء.

وإذا كان الإنسان محدود العلم والإرادة، وكانت الحياة متقلبة بنا على هذا النحو، فكيف إذن نواجه المواقف التى تكون نتيجتها عكس ما كنا نرجو ونرغب؟

هل كما قلنا نصرف جهدنا على البكاء على ما فات، أم نتجه صوب المستقبل؟

لقد عالج الإسلام هذه المسألة على مستويين :

المستوى النظرى، والمستوى العملى.

أما على المستوى النظرى :

فالقرآن يدعونا إلى الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره، حلوه ومره على أساس انه جزء من الإيمان بالله تعالى، ويؤكد ان كل ما يصيب الإنسان فى هذه الحياة هو أمر مقدر ومعلوم عند الله، وإنما ينكشف للإنسان شيئا فشيئا.

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (الحديد ٢٢ . ٢٣).

وفى موضع آخر يبين أن ما اصاب الإنسان هو ما قدره الله له :

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (التوبة ٥١).

ومادام قد كتبه لنا فإذن هو الخير، وإن لم يظهر على ذلك.

وأما على المستوى العملى او التطبيقى :

فإن القرآن يذكر اقوال ضعاف الإيمان ويرد عليها فى الآية :

﴿ . . . يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ. . .﴾ (آل عمران ١٥٤).

ثم يحذر القرآن المؤمنين آن يفعلوا مثلما فعل غيرهم:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (آل عمران ١٥٦).

إن كلمة لو هنا لن تفيد فى شىء، لأنهم حتى ولو لم يشتركوا فى القتال مع رسول

الله فإن الموت كان سيلحق بهم، بل ولذهب كل واحد منهم إلى مضجعه الذى سيموت فيه لأن أمر الموت والحياة بيد الله وحده.

ومن القصص المفيد فى هذا الشأن ما هو معروف بقصة طاعون عمواس، وهى بلدة بالشام.

فقد كان عمر بن الخطاب فى رحلة إلى الشام، يتفقد أحوال الجند، فعلم أن الطاعون انتشر فى عمواس هذه، فأمر الجند بالانصراف عنها.

فقال له أبو عبيدة بن الجراح :

أتفر من قدر الله ؟

فقال عمر :

لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، افر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كان لك إبل ترعاها فى واد مجدب، ألست ترعاها بقدر الله؟

قال :

بلى...

قال عمر :

ولو كان لك إبل ترعاها فى واد خصيب، ألست ترعاها بقدر الله؟

قال أبو عبيدة :

بلى....

قال عمر :

كذلك...

ومعنى ذلك انه إذا كانت الإصابة بالطاعون قدرا، فإن النجاة منه قدر كذلك، فنحن نفر من قدر الله إلى قدر الله.

فالتسليم بالقدر إذن لا يعنى القعود والعجز عن تغييره، وإنما يعنى أن نأخذ بأسباب تغيير هذا القدر فإذا نجحنا كان ذلك بقدر الله، وإذا أخفقنا كان ذلك أيضا بقدر الله.

إن المرض قدر، لكن الاستشفاء منه، وطلب الدواء قدر كذلك.

فإذا كتب الله لنا الشفاء فإنما يكون بقدر الله، وإذا لم يكتب لنا الشفاء، فإنما يكون

ذلك أيضا بقدر الله، فالتسليم بالقدر لا يتعارض مع تغيير القدر، أو مع الأخذ بأسباب تغيير هذا القدر، وهذا هو التوازن العجيب بين الاعتماد على المقادير وحدها أو الاعتماد على الأسباب البشرية وحدها.

وعلى ما سبق...

فإن من الحكمة الا نبكى على ما فات، لأنه لا جدوى من ذلك.

ويحكى الكاتب (ديل كارينجى) فى كتابه (دع القلق وابدأ الحياة) :

إن مدرس الصحة بكلية جورج واشنطن دخل الفصل ومعه زجاجة مملوءة باللبن، وبعد أن جلس برهة، نهض فجأة وأطاح بزجاجة اللبن فوقعت على الأرض، وهنا صاح الطلاب فقال لهم :

لا يبك أحدكم على اللبن المراق.

ثم نادى على طلابه وقال لهم : استوعبوا هذا الدرس مدى الحياة.

لقد ذهب اللبن حينما وقع إلى غير رجعة، ومهما حاولت أن تستعيده مرة أخرى، فلن تفلح. لقد فات الوقت، وكل ما تستطيع أن تفعله هو أن تمحو أثر ما حدث، وتعود إلى العمل بهمة ونشاط.

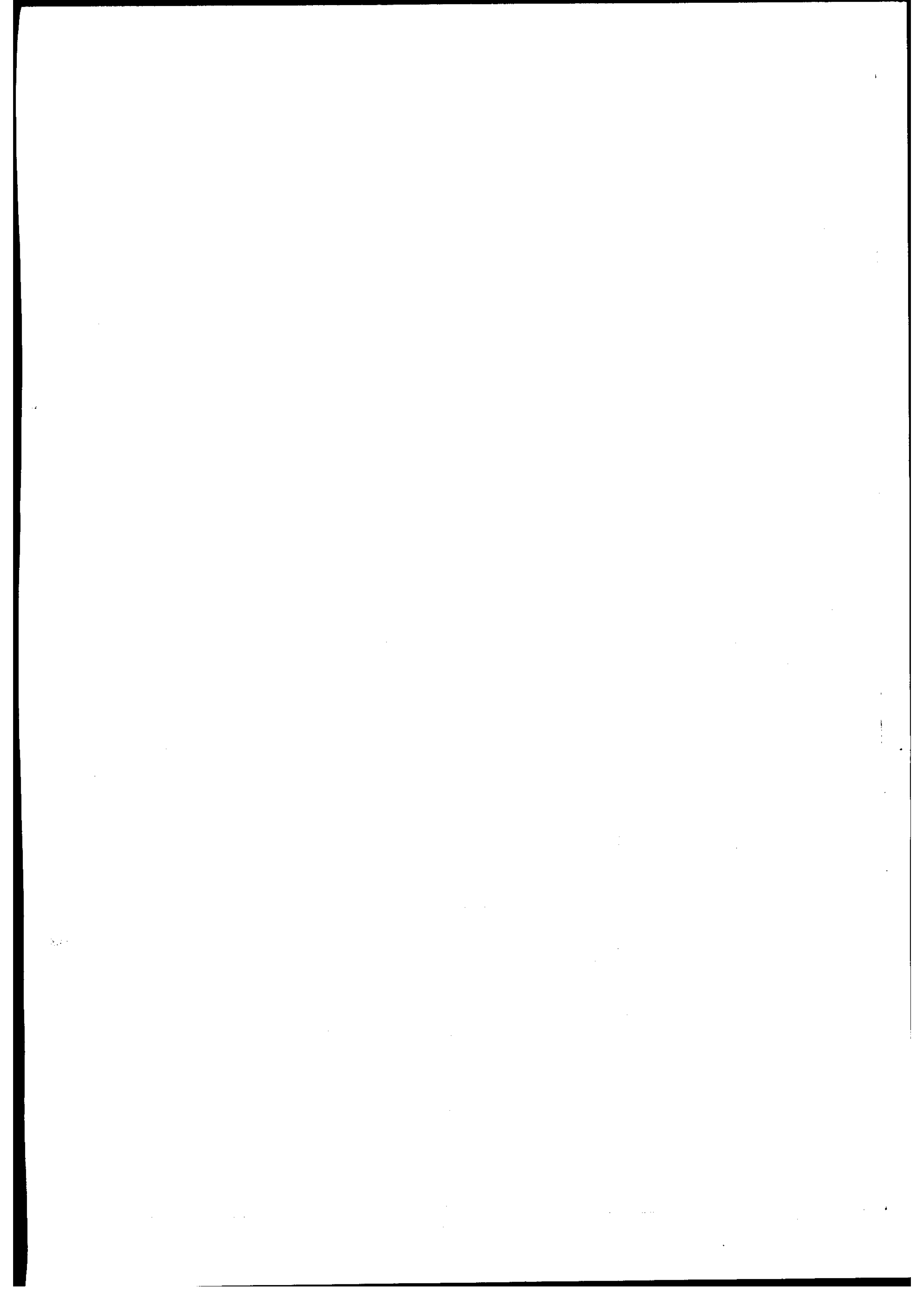
وهذا بالضبط ما عناه النبى . صلى الله عليه وسلم . فى حديثه

(المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شىء، فلا تقل لو أنى فعلت كذا وكذا، لكان كذا وكذا، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان).

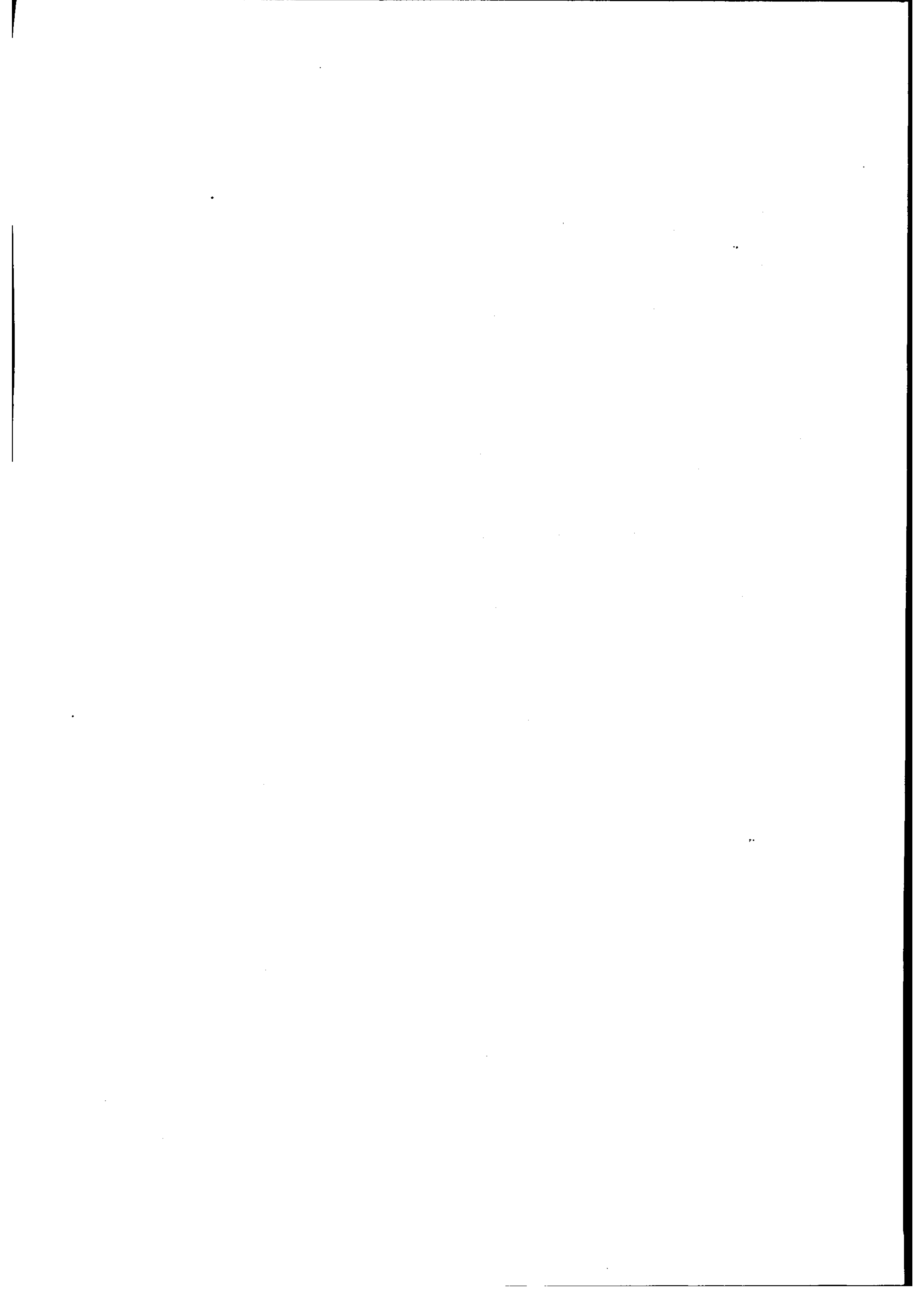
الدرس العلمى المستفاد هو أن نربى أنفسنا وأولادنا على النظر إلى الأمام والتطلع إلى الغد، وصناعة المستقبل، بل التحكم فيه، وهذا كله لن يتحقق ونحن مشدودو العقل والبصر إلى ما مضى من أيامنا، وإنما بالانصراف الجاد إلى المستقبل، والسعى إلى تغيير القدر بالقدر، فنفر من قدر إلى قدر.

فلنكف عن الشكوى والضجر والبكاء على اللبن المسكوب، وحان الوقت لإصلاح ما كسبته أيدينا، ولنكف عن كلمة (لو) حتى لا نلقى بأنفسنا فى غيابات الجب، فيلتقطنا الشيطان، أو تخطفنا الطير، أو تهوى بنا الريح فى مكان سحيق.





القضاء والقدر (٢)



يقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (الحديد ٢٢ . ٢٣).

إذا وجد الإنسان خطرا ما، فهل يجب عليه ان يقتحم هذا الخطر على أساس ان الأمور كلها تجرى بقدر الله وإرادته، أم يجب عليه ان يتجنب الخطر بكل ما اوتى من قدرة، على اساس انه مكلف شرعا بأن يحافظ على نفسه ولا يلقى بها إلى التهلكة.

ولنضرب مثلا واقعيا :

إذا كنت تسير فى طريق وعلمت ان به خطراً ما سيواجهك، هل من الأفضل ان تستمر فى السير فى هذا الطريق؟ أم تحاول أن تبحث عن طريق آخر لتلافى الخطر الموجود؟...

عندى فى هذه القضية إجابتان، ولكن قبل ذلك ادعوكم إلى تدبر هذه القصة فقد روى البخارى فى صحيحه . بسنده . عن ابن عباس . رضى الله عنهما :

(أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ. منطقة قريبة من تبوك فى شمال شبه الجزيرة) لقيه أمراء الأجناد . قادة الجيوش الإسلامية التى ذهبت لفتح الشام . أبو عبيدة بن الجراح، وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص وغيرهم، فأخبروه بأن الوباء (الطاعون) قد وقع بأرض الشام).

قال ابن عباس :

فقال عمر :

ادع لى المهاجرين الأولين.

فدعاهم فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع فى الشام، فاختلفوا :

فقال بعضهم :

قد خرجنا لأمر ولا نرى أن نرجع عنه.

وقال بعضهم :

معك بقية الناس وأصحاب رسول الله . صلى الله عليه وسلم . ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء.

فقال عمر :

ارتفعوا عنى.

ثم قال :

ادع لى الأنصار.

فدعوتهم فاستشارهم، فسلكوا سبيل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم.

فقال :

ارتفعوا عنى.

ثم قال : ادع لى من كان ها هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فدعوتهم، فلم يختلف عليه رجلان.

فقالوا :

نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء.

فقال عمر فى الناس :

إنى مصبح على ظهر فأصبحوا عليه.

(يعنى ذلك أنه أخذ القرار بالعودة وعدم دخول الشام).

فقال أبو عبيدة بن الجراح :

أفرار من قدر الله ؟

فقال عمر :

لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كانت لك

إبل هبطت بها واديا له عدوتان (العدوة هى المكان المرتفع) إحداهما خصيبة. والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصيبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله.

قال ابن عباس :

فجاء عبد الرحمن بن عوف . وكان متغيبا فى بعض حاجته .

فقال : إن عندى فى هذا علما، سمعت رسول الله . صلى الله عليه وسلم .

يقول : (إذا سمعتم به، بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه).

فحمد عمر الله ثم انصرف اى عاد إلى المدينة ولم يدخل الشام.

ويغض النظر عما فى هذه القصة من دروس وعبر، تتعلق أولا : بطريقة اتخاذ القرار فى المجتمع الإسلامى والدولة الإسلامية .والتى تمثلت فى الشورى والأخذ برأى الأغلبية.

وتتعلق ثانيا بمسئولية ولى الأمر فى تفقد رعيته وحرصه الشديد عليهم.

من منطلق أن كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته.

وتتعلق ثالثا باحترام رأى المعارضة، ومناقشته وإقناعه.

ويتجلى ذلك فى موقف أبى عبيدة عندما اعتبر قرار الرجوع فرارا من قدر الله، ونرى كيف ناقشه عمر مناقشة مقنعة.

بغض النظر عن هذا كله.

فإن محور القضية الآن هو :

أى الفريقين على صواب؟

الذين أشاروا بالرجوع حتى لا يصاب الناس بالطاعون؟

أم الذين أشاروا بالمضى قدما لتحقيق الأهداف التى خرجوا من أجلها؟...

الواقع أنه لا يمكن القول بأن أحد الفريقين كان على صواب والآخر على خطأ لعدة أسباب :

أولا : لأننا نتحدث عن رجال فى مجتمع الأسوة، محمد رسول الله والذين معه.

ثانيا : لأن تقدير الخطر ومدى حصوله أمر ذاتى، والأمور الذاتية قابلة لاختلاف الآراء.

ثالثا : أن الجمع بين الرايين أولى من الأخذ بواحد منهما، إذ هما متكاملان غير متعارضين، وهما يمثلان معا وجهة النظر الإسلامية، ولكن كيف ذلك؟

إن الذين أشاروا بعدم الرجوع إلى المدينة، وأنه لابد من المضى قدما إلى الشام رغم وجود الخطر غلب عليهم التوكل.

(والتوكل شعور يملأ القلب بالاعتماد المطلق على الله، وليس على إرادة الإنسان المحدودة) وهو صفة من صفات المؤمنين يحبها الله، والتوكل عزم بالقلب وتصديق بالجوارح :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران ١٥٩).

﴿ ... وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ (الطلاق ٣).

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (الأنفال ٢).

والتوكل بهذا مصدر ثقة وأمان لصاحبه.

ولكن التوكل لا يعنى إهدار الأخذ بالأسباب :

فمن أجل ذلك أجاب رسول الله . صلى الله عليه وسلم . الأعرابى الذى سأله : أتركها وأتوكل؟ أم أعقلها وأتوكل؟ (ويقصد ناقته).

فقال الرسول . صلى الله عليه وسلم:

اعقلها وتوكل.

فإذا خرج الإنسان متوكلا على الله لا ينبغى أن ينصرف عما عزم عليه، والذين أشاروا بالرجوع استندوا إلى الأخذ بالأسباب، وقد اتفق العقل والشرع على ضرورة ان

يحافظ الإنسان على نفسه، وألا يعرضها للمهالك، لأن المحافظة على النفس هى إحدى مقاصد الشريعة الخمس، ومن ثم إذا واجه الإنسان خطرا فعليه أن يتجنبه قدر المستطاع، فإن أدركه الخطر فهذا قدر الله، وإن لم يدركه فهذا أيضا قدر الله، فالإنسان مأمور شرعا بأن يفر من قدر الله (الهلاك) إلى قدر الله (النجاة).

فكلتا النظريتين إذن تعبر عن المنهج الإسلامى، فالإسلام يجمع بين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله، ويرفض الاكتفاء بأحدهما بديلا عن الآخر.

فالتوكل على الله بدون الأخذ بالأسباب يؤدى إلى التواكل والاستسلام والسلبية، وإسقاط الدور البشرى على الأرض.

والأخذ بالأسباب بدون التوكل على الله يؤدى إلى تأليه الأسباب من دون الله، وإذا امتلك الإنسان الأسباب فإنه ينسى رب الأسباب.

التوازن إذن يتطلب الجمع بين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله، وهذا التوازن العجيب لا يتحقق فى منهج آخر غير الإسلام، وهذه هى القاعدة، لكن يظل هناك مساحة للاستناء، ولذلك قال الفقهاء: القدوم جائز لمن غلب عليه التوكل، والانصراف عن الخطر رخصة، فالقدوم على الخطر من العزائم، والانصراف عنه رخصة، وإن الله يحب أن تؤتى رخصة كما يحب أن تؤتى عزائمه.

بقيت عندى نقطتان :

النقطة الأولى :

قول عمر : (نفر من قدر الله إلى قدر الله).

فنحن إذن أمام صورتين للقدر :

١ ـ صورة للقدر الابتلائى المستمدة من قوله تعالى :

﴿ ... وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (الأنبياء ٣٥).

فالابتلاء بالشر والخير قدر.

٢ ـ صورة للقدر التكليفى المستمد من قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ... ﴾ (النساء ٧١).

فنحن إذن نغالب القدر بالقدر، فإذا كان المرض قدرا ابتلائيا، فإن الاستشفاء من المرض قدر تكليفى، لقول الرسول . صلى الله عليه وسلم :

(تداووا عباد الله، فما أنزل الله من داء إلا وخلق له دواء...).

وإذا كان الضعف قدرا ابتلائيا، فإن الخروج من الضعف والاستضعاف هو قدر تكليفى، فعلينا إذن ندفع القدر بالقدر، وهذه نقطة فى غاية الأهمية لأننا توقفنا عند القدر الابتلائى فقط، ولم ننتبه إلى القدر التكليفى، مع أنه هو الذى يدخل فى نطاق قدرتنا واستطاعتنا، وانظر إلى قول الله تعالى :

﴿ .... إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ .... ﴾ (الرعد ١١).

فقد علق القدر الابتلائى على القدر التكليفى فى :

﴿ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾.

النقطة الثانية:

هى موقفنا تجاه الأخطار، وهنا نجد حالتين، الأولى قبل ان تقع الأخطار علينا أن نأخذ بأسباب الاستعداد لها، واجتنابها قدر المستطاع، حتى لا نلقى بأيدينا إلى التهلكة، أما فى حالة وقوع الأخطار فعلينا ان نحرص على ما ينفعنا، فلا نبكى على ما فات:

﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ... ﴾ (الحديد ٢٣).

حتى لا نفتح الباب لعمل الشيطان....





القضاء والقدر (٣)

يقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (الحديد ٢٢).

إذا كان كل شيء مقدرا ومكتوبا منذ الأزل.

فهل يعنى ذلك أن من العبث أن يسعى المرء إلى تغيير القدر المكتوب سواء على مستواه كفرد او كأمة؟

وهل الإيمان بالقضاء والقدر (وهو جزء رئيسى من عقيدة المسلم) جاء ليكون اداة للتبرير أم للتغيير؟

وأعنى بالتبرير هنا انه يستخدم للدفاع عن الخطأ والإهمال والظلم والطغيان والفساد، وأعنى بالتغيير ان يستخدم ليقاوم هذه الآفات التى تصيب الأفراد والمجتمعات.

وأخيرا..

ما السبب فى أن الإنسان يلقى باللوم على المقادير، ولا يلقى باللوم على نفسه؟

قبل الإجابة عن هذه الأسئلة، اشير إلى امرين مهمين :

أولا : إننى أعلم أنى أخوض فى منطقة صعبة للغاية، ومناط الصعوبة هنا هو هذه الاختلافات الكثيرة التى تتصل بالموضوع، إلى الدرجة التى يصعب فيها على الباحث ان يستخلص ما يريد إلا بشق الأنفس، ومن ثم فإنى أحاول الاقتراب من المسألة ولا أزعم أننى توصلت إلى القول الفصل فيها.

ثانيا : إن هذه القضية من القضايا التى يظلم بسببها الإسلام، حيث يتهم بأنه دين يدعو إلى الاستكانة والعبودية، وعدم مقاومة الظلم، ويستدل أعداء الإسلام على ذلك بأن المسلمين هم أقل الناس رغبة فى التغيير، وأنهم يتمسكون بحياتهم على أساس انها قدر مكتوب لا مجال للفكاك منه.

بعد هذا أعود إلى السؤال الأول :

هل من العبث أن يسعى المرء إلى تغيير القدر المكتوب عليه ؟

والجواب اننى لم أجد فى القرآن آية واحدة تقرر ذلك، وإنما وجدت العكس تماما..

فماذا وجدت؟

وجدت أن الله تعالى يحرضنا على تغيير القدر، فقد أمرنا الله تعالى أن ندعوه فقال:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ... ﴾ (غافر ٦٠).

وقال ايضا :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى ﴾ (البقرة ١٦٨).

ويبين لنا الرسول . صلى الله عليه وسلم :

(ان الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وأن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة).

وفى حديث آخر يقول :

(لا يرد القضاء إلا الدعاء).

وفى حديث ثالث :

(ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها ثلاث خصال : أن يعجل له دعوته، أن يدخر له من الخير مثلها، أن يصرف عنه من الشر مثلها.

قالوا : يا رسول الله إذن نكثر، قال الله أكثر.

والصحابة . وهم أعلم الأمة بالله ورسوله . أخذوا بهذا المنهج.

فقد كان عمر يستنصر بالدعاء على عدوه، وكان يقول لأصحابه :

(إنكم لا تنصرون بكثرة وإنما تنصرون من السماء).

وكان يقول :

(إنى لا أحمل هم الإجابة ولكن هم الدعاء، فإذا ألهمتم الدعاء فإن الإجابة معه).

وقد عرض لنا القرآن فى سورة الأنبياء عددا من صفوة خلق الله، أرادوا تغيير قدرهم بالدعاء إلى الله، فاستجاب الله لهم:

نبدأ بنوح عليه السلام :

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الأنبياء ٧٧).

وفى موضع آخر :

﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) ﴾ (الصافات ٧٥ . ٧٦).

وفى موضع ثالث :

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ (القمر ١٠ . ١٢).

وأيوب عليه السلام :

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ (٨٤) ﴾ (الأنبياء ٨٣ . ٨٤).

ونداء أيوب لربه ليس رفضا لما هو فيه، ولا عدم صبر على بلائه، وإنما يتجه إلى ربه طالبا منه الخير والرحمة، دون ان يحدد هو ما يريد، وإنما تأدبا مع الله يكتفى بالدعاء ويترك الإجابة لربه:

فكشفنا ما به من ضر اى عافيناه فى بدنه، وآتيناه اهله اى عوضناه عمن فقده منهم، ومثلهم معهم اى رزقه مثلهم.

ونبى الله يونس :

﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ

سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (الأنبياء ٨٧ . ٨٨).

وذا النون صاحب الحوت، لأن الحوت التقمه ثم نبذه.

وقصته فى ذلك انه أرسل إلى قرية فدعا اهلها إلى عبادة الله وحده، فاستعصوا عليه فضاق بهم صدرا، وغادرهم مغاضبا ولم يصبر على معاناة الدعوة معهم، ظانا ان الله لن يضيق عليه الأرض، وقاده غضبه إلى شاطىء البحر فوجد سفينة مشحونة فركب فيها، حتى إذا كانت فى وسط البحر ثقلت فقال ربانها لابد من إلقاء أحد ركابها، لينجو باقى من فيها، فاستهموا (عملوا بنظام القرعة) فجاء السهم على يونس فألقوه، أو القى هو بنفسه فالتقمه الحوت مضيقا عليه اشد الضيق.

فلما كان فى الظلمات، اى ظلمة جوف الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل، نادى.. فاستجاب الله لدعائه ونجاه من الغم.

وزكريا . وهو احد انبياء بنى إسرائيل البارزين .

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (الأنبياء ٨٩ . ٩٠).

لا تذرنى فردا اى بلا ذرية يقومون على هيكل العبادة فى بنى إسرائيل قبل مولد عيسى عليه السلام، واصلحنا له زوجه، لأنها كانت عقيما لا تنجب.

وفى موضع آخر :

﴿ كهيعص ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ ﴾ (مريم ١ . ٩).

وإنى خفت الموالى أى من يأتون بعدى، واجعله رب رضيا أى يرضى ويرضى، وينشر ظلال الرضا فيما حوله ومن حوله.

وفى سورة آل عمران :

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) ﴾ (آل عمران ٣٧ . ٣٨).

إذن فقد كان زكريا راضيا مستسلما لقدره لكنه لما رأى هذه الآية طمع فى ان يغير الله حاله فاستجاب الله له.

نلاحظ فى هذه النماذج الأربعة عبارة متكررة وهى (نادى ربه) أو (دعا ربه) وعبارة (فاستجبنا له).

تكررت هذه العبارات مع كل واحد منهم مما يعنى ان الأستجابة بتغيير القدر متوقفة على الدعاء، فالدعاء هو الاستعانة بالله لمغالبة القدر بالقدر، ثم لماذا كانت الإستجابة؟

إنها ليست من أجل الدعاء فقط، وإنما الدعاء مع العمل الصالح والطاعة :

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ (الأنبياء ٩٠).

فأسباب الاستجابة إذن :

. أنهم كانوا يسارعون فى الخيرات :

والخيرات هنا كلمة عامة تشمل الأقوال والأفعال والطاعات والقربات.

. ويدعوننا رغبا ورهبا:

أى يدعون الله رغبة فيما عنده، ورهبة مما عنده.

. وكانوا لنا خاشعين:

أى متواضعين مصدقين بما انزلنا، مؤمنين حقا.

لقد ضرب الله لن المثل بهؤلاء الصفوة فى سعيهم لتغيير القدر الذى أصابهم، ولم يكن فعلهم عبثا، وإنما حتى نتعلم نحن ان أهم أسباب تغيير القدر هو الدعاء والعمل الصالح.

قال ابن القيم :

(وقد دل العقل والنقل والفطرة، وتجارب الأمم على أن التقرب إلى رب العالمين، وطلب مرضاته، والبر والإحسان إلى خلقه، من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير).

وقال أيضا :

(ومن تفقه فى هذه المسألة. تغيير القدر بالدعاء والعمل الصالح. وتأملها حق التأمل انتفع بها غاية النفع، ولم يتكل على القدر جهلا منه وعجزا، فيكون توكله عجزا وعجزه توكلا، بل الفقيه كل الفقه الذى يرد القدر بالقدر، ويدفع القدر بالقدر، ويعارض القدر بالقدر، بل لا يمكن للإنسان أن يعيش إلا بذلك).





القضاء والقدر (٤)

يقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (الحديد ٢٢ ، ٢٣).

هل جاءت عقيدة القضاء والقدر لتكون أداة لتبرير الواقع أم لتغييره؟..

ولماذا يلقى الإنسان بالمسئولية على المقادير ولا يحب أن يتهم نفسه؟

قبل الإجابة أشير إلى مسألة مهمة، هى أن الدين بعناصره الثلاثة (العقائد والأخلاق والتشريعات) جاء لتغيير الواقع لا لتبريره.

﴿ الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (إبراهيم ١).

فالدين إذن جاء لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، أى لتغيير أحوالهم، والدين هنا هو الصورة الكاملة له، ولم تتحقق الصورة الكاملة للدين إلا فى الإسلام :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ (المائدة ٣).

إذن ليست عقيدة القضاء والقدر وحدها هى التى تدعو إلى التغيير وإنما كل عناصر الدين.

كيف إذن نجعل من عقيدة القضاء والقدر أداة للتغيير لا للتبرير؟

قبل الإجابة أحب أن أشير إلى نقطة مهمة وهى :

أن أى فكرة عظيمة يمكن أن تنجح على يد فئة من الناس، وتفشل على يد فئة أخرى، فإذا فشلت فإنها لا تكون السبب فى الفشل، وإنما الذين استخدموها هم السبب فى الفشل، وينطبق هذا القول على مسألة القضاء والقدر، بل على الإسلام كله، كيف ذلك؟.

تقوم عقيدة القضاء والقدر على الإيمان . بأن هناك إرادة عليا فوق إرادة الإنسان

فى هذه الحياة فالحياة لا تسير نفسها بنفسها. أن الإنسان لا يتحكم فى مصيره بمفرده وأن أمور الكون منضبطة تماما، لأنها بيد الكبير المتعال. وأن شيئا فى هذا الكون لا يقع إلا بإذن الله وإرادته ولن يبت فى حياتى قرار إلا إذا أمضاه الله.

لكن هذا كله لا يعنى أن الإنسان لا دور له فى هذه الحياة، ولا إرادة له، وأنه فى هذه الحياة كالقشة فى مهب الريح، تحركها فى أى اتجاه تشاء.

فالواقع أن الإنسان هو صانع الأحداث بإذن الله، ولكن الله هو الذى يضع نتائجها.

وهذا هو الذى تشير إليه آيات القرآن: انظروا ماذا قال الله عن المسلمين الذين قاتلوا المشركين فى بدر:

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنفال ١٧).

فالقتال كان من المسلمين ولكن القتل كان من الله، والرمى كان من المسلمين ولكن الإصابة كانت من الله، وفى آية أخرى:

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ (التوبة ١٤. ١٥).

فالمطلوب من الإنسان أن يقوم بواجبه، أما النتائج فيرتبها الله، والواجب هنا : قاتلوهم.

والنتائج : يعذبهم الله، ويخزهم بالهزيمة، وينصركم عليهم، ويشف صدور قوم مؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم، ويتوب الله على من يشاء.

إذن فالإنسان هو الذى يصنع الأحداث، والله هو الذى يرتب النتائج عليها (القضاء والقدر) ولتأكيد هذا الموقف، يضرب الله لنا هذا المثال :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (النحل ١١٢).

فلم يسلط الله عليهم الجوع والخوف إلا بسبب ما صنعوه من ظلم وعدوان وغير ذلك.

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ

طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ (١٧)﴾ (سبأ ١٧).

لاحظ الأفعال الآتية:

أعرضوا... هذا ما صنعوه.

ارسلنا وبدلنا... هذا ما صنعه الله، فلو لم يعرضوا إذن ما فعل الله بهم ذلك.

إذن فالإنسان هو الذى يصنع مقدمة الأحداث، والله تعالى هو الذى يرتب النتائج عليها إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، فإذا اختلفت النتائج دخلنا فى موضوع آخر، هو الابتلاء.

مادام الإنسان هو صانع الأحداث بإذن الله، والله تعالى هو الذى يضع نتائجها وقدرها، فهل يستطيع الإنسان ان يغير مسار الأحداث؟ كأن يحول الهزيمة إلى نصر، والفشل إلى نجاح؟.

الواقع ان الإنسان لا يستطيع ذلك فقط، بل يجب عليه ان يفعل ذلك، وهذا ما فهمه عمر بن الخطاب عندما قال له أبو عبيدة : أتفر من قدر الله؟.

قال عمر : أفر من قدر الله إلى قدر الله.

فإذا كان المرض قدرا له أسبابه، فإن العافية قدر له أسبابه كذلك، وعلينا أن نفر من قدر المرض إلى قدر العافية.

والفهم العميق للمسألة . كما ذكر ابن القيم من قبل . يؤدى بنا إلى ضرورة مدافعة القدر بالقدر، ومعارضة القدر بالقدر، وعندى . فى هذا . نموذجان:

النموذج الأول :

فى غزوة أحد حقق المسلمون النصر فى بداية المعركة ثم خالف الرماة، الذين كلفوا بحماية ظهر الجيش، أمر رسول الله، فانكشف ظهرهم والتف المشركون من خلفهم، وأحدثوا قتلا كثيرا فى صفوف المسلمين (قتل منهم أكثر من سبعين شهيدا) أشهرهم حمزة بن عبد المطلب عم النبى، فلم يستسلم الرسول والمؤمنون القليلون الذين صمدوا معه...

كانت معركة أحد يوم السبت فى النصف الثانى من شوال سنة ٣ هجرية، فلما كان الغد يوم الأحد، أمر رسول الله المسلمين بالخروج فى أثر العدو، فخرج المسلمون على ما

بهم من الجهد والألم وخرج رسول الله مرهبا للعدو حتى بلغ موضعا يسمى حمراء الأسد أقام فيه ثلاثة أيام ثم رجع إلى المدينة.

فى هذه الغزوة نزل قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) ﴾ (آل عمران ١٧٢ . ١٧٣).

وبهذا حولوا الهزيمة إلى نصر معنوى، فلم تحقق قريش اى هدف لها.

النموذج الثانى :

بعد هزيمة ٦٧ لم نستسلم، وقد ضاع سدس أرضنا، وإنما رفضنا الهزيمة ولم نعتبرها قدرا لا فكاك منه، فبعد شهرين أو اكثر قليلا بدانا نعيد بناء الجيش مرة أخرى، وحاولت إسرائيل الاستيلاء على منطقة راس العش فتصدت لها القوات المصرية، وأرغمتها على الانسحاب، ونجح الجيش المصرى فى إغراق المدمرة إيلات، وكانت اقوى قطع الأسطول البحرى الإسرائيلى، وبدات حرب الاستنزاف، وبدانا نضرب فى عمق إسرائيل وتجلت بطولات خارقة للجنود والضباط المصريين...، ثم بدانا نخطط للحرب لطرد إسرائيل، حتى تحقق النصر فى رمضان ١٣٩٣هـ.

وهكذا أستطيع ان اقول من خلال هذين النموذجين:

إن التغيير بدأ من عند الناس، من البشر :

فرفض الهزيمة، ورفض الانكسار، ورفض الاستسلام، رفض كل هذه السلبيات رتب الله عليه نتائج عظيمة فى الحالتين.

وهكذا لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

فالتغيير يبدأ من الناس أولا : إذ لما رفضوا الهزيمة، وفروا منها إلى النصر حقق الله لهم النصر.

إن الفهم الخاطىء لعقيدة القضاء والقدر هو السبب فى كثير من جوانب الخلل فى حياتنا الاجتماعية والعملية:

. نترك حفرة فى الطريق فيؤدى ذلك إلى كارثة.

. عدم الالتزام بقواعد المرور يؤدى إلى كارثة.

. ترك سلك الكهرباء مكشوفا يؤدى إلى كارثة.

. عدم مراجعة قواعد الأمان والسلامة فى النادى وفى المصنع أو فى السيارة يؤدى إلى كارثة.

لو سألت الفاعلين لكل هذه الكوارث :

لماذا فعلتم ذلك؟ ولماذا لم تفعلوا غيره؟

ردوا عليك بكل بساطة : نصيب يا أستاذ!!!! لو ربنا أراد الا تقع الكارثة فلن تقع!!!

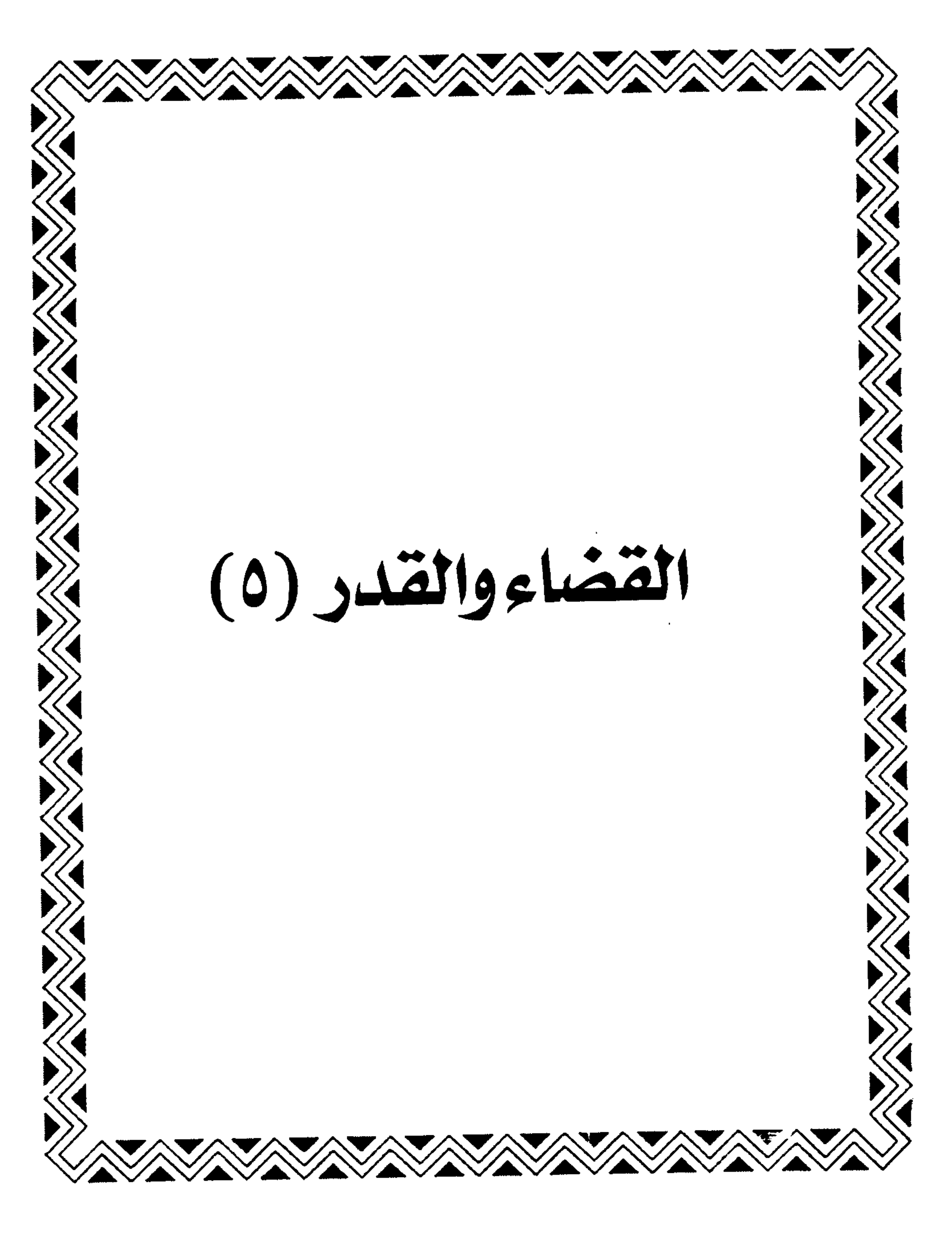
وهذا فهم خاطىء ومضلل، صحيح أن كل شىء بقضاء وقدر، ولكن ليس معنى ذلك أن الإنسان غير مسئول عن عمله، فالإنسان مسئول أمام نفسه وأمام ربه، وأمام المجتمع، ومعنى انه مسئول انه يستطيع أن يفعل ما يطلب منه:

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ (٤١) ﴾ (النجم ٣٩ . ٤١).

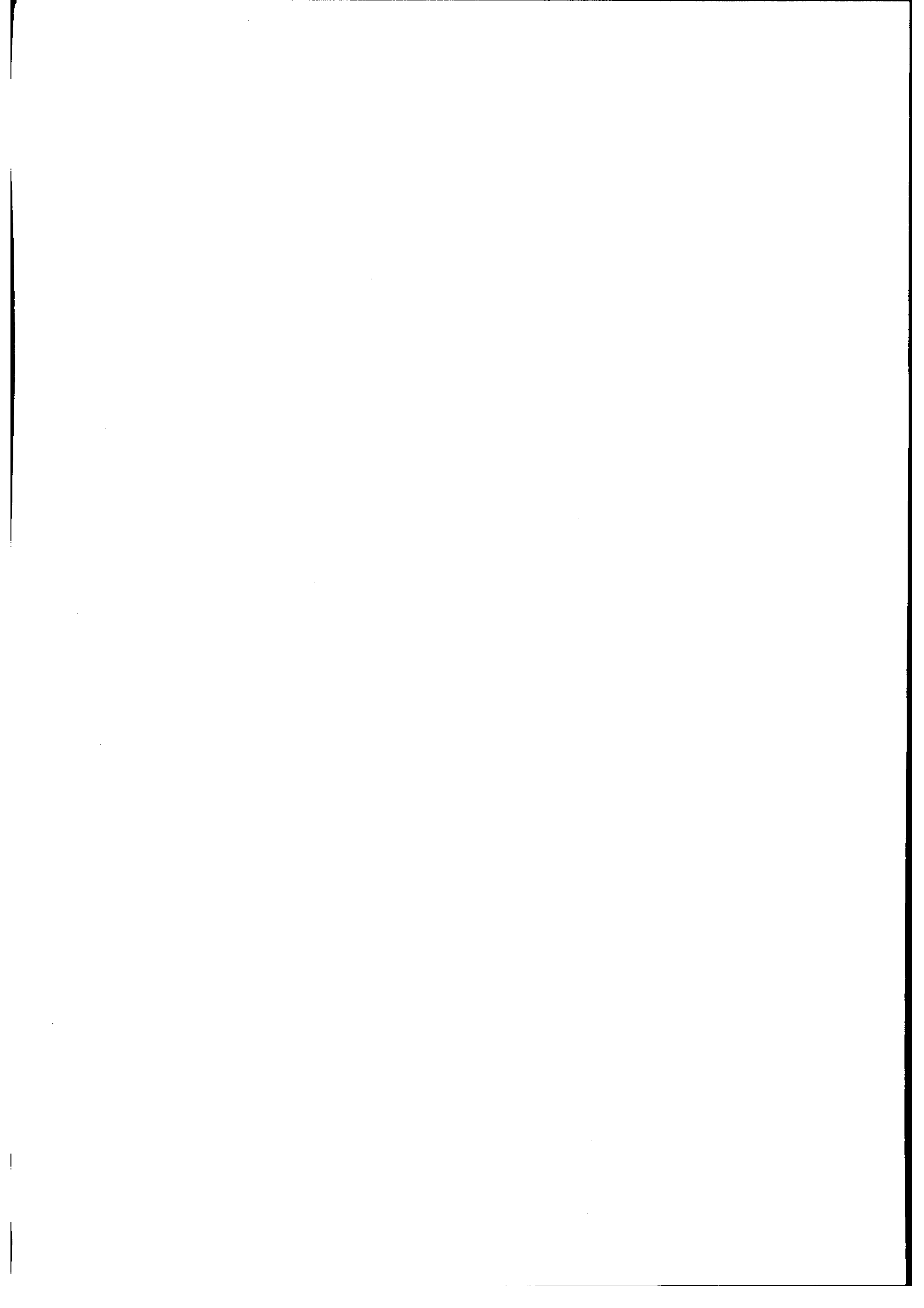
إن عقيدة القضاء والقدر تمنح المؤمن بها قوة فى مواجهة الشدائد والأزمات، والضغوط التى يتعرض لها من هنا أو هناك، فهذه العقيدة تجبر صاحبها على أن يغير القدر بالقدر، وأن يعارض القدر بالقدر، وأن يفر من القدر إلى القدر، وهذه مسئولية الإنسان:

أن يسعى إلى تغيير القدر، وأن يحاول ولا ييأس، وكيف ييأس؟ وقد وعد الله من يفعل ذلك بأن يساعده على تحقيق ما يريد.





القضاء والقدر (٥)



يقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (الحديد ٢٢ ، ٢٣).

سبق أن قلت . من قبل . إن كثيرا من جوانب الخلل فى بنائنا الاجتماعى ترجع إلى الفهم الخطأ لمسألة القضاء والقدر وحيث أصبح القضاء والقدر مسئولا . فى نظر غالبية الناس . عن غالبية مظاهر الإهمال والفوضى والاستهانة بأرواح الآخرين أو ممتلكاتهم أو حقوقهم، بل تعدى ذلك إلى سوء التخطيط، وسوء الأداء فيما يتعلق بالصالح العام.

انظر مثلا إلى بعض الطرق الحديثة التى انشئت، تجد انها لم تعد بالطريقة السليمة التى تواجه بها حالات سقوط الأمطار، أو حالات التكدس، أو حالة مرور سيارة إسعاف تحمل شخصا بين الحياة والموت، ناهيك عن الحفر والمطبات، (والمصدات الأرضية) التى تعمل بطريقة سيئة للغاية، وعندما تسأل لا تجد أحداً يجيبك، فإذا وجدت وحاولت إفهام الناس مدى الخطأ والإثم والجريمة التى تسببوا فيها، تجدهم يقولون لك بألفاظ مختلفة كلمات مثل : (ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن)، يعنى لا فائدة من التعب والاستعداد، والعمل على تجنب المخاطر.

هذه الكلمات وهذا السلوك راسخ ومستقر فى مواطن كثيرة فى بيوتنا ومدارسنا وجامعاتنا ومستشفياتنا... الأمر الذى يطرح السؤال الآتى :

كيف نعالج هذا الوضع الخطير الذى لا يسىء إلى الدين فقط، وإنما يسىء أيضا إلى الدنيا ويؤدى . فى النهاية . إلى إهدار المال العام، وتخريب الاقتصاد الوطنى، وتكريس حالة الضعف والخنوع التى نعيشها اليوم؟.

قبل الإجابة أحسب أننا بحاجة إلى بعض الأمور، كى نتبين الطريق الصحيح:

أولا: إن الخطأ فى الفهم لا يقتصر فقط على مسألة القضاء والقدر التى تشكل جزءا من عقيدة المسلم، وإنما يتجاوز ذلك إلى الدين نفسه، ودوره فى حياة الناس، فما يزال الفهم الشائع للدين بعيدا عن حقيقة الدين وجوهره.

ثانيا: إن هذه القضية قديمة، تحدث الناس فيها قبل الإسلام وبعده، وقد انقسم فيها الناس إلى فريقين.

. فريق يميل إلى القول بأن الإرادة الإلهية تفعل كل شىء، وأن الإنسان كالريشة فى مهب الريح تحركه الأقدار كيفما شاءت.

. وفريق آخر يميل إلى أن الإنسان هو الذى يقرر مصيره وليس آحداً غيره وقد جمع الإسلام بين الرايين على النحو الذى شرحناه، وسنتابع شرحه اليوم.

ثالثا : إننى اتسائل هل من باب المصادفة . أو المؤامرة . أن العالم الذى ننتمى إليه زمنيا وجغرافيا، انقسم إلى شمال وجنوب، شمال يحيا بإرادته الحرة ويقرر مصيره ويصنع حاضره ومستقبله، وجنوب لا يعيش بإرادته، ولا يستطيع أن يقرر مصيره، بل يعيش مستسلما لقدره قانعا بما قسم له.

رابعا : إن هذه القضية استغلت قديما وحديثا لتبرير الأخطاء والإنحرافات، والأوضاع الظالمة حتى اعتبرت هذه الأوضاع بمثابة القدر المسلط على رقاب الناس، ومدح بعض الشعراء أمراءهم بأنهم جاءوا الخلافة أو كانت قدرا لهم، وسمى بعض الأمراء نفسه بالحاكم بأمر الله، إلى غير ذلك من الألقاب التى شاعت فى بعض فترات التاريخ الإسلامى.

وقضية استغلال القدر أو المشيئة الإلهية نبه إليها القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ (الأنعام ١٤٨).

اى انهم غير مذنبين، فبماذا رد عليهم..

﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الأنعام ١٤٨).

ونعود بعد ذلك إلى السؤال :

كيف نعالج هذا الوضع الخطير الذى يسىء إلى الدين والدنيا، ويكرس حالة الضعف والتخلف التى نعيش فيها؟ فى تصورى أن العلاج يشتمل على أمرين :

الأمر الأول : تصحيح مسار الفكر (هذا هو التغيير الثقافى).

الأمر الثانى : تطبيق مبدأ الثواب والعقاب (هذا هو التغيير بالقانون).

وكلا الأمرين مطلوب بنفس الدرجة والأهمية، وإن كنت أتصور أن الثانى منهما قد يسبق الأول من حيث التنفيذ، إلا أنه مع ذلك سيظل الأمر الأول أكثر أهمية، فتصحيح مسار الفكر وأقصد به الإنتقال من ثقافة السلبية إلى ثقافة المسئولية، وثقافة المسئولية تقوم على أن الإنسان مسئول عن نفسه، عن مصيره، عن فشله ونجاحه، عن نصره وهزيمته، هو المسئول أولا، وليس القدر، وليس الظروف المحيطة، وليس كذا وكذا.

والقرآن الكريم يقرر هذه المسئولية فى آيات عديدة :

﴿ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ (٤١) ﴾ (النجم ٣٨،٣٩،٤٠،٤١).

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (المدثر ٣٨).

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الروم ٤١).

﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ (آل عمران ١٦٥).

يظهر من الآيات أن نتائج اى عمل تقع على من يتحمل مسئوليته.

يقول الإمام محمد عبده (دروس من القرآن صفحة ١١٦).

(إذا أسأنا التصرف فى أعمالنا وفرطنا فى النظر فى شئوننا، وأهملنا العقل، وانصرفنا عن سر ما أودع الله فى شرائعه، وغفلنا عن فهمه، فاتبعنا الهوى فى أفعالنا، وجلبنا بذلك الشر على انفسنا، كان ما اصابنا من ذلك صادرا عن سوء اختيارنا) اى ان المسئولية تقع علينا.

ولكى نقوى هذا المعنى فى النفس نتوقف أمام نموذجين عرضهما القرآن الكريم، وهما نموذجان متكرران فى كل البيئات والعصور :

. النموذج الأول (صاحب الجنتين).

.النموذج الثانى (قارون).

فكل منهما أعطاه الله من فضله ما شاء، وكل منهما أساء التصرف فيما أعطاه الله إياه، وكل منهما أهلك الله ما أعطاه له بسبب سوء تصرفه :

فصاحب الجنتين ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ (الكهف ٤٢). و قارون ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ ﴾ (القصص ٨١)..

السؤال هنا : من المسئول عما حدث لهما؟...

ليس أحد غيرهما..

لما أساءا التصرف كان عدلا من الله أن يدمر ما صنعاه، لكن هل كان الله سيدمر ما صنعاه لو أنها أحسنا التصرف، وهنا نخلص إلى القاعدة :

أن الله يرتب الجزاء على العمل ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴾ (الرحمن ٦٠).

أما الاستثناء فهو الابتلاء ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ ﴾ (البقرة ١٥٥)..





القضاء والقدر (٦)

يقول الله تعالى فى كتابه الكريم:

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (الحديد ٢٢ . ٢٣).

ماذا يحدث عندما يغيب مبدأ الثواب والعقاب عن حياة الناس؟..

ماذا يحدث عندما يسوى بين المحسن والمسئ؟..

بين من يعمل ومن لا يعمل، بين من يجتهد ومن لا يجتهد؟..

ماذا يحدث إذا وجد المعتدى من يسانده، ووجد المستقيم من يحاربه ويبعده ويعاقبه؟..

قبل الإجابة أحب أن أنبه إلى أمرين:

الأمر الأول : إن هناك مبادىء إنسانية مشتركة بين الشعوب فى القديم والحديث، مهما اختلفت ثقافاتها وهى جزء من الميراث الإنسانى، الذى قام عليه صرح الحضارة الإنسانية، ومن هذه المبادىء بلا شك مبدأ الثواب والعقاب، الذى يعتبر الآن واحدا من أهم مبادىء الإدارة الحديثة فى العالم فلا تجد عملا ناجحا إلا ووراءه إدارة ناجحة تأخذ بمبدأ الثواب والعقاب.

الأمر الثانى : إن من أهم قواعد الإصلاح فى أى مجتمع ان يتحمل كل إنسان مسئولية عمله فلا يعقل ان يعاقب شخص بسبب خطأ ارتكبه غيره، ولا يعقل ان يدفع أناس فاتورة أخطاء لم يرتكبوها، ولا يعقل أن يجنى أناس ثمرة جهد أناس آخرين.

بعد هذا أعود إلى السؤال:

ماذا يحدث عندما يغيب مبدأ الثواب والعقاب عن حياة الناس؟..

يحدث أمران فى غاية الخطورة:

١ . يفقد الناس رغبتهم فى العمل.

٢ . يموت الإبداع ويقل الإنتاج.

وهذان الأمران يؤديان . بلا شك . إلى تعطيل عمارة الأرض، لأن الله سبحانه وتعالى عندما خلق البشر واستخلفهم فى الأرض طلب منهم ان يقوموا بعمارة الأرض.

يقول الله تعالى:

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ (هود ٦١).

اى طلب منكم تعميرها . والمقابل للتعمير هو التخريب . ولا شك ان من اول مبادىء تحقيق العمران هو مبدأ الثواب والعقاب، فإذا غاب هذا المبدا، فقد الناس رغبتهم فى العمل، وتعطلت مصالح الخلق، وتوقفت مسيرة الإعمار، ومن هنا اهتم القرآن بهذه القضية على اكثر من مستوى:

المستوى الأولى انه امر بالعدل :

ويظهر ذلك فى آيات ومواضع كثيرة فى القرآن الكريم :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل ٩٠).

﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (النساء ٥٨).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (النساء ١٣٥).

﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة ٨).

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (الحديد ٢٥).

المستوى الثانى انه حذر من الظلم :

ويظهر ذلك فى مواضع عديدة فى القرآن الكريم:

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (هود ١١٧).

﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ (الكهف ٥٩).

(يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا) .

المستوى الثالث وهو مستوى النموذج التطبيقى :

فى قصة ذى القرنين :

ذو القرنين ذهب إلى ثلاثة مجتمعات، وفى كل منها قدم نموذجا لما ينبغى أن يكون، وقد اثنى القرآن عليه، وعرض قصته ليتعلم منها الناس.

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ (الكهف ٨٣،٨٤).

لقد ذهب ذو القرنين إلى ثلاثة مجتمعات بشرية:

. المجتمع الأول عند مغرب الشمس فى اقصى جهة الغرب.

. المجتمع الثانى عند مطلع الشمس فى اقصى جهة الشرق.

. المجتمع الثالث بين السدين.

والذى يعنينا هنا هو المجتمع الأول والثانى.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ (الكهف ٨٦).

يعنى تركنا لك حرية التصرف مع هؤلاء الناس، فاختر أنت الأسلوب الذى تراه مناسبا، إما أن تعذبهم . أى تعاقبهم . وإما ان تتخذ فيهم حسنا، أى تحسن إليهم، فماذا قال ذو القرنين؟

﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ (الكهف ٨٧، ٨٨).

هنا يكون ذو القرنين . بل القرآن فى الحقيقة . قد وضع ايدينا على نقطة البداية فى الإصلاح وهى الثواب والعقاب، والقرآن بذلك ينبه إلى أن الإصلاح الاجتماعى يبدأ بهذه القاعدة المهمة.

على هذا النحو تأتى خطبة ابى بكر الصديق . رضى الله عنه . عندما تولى الخلافة، فماذا قال؟

(وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسات فقومونى ، القوى

فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له).

كم يشعر الناس بالطمأنينة والأمان عندما يستمعون من الحاكم إلى مثل هذا الكلام، والحاكم هنا ليس رئيس الدولة فقط، وإنما كل من تولى امرا صار فيه مسئولا عن غيره من عباد الله، من أجل ذلك قرر ابن تيمية.

(أن الله تعالى يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة)، وعندما نخير بين عدل مع كفر، وبين ظلم مع إيمان فإن الاختيار الصحيح هو العدل حتى ولو كان مع الكفر، فهذا افضل من الظلم حتى ولو كان مع إيمان، وبعبارة أخرى عندما نخير بين عدل الكافر، وبين ظلم المؤمن، فإننا سننحاز إلى قيمة العدل لأن العدل هو اساس العمران، والظلم هو أساس الخراب.

كيف إذن نغرس هذا المبدأ فى حياتنا ؟

فى تصورى أن هناك ثلاث مؤسسات لابد أن تتعاون فى هذا الأمر:

. مؤسسة البيت، وهنا يظهر دور الأسرة.

. مؤسسة التعليم، وهنا يظهر دور المدرسة والجامعة.

. مؤسسة الدولة باعتبار انها المؤسسة الأم التى تحتضن كل هذه المؤسسات.

والبداية من مؤسسة البيت، فلابد أن نغرس فى ابنائنا مبدأ الثواب والعقاب منذ الصغر، الثواب إذا أحسنوا، والعقاب إذا أساءوا، وهذا جزء من المسئولية الدينية والاجتماعية، وهى مسئولية الأم والأب قبل اى احد آخر، فأنا اعنى انه لابد من الربط بين ما يأخذه الأبناء وبين ما يقدمونه، فإذا قدموا الحسنة كوفئوا بمثلها ماديا ومعنويا، وإذا قدموا السيئة كوفئوا بمثلها ماديا ومعنويا كذلك.

قل مثل ذلك فى مؤسسات التعليم، وسائر مؤسسات الدولة، فمثل هذا الأسلوب هو الذى يحقق العدالة، ويحفز الناس إلى العلم والعمل، والتطلع إلى بذل الجهد بدلا من انتظار الحظ.

بقى شىء أخير اود أن أشير إليه وهو أن المسئولية تقتضى الحرية، فلا معنى للثواب والعقاب بدون الحرية، فهذه امور مرتبطة ببعضها ولا يمكن الفصل بينها.

❖ ❖ ❖

وما محمد إلا رسول

يقول الله تعالي فى كتابه الكريم :

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران ١٤٤).

ايهما أولى فى نظر الإسلام :

ان يتعلق المسلمون بشخص الرسول صلي الله عليه وسلم.

ام يتعلقوا بدعوته ورسالته التى كلفه الله بها ؟

وما الفرق بين التعلق بشخص الرسول، والتعلق بدعوته ورسالته ؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال أحب أن أؤكد على أهمية هذه المسألة فى حياة المسلمين، بدليل أن القرآن عنى بها، وصحح النظر فيها، حتى لا يقع المسلمون فيما وقع فيه غيرهم من التعلق بشخص النبي أو الرسول حينما قال هؤلاء الأقوام: المسيح ابن الله، أو عزير ابن الله، مما قد يؤثر على عقيدة التوحيد ويوقع فى الشرك، ولذلك نجد القرآن الكريم حريصا على إعلان بشرية الرسول.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ...﴾ (الكهف ١١٠).

وقد حرص القرآن على ذلك كى يقطع الطريق على اية محاولة لتأليه الرسول، لأن ذلك يفسد عقيدة التوحيد ويهدم المنهج الإلهى من الأساس.

كما حرص الرسول صلي الله عليه وسلم أيضا على إعلان هذه البشرية حينما قال:

(لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا، عبد الله ورسوله).

وقال أيضا :

(إنما أنا بشر وأنكم تختصمون إلى،......).

ومن هنا نستنتج أن الرسل هم فى النهاية بشر، يجرى عليهم ما يجرى على سائر البشر من خضوعهم لقوانين الحياة من الولادة والوفاة، ومن الصحة والمرض، ومن الغضب والرضا،....

لكن الجانب الأهم هو الجانب الذى يمتاز به الرسل عن سائر البشر وهو الوحي:

(انا بشر مثلكم، يوحى إلى).

فالزيادة التى عنده ليست منه، وإنما من عند الله، الذى اختاره ليتلقى الوحى، ويبلغ الناس رسالة الله :

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة ٦٧).

﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (المائدة ٩٩).

نعود إلى السؤال:

ايهما اولى فى نظر الإسلام:

أن يتعلق المسلمون بشخص الرسول صلي الله عليه وسلم ؟

أم يتعلقوا بدعوته ورسالته التى كلفه الله بها ؟

والإجابة نجدها فى الآية التى قدمت بها الخطبة :

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ..﴾ (آل عمران ١٤٤).

إن هذه الآية تشير إلى واقعة معينة حدثت فى معركة أحد، حين ترك الرماة مواقعهم فانكشف ظهر المسلمين، والتف المشركون حولهم، واستطاعوا أن يفاجئوا المسلمين الذين لم يتوقعوا أن يهاجموا من الجبل، ومات كثير منهم، وجرح رسول الله ونزفت جراحه، وتفرق المسلمون، وفى هذه الأثناء نادى مناد: إن محمدا قد قتل، فكان لهذه الصيحة أثر شديد علي المسلمين كالتالي :

. وهن أكثر المسلمين وضعفوا واستكانوا من شدة الحزن وتوقفوا عن القتال.

. بعض المنافقين اخذ يقول : لو كان نبيا ما قتل، ارجعوا إلى إخوانكم.... .

. قلة من المسلمين وقفت إلى جوار الرسول تدافع عنه منهم ابو بكر. وطلحة، وابو دجانة.

. انس بن النضر قال :

(يا قوم إن كان محمد قد قتل، فإن رب محمد لم يقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد، اللهم إنى أعتذر إليك مما قال هؤلاء، وابرا إليك مما جاء به هؤلاء ثم أخذ سيفه وقاتل حتى قتل.

هنا تنزل القرآن :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (آل عمران ١٤٤).

إن محمدا رسول من عند الله، جاء ليبلغ كلمة الله، فالرسول ليس مقصودا لذاته فيبقى للناس إنما المقصود من إرساله ما أرسل به من الهداية، وحين قال الله :

﴿ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾ (آل عمران ١٤٤).

اى تراجعتم عن إيمانكم وتصديقكم به وبرسالته، والمقصود هنا ما وقع من بعض المسلمين عندما توقفوا عن القتال، لأنهم أحسوا انه لا جدوى إذن من قتال المشركين، وبموت محمد انتهى أمر هذا الدين، وانتهى أمر الجهاد، ومن ينقلب على عقبيه فهو الخاسر الذى يؤذى نفسه، ويضر بنفسه، ولن يضر الله شيئا، وسجزى الله الشاكرين الذين يشكرون الله على نعمه عليهم، وهى نعمة الهداية والإيمان، ونعمة القوى العقلية والجسمية، والذين يقومون بحقوق هذه النعم فى حياة الرسول، وبعد موته.

هذا هو الشكر الذى فعله أنس بن النضر.

لكن القرآن كان يربى المسلمين ويدربهم على أمر آخر سيقع لهم، الا وهو موت الرسول . صلي الله عليه وسلم . الذى أصيب فيه المسلمون بالدهشة والذهول.

حتى لقد وقف عمر رضي الله عنه فى ركن من مسجد الرسول وهو يقول :

لم يمت رسول الله، ومن قال : إن محمدا قد مات قطعت عنقه بسيفي هذا.

وسكت عثمان.

واختفى على.

واضطرب الأمر.

وفى هذا تقول السيدة عائشة :

لما قبض رسول الله، وأبو بكر عند امراته، جعل الناس يقولون : لم يمت النبي صلي الله عليه وسلم، إنما هو بعض ما كان يأخذه عن الوحى.

فجاء أبو بكر الصديق فكشف عن وجه النبي صلي الله عليه وسلم وقبل بين عينيه وقال :

أنت أكرم على الله أن يميتك فلا والله مات رسول الله، وعمر عند المسجد يقول :

والله ما مات رسول الله، ولا يموت حتى يقطع ايدى الناس وارجلهم، فقام أبو بكر وصعد المنبر وقال : أيها الناس... من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت، ثم قرا الآية:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ... ﴾ (آل عمران ١٤٤).

فقال عمر : لكأنى لم اقراها إلا يومئذ.

فكأنما أراد الله ان يفطم المسلمين عن تعلقهم الشديد بشخص النبي وهو حى بينهم، وان يصلهم مباشرة بالنبع، بالعروة الوثقي، أراد ان يجعل ارتباط المسلمين بالإسلام مباشرة، وان يجعل عهدهم مع الله،وان يحملهم مسئوليتهم أمام الله بلا وسيط، حتى يستشعروا المسئولية.

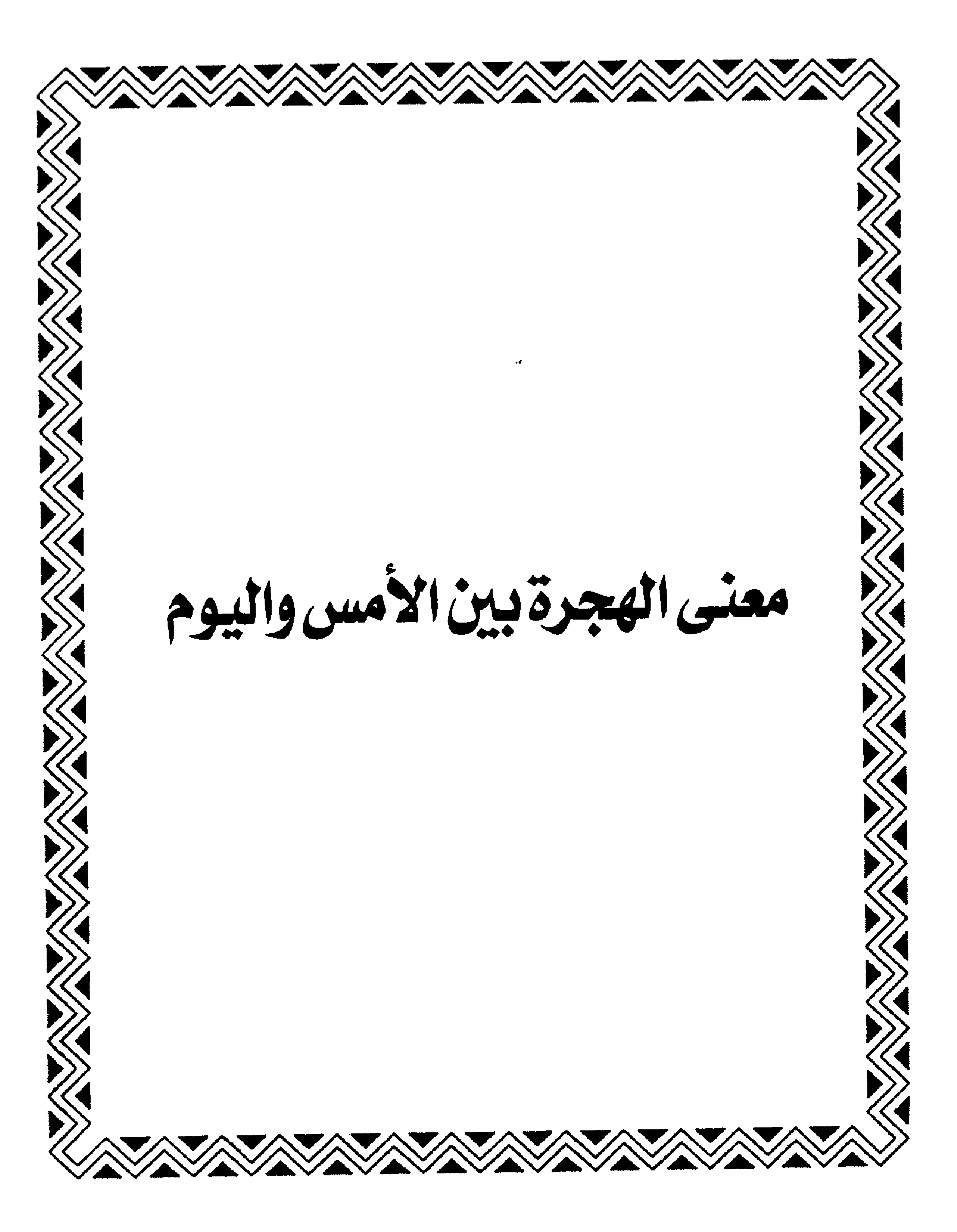
ومن الهداية أو القواعد الواضحة فى الآية:

انه لا ينبغي أن يكون استمرار الحرب وعلامه متعلقا بوجود القائد بحيث إذا قتل ينهزم الجيش او يستسلم للأعداء.

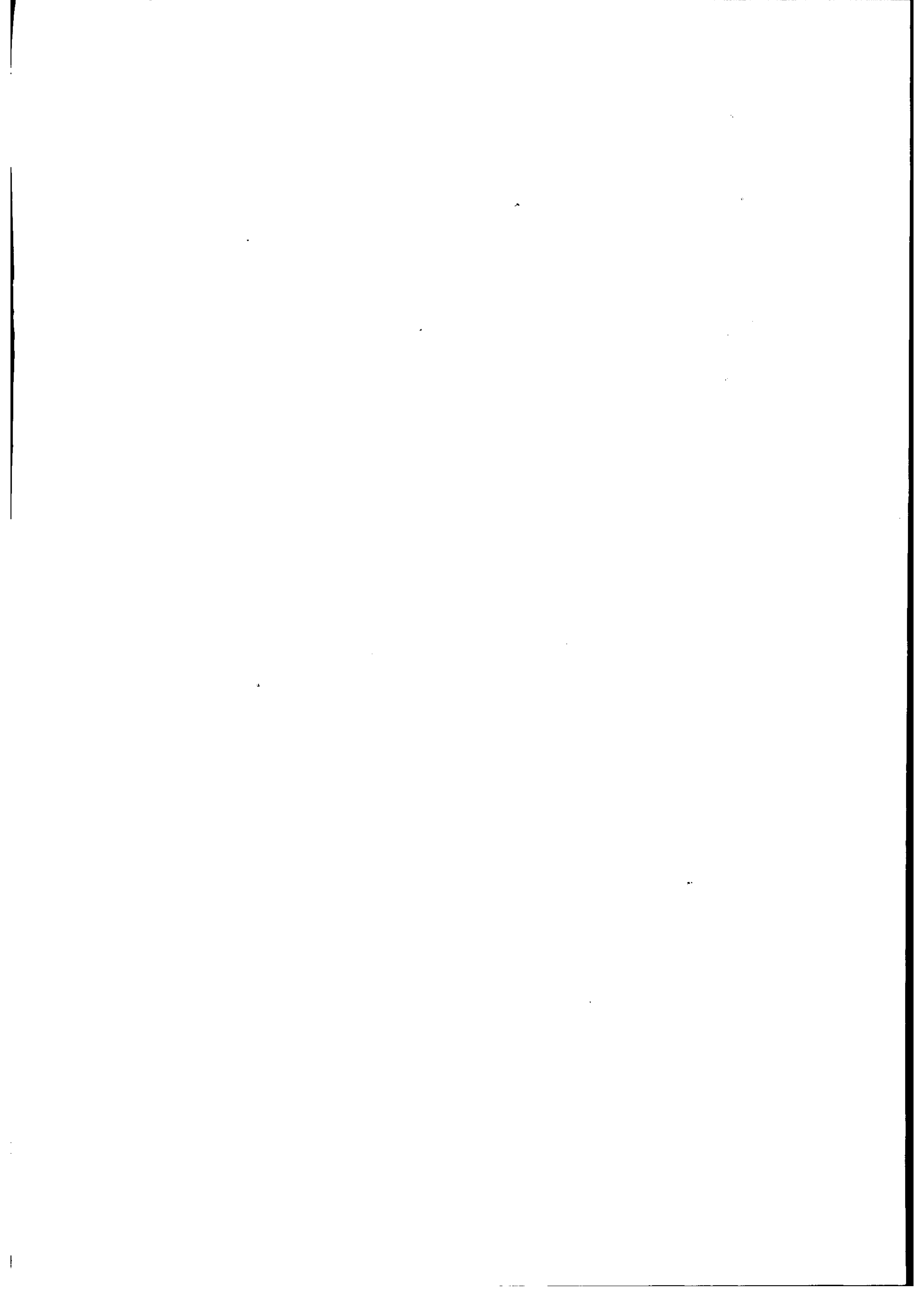
بل يجب ان تكون الأعمال والمصالح العامة جارية على نظام ثابت لا يزلزله فقد الرؤساء والقادة.

وهذا ما يمليه نظام الحروب والحكومات فى هذا العصر، فالأمة التى تقدر هذه الهداية حق قدرها تعد لكل علم او عمل رجالا كثيرين، فلا تفقد معلما ولا مرشدا ولا حاكما ولا قائدا ولا زعيما، إلا ويظهر فيها من يقوم مقامه، ويؤدى لها من الخدمات والأعمال ما كان يؤديه القائد المفقود، فهذه الأمة لا تحصر الاستعداد لشيء من الأشياء فى فرد واحد، ولا تقصر القيام بأمر من الأمور على نابغ واحد من النابغين، ولا يتجرأ فيها حاكم ولا زعيم على احتكار علم من العلوم او عمل من الأعمال، بل تتسابق فيها الهمم إلى الاستعداد لكل شيء يمكن ان يصل إليه كسب البشر، وينال منه العامل بقدر همته وسعيه.





معنى الهجرة بين الأمس واليوم



نودع اليوم عاما هجريا، ونستقبل غدا عاما آخر من عمر أمة الإسلام...

وقد كان العرب قبل الإسلام يؤرخون بأشهر الحوادث التى تقع لهم، فيسمون السنة باسم أشهر الأحداث التى تقع فيها، دون مراعاة رقم السنة، مثلما فعلوا فى العام الى ولد فيه الرسول . عليه الصلاة والسلام . فقد أطلقوا على هذا العام (عام الفيل).

ولم يناقش المسلمون فى بداية الدعوة مسألة التأريخ، لأنه لم تكن هناك حاجة لذلك، فلما اتسعت الدولة فى خلافة عمر، ودونت الدواوين، شعر المسلمون بالحاجة الملحة إلى وضع تقويم خاص بهم ينظم لهم معاملاتهم، فجمع عمر الصحابة واستشارهم فى هذا الأمر فاقترح بعضهم على عمر :

١ . أن يؤرخ من مولد الرسول.

٢ . أن يؤرخ من بعثته.

٣ . أن يؤرخ من وفاته.

٤ . أن يؤرخ من هجرته.

ثم اتفقوا على أن أفضل الأوقات هو وقت الهجرة، فلما أجمعوا على ذلك، اقترحوا عدة شهور لبداية العام، فبعضهم اقترح شهر رمضان، واقترح بعضهم أشهرا أخرى ولكنهم فى النهاية اتفقوا على شهر المحرم، لأنه منصرف الناس من حجهم وهو شهر حرام، فبدأت السنة به وكان فى العام السادس عشر بعد الهجرة.

ولاشك أن التاريخ الهجرى يعتبر مظهرا هاما من مظاهر وحدة المسلمين وتميزهم وارتباطهم بتراثهم وأمجادهم، ومن ثم فنحن نحتفل به كل عام، فلو اننا الغينا هذا التاريخ لما استطعنا أن نؤدى العبادة التى افترضها الله علينا فى مواقيت محددة، فشهر رمضان وذو الحجة موعدان لأداء الصيام والحج.

ومن هنا فإن الواجب علينا نحن . المسلمين . أن نهتم بالتاريخ الهجرى، ولا نقدم عليه تاريخا آخر، فكما يحرص غير المسلمين على تقويمهم، فمن واجبنا ان نحرص

على تقويمنا، لأن هذا التقويم هو جزء من تراثنا، لا يصح أن نفرط فيه أو أن نتنازل عنه أبدا.

هذا عن التاريخ الهجرى.

ولكن ماذا عن الهجرة ذاتها؟ وبمعنى آخر لماذا اتخذ الصحابة الهجرة كبداية للتقويم؟

الهجرة كانت أهم حدث فى تاريخ الإسلام، إذ تحولت الدعوة الإسلامية إلى كيان سياسى وأصبحت هناك أرض إسلامية، ونواة لدولة إسلامية ومجتمع إسلامى بقيادة الرسول . صلى الله عليه وسلم . الذى بدأ بإقامة دعائم المجتمع الإسلامى الجديد، فبنى أول مسجد بالمدينة، وآخى بين المهاجرين والأنصار، وعقد معاهدة مع اليهود الذين كانوا يقيمون بالمدينة، وهى المعاهدة التى اتفق فيها المسلمون مع اليهود على الدفاع عن المدينة إذا ما هاجمها أى أعداء من خارجها.

وكل هذه الإجراءات كانت بداية لسقوط معسكر الكفر، ودخول الناس فى دين الله أفواجا، فلم تمض إلا سنوات قليلة حتى فتحت مكة، فقد كانت الهجرة النبوية فتحا كبيراً للدعوة الإسلامية ومن ثم جاء اختيار الصحابة لبدء التأريخ والتقويم الإسلامى بها.

ومن ناحية أخرى فإننا يجب أن ننظر إلى هجرة النبى . صلى الله عليه وسلم . على أنها نموذج مثالى للمنهج الإسلامى فى الحياة.

فالمنهج الإسلامى فى الحياة يقوم على الجمع بين أمرين:

١ . الأخذ بالأسباب.

٢ . الثقة فى الله وحسن التوكل عليه.

وهذان الأمران معا هما اللذان يميزان المسلمين عن غيرهم.

فالأخذ بالأسباب فقط والاعتماد عليها وحدها دون استحضار البعد الإيمانى أو الغيبى يؤدى بنا إلى نسيان خالق الأسباب:

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ (القصص ٧٨).

وأيضا التوكل على الله والثقة فى تأييده فقط، دون الأخذ بالأسباب، يخالف منهج الله، الذى أمرنا بالعمل والسعى والجهاد والهجرة فى سبيله.

فكيف طبق الرسول هذا المنهج وهو يعد للهجرة ؟

كيف أخذ بالأسباب ؟

وكيف توكل على الله ووثق به ؟

لقد أخذ الرسول - عليه الصلاة والسلام - بالأسباب، فنلاحظ أنه فعل ما بوسعه لضمان نجاح الهجرة، فقد أعد خطة محكمة قامت على العناصر الآتية:

١ - تحديد وسيلة الانتقال أثناء الهجرة، فالمسافة بين مكة والمدينة كبيرة، ولا تقطع على الأرجل، ولذلك اشترى أبو بكر راحلتين وحبسهما فى داره وأعدهما لوقت الرحيل.

٢ - تحديد أماكن الاختفاء أثناء الهجرة، فقرر الرسول أن يختفى فى غار ثور ثلاثة أيام ثم يواصل الرحلة.

٣ - تحديد موعد الخروج وبدء الهجرة، فاختار الرسول الليل وليس النهار، لأن الحراس الذين يحاصرون داره يكون احتمال غفلتهم أكثر ليلا.

٤ - دراسة رد فعل الكفار فى الساعات الأولى عندما تعرف قريش بخبر خروج النبى - عليه الصلاة والسلام - وقد كلف الرسول عبد الله بن أبى بكر للقيام بهذه المهمة، فكان يتسمع لهما ما يقوله الناس، ثم يأتيهما بالأخبار لتحديد ما ينبغى اتخاذه من قرارات على ضوء المعلومات المتاحة.

٥ - استخدام وسائل للتمويه والتموين، فكان عامر بن فهيرة يرعى الغنم حول الغار فى النهار ثم يأتى بها فى المساء ليشرب ويأكل الرسول وصاحبه، ثم يبيت، حتى إذا خرج عبد الله بن أبى بكر من الغار تبعه بالغنم، ليغطى على آثار اقدامه.

٦ - زيادة وسائل التمويه على الأعداء، فطلب الرسول من على بن أبى طالب أن يبيت فى فراشه، ليوحى للأعداء أنه لم يخرج، حتى يكون عنده وقت كاف للابتعاد عنهم أكبر مسافة ممكنة.

٧ - تحديد الدليل الذى سيقود الركب إلى المدينة، وكان هذا دور عبد الله ابن أريقط وكان مشركا، ولقد فضل رسول الله، نظرا لأهمية نجاح الهجرة، اختيار اهل الكفاءة وليس أهل الثقة.

٨ - اختيار طريق غير مألوفة للعامة، فبعد الخروج من الغار اتجه جنوبا نحو اليمن، ثم اتجه غربا نحو الساحل، حتى إذا وصل إلى طريق لا يألفها الناس اتجه شمالا على مقربة من شاطىء البحر الأحمر فى طريق لا يسلكها أحد إلا نادرا.

وهكذا اتخذ الرسول كافة الاحتياطات التى تضمن نجاح الهجرة فاكتملت كل مقومات النجاح من الناحية المادية.

ولكن الرسول كان يعلم أن ذلك لا يكفى... فلابد من الاعتماد على قوة أخرى فوق جميع الأسباب، وهذه القوة هى قوة الله سبحانه وتعالى، وقد كان الرسول على يقين وثقة تامة من نصرة الله عز وجل، وتظهر مظاهر ذلك فى المواقف التالية:

١ . فى الغار حينما أوشك الكفار أن يروهما، فنجد الرسول يقول لصاحبه :

﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ (التوبة ٤٠).

﴿ما ظنك باثنين الله ثالثهما﴾.

٢ . فى الطريق حينما أوشك سراقة بن مالك أن يلحق بهما، وهنا تجلت قدرة الله وعونه للنبى، فقد غاصت ساقا فرس سراقة وسقط على الأرض، حينئذ أدرك أن هناك قوة عظمى تحمى النبى فاعتذر إليه وقدم لهما الطعام، فقالا : (لا حاجة لنا، ولكن عم علينا الطلب، وصد الباحثين عنا) وهكذا فعل.

لقد كانت الهجرة درسا عمليا من الرسول . عليه الصلاة والسلام . فى التفكير والمنهج الإسلامى الذى يحض . كما ذكرنا سابقا . على ضرورة الجمع فى الحياة بين أمرين :

١ . الأخذ بالأسباب.

٢ . الثقة فى الله وحسن التوكل عليه.

وقد تكون أسبابنا ضعيفة، ولكن لا ينبغى إهمالها، وإنما علينا أن نأخذ بها طاعة لله.

وفى القرآن آيات كثيرة تدل على ذلك...

. انظر إلى مريم رغم ضعفها..

﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ (مريم ٢٥).

. انظر إلى موسى حينما هرب هو وقومه من فرعون..

﴿اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ . . ﴾ (الشعراء ٦٣).

. انظر إلى إبراهيم رغم ضعف صوته..

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً . . ﴾ (الحج ٢٧).

فبلغ الله صوته إلى الآفاق.

فلا ينبغى أن نستصغر جهدنا، مهما كان قليلا، ولكن علينا ان نبذل اقصى ما فى وسعنا ونتوكل على الله بعد ذلك، فإذا فعلنا كنا جديرين بعون الله وتأييده.

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ... ﴾ (الأنفال ٦٠).

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (العنكبوت ٦٩).

إن قرار الهجرة كان قرارا مدروسا من كافة النواحى والجوانب الخططية والتكتيكية والاستراتيجية :

. فمن الناحية الخططية :

قام الرسول . عليه الصلاة والسلام . بوضع خطة متكاملة، كما ذكرنا عناصرها من قبل، ونجح فى تنفيذها.

. ومن الناحية التكتيكية:

لم يهاجر المسلمون مع الرسول دفعة واحدة وإنما تمت عملية الهجرة على دفعات متتالية.

. ومن الناحية الاستراتيجية :

لم تحصر الدعوة نفسها فى مكة، وإنما نظرت إلى الأفق الأوسع، ورأى النبى أن الهجرة ستمنح الدعوة :

. وضعا وموقعا أفضل من الذى كان عليه المسلمون.

. قدرة على ضرب الحصار المفروض عليهم.

. تفعيلاً للطاقات المعطلة تحت الحصار.

إن كثيرا من المسلمين اليوم يتصورون أن الهجرة تكون فقط إلى الخارج حيث الإمكانات والمناخ العملى الأفضل، ولكن الواقع أن الهجرة من الممكن أن تأخذ أشكالا وأنماطا مختلفة.

كما أن الهجرة، إذا كانت مقبولة فى بعض الأحيان، فإنها تكون غير مقبولة فى أحيان، وخصوصا إذا ما كان ذلك فى التخصصات العلمية الدقيقة أو المواقع المؤثرة فى مجالات العلم والعمل المختلفة، فالذى يترك دراسة علمية إلى دراسة أخرى شرعية

يكون قد هاجر خطأ، بل إن ذلك قد يصل إلى درجة ارتكاب الوزر فى حق نفسه وفى حق أمته.

إن الهجرة ليست مقصودة لذاتها، وإنما لما يمكن أن تحققه من نتائج، فإذا أدت الهجرة إلى تفريغ مواقع العلم والعمل وتركها للآخرين المخالفين لنا، كان منهيا عنها، بينما إذا أدت إلى ملء فراغ ينقصنا والانتفاع به، كان مأمورا بها.

وهنا أود أن أشير إلى جرح عميق، عندما نعلم ما كشفه رئيس أكاديمية البحث العلمى، من أن عدد المصريين المهاجرين إلى الخارج بلغ الآن أكثر من ثلاثة ملايين مهاجر!!

وأن ٤٥٠٠٠٠ (أربعمائة وخمسين ألفا) من هؤلاء من حملة المؤهلات العلمية العالية! حيث استقر معظم هؤلاء فى أمريكا، وانجلترا، وكندا، واستراليا، ففى دولة مثل أمريكا يمثل الأطباء والجراحون القادمون من الدول النامية ٥٠٪ من عددهم الكلى، بينما يمثل المهندسون ٢٦٪ من العدد الكلى للمهندسين هناك.

وهنا ينبغى الإشارة إلى بعض الأرقام المفجعة :

. خسرت مصر بسبب الهجرة حوالى ٥٠ مليار دولار حيث إن ما تتحمله الدولة من نفقات لتعليم الفرد حتى يحصل على المؤهل العالى هو حوالى ١٠٠ ألف دولار.

. يوجد ٤١٠٢ عالم وباحث إسلامى فى مختلف علوم المعرفة فى مؤسسات ومراكز أبحاث غربية.

والوجه الآخر للمشكلة الذى يفسر ما سبق هو أن الدول العربية تنفق دولارا واحدا لكل مواطن وذلك فى مجال البحث العلمى، بينما تنفق أمريكا ٧٠٠ دولار، والدول الأوروبية ٦٠٠ دولار لكل مواطن!

كما أن كل مليون عربى يقابلهم ٣.٨ باحث علمى، وتصل هذه النسبة فى الغرب إلى ٤٥٠٠ باحث لكل مليون مواطن!!

والسؤال هنا هو :

(كيف نسترد هذه الكفاءات وكيف نعمل على عدم طرد المزيد منها؟).

❖ ❖ ❖

أهمية القدوة الحسنة (١)

يقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب ٢١).

نعيش هذه الأيام ذكرى ميلاد خير البشر النبى محمد صلى الله عليه وسلم، وتأتى الذكرى علينا هذا العام فى وقت عصيب على العالم كله، وعلى المسلمين بوجه خاص.

أما أن هذا الوقت الذى نعيشه عصيب على العالم كله فنحن نلاحظ أن العالم اليوم قد فقد الأمن والسلام.. وأنه يعيش حالة من الصراع والفوضى التى تهدد الحياة على الأرض، وأن قوى الشر والعدوان قد تجمعت واستكبرت، وأن الحق صار ضعيفا، وأن الباطل صار متبجحا مغرورا، كما عم الفساد وانتشر الضلال.

فى مثل هذه الظروف.. الا يحتاج العالم إلى رجل مثل رسول الله ؟.

يقول (برنارد شو) الكاتب المسرحى الإنجليزى :

(إنى أعتقد انه لو قلد رجل كمحمد مقاليد العالم الحديث اليوم لاستطاع أن يقوم بحل ما يعترض هذا العالم من المشكلات جميعها بصورة تضمن له كل ما يحتاج إليه، وما يبغيه من السلام الشامل والسعادة والاستقرار).

وأما أن هذا الوقت عصيب على الأمة الإسلامية بوجه خاص، فلأن أعداءها قد تكالبوا عليها، وأرادوا بها كيدا، لأنهم يعلمون أن سر هذه الأمة يكمن فى إيمانها بربها واتباعها لسنة نبيه، ألم يخبرنا النبى ذاته عن الحالة التى نعيشها اليوم حينما قال لصحابته :

(يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، فقالوا : أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله، قال : بل انتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل).

بالإضافة إلى ذلك فإن الأمة قد ابتعدت عن الإسلام ومنهج نبيه فى الحياة، فهانت على نفسها وهانت على عدوها، فصار الدم المسلم رخيصا، وصارت الأرض الإسلامية مستباحة، وأصبحنا فى شقاء لن نخرج منه إلا إذا عدنا إلى الرسول وسنته، ولا اقول

عدنا إلى القرآن فالعودة إلى الرسول هى العودة إلى القرآن، فحينما سئلت السيدة عائشة عن اخلاقه قالت :

(كان خلقه القرآن).

كان قرآنا عمليا يمشى على الأرض، فى مثل هذه الظروف جاءت الذكرى العطرة، لتحيى فى النفوس آمالا كبارا فى أن تكون الذكرى فرصة لإصلاح النفس والغير.. فرصة للاعتذار إلى رسول الله، عما وقعنا فيه.... أو عما أوقعنا أنفسنا فيه!

ونعود إلى الآية الكريمة :

﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾.

تشير هذه الآية إلى قضية مهمة فى حياة المسلمين وهى قضية الأسوة أو القدوة، فما من إنسان أو مجتمع إلا وهو بحاجة إلى قدوة يقتدى بها فى الحياة، سواء فى الخير أم الشر، فالإنسان مولع بتقليد غيره، وقضية الاقتداء من أهم القضايا، والاقتداء هو اتباع الأثر، والسير فى نفس الطريق فأنت تستطيع ان تصلح مجتمعا بالقدوة الحسنة، كما انك تستطيع ان تفسد مجتمعا بالقدوة السيئة.

والقرآن أشار إلى ذلك فى مواضع كثيرة، وحتى الأنبياء أنفسهم بحاجة إلى قدوة يقتدون بها فقد قال القرآن :

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ (الأنعام ٩٠).

وفى موضع آخر يقول القرآن :

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (الممتحنة ٤).

ومن نعمة الله على المسلمين انه اختار لهم القدوة :

﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ﴾.

وحينما قال : لقد كان لكم

اى انه خصكم انتم، اى شىء خصكم به الله.

وقوله : فى رسول الله :

المقصود به هو التركيز على جانب الرسالة الذى هو محل الاقتداء.

بينما قوله : أسوة حسنة

يعنى أن الرسول قدوة فى كل شىء تقتدون به، فتجدون المثل الأعلى، تجدون الإنسان الكامل.

ولكننا نلاحظ ان الآية قد وردت فى سياق الحديث عن غزوة الأحزاب، تلك الغزوة التى تجمع فيها المشركون واليهود، وجميع أعداء الدين للقضاء عليه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ (الأحزاب ١٠).

وهذا معناه :

١. أن الاقتداء إنما يكون فى مواطن الشدة، والصبر والضيق اكثر من غيرها.

٢. أن الاقتداء لن يتحقق عمليا إلا للذين يرجون الله واليوم الآخر ويذكرون الله كثيرا.

٣. أن الاقتداء لا يكون فى الأمور الجزئية او الشكلية، إنما الاقتداء الحقيقى والمؤثر هو فى القضايا الكبيرة التى يمتحن فيها صاحبها: فى إيمانه وقوة يقينه.

أنظر إلى رسول الله وقد عرض عليه قومه المال والملك والرئاسة وجميع ما يرغب فيه من أمور الدنيا فماذا قال :

(والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى على أن اترك هذا الأمر، ما تركته حتى يظهره الله او اهلك دونه).

ارايت صورة أحسن من ذلك فى التمسك بالمبدأ والدفاع عن المعتقدات ؟

لماذا لا نقتدى برسول الله هنا ونتمسك بمبادئنا ؟

أينما وجهت بصرك فى صفحات كتاب الرسول فستجده المثل الأعلى.

أنظر إليه فى بيته وهو يعيش عيشة بسيطة، فيمر الشهر والشهران لا يوقد فى بيته نار، وإنما هما الأسودان التمر والماء.

أنظر إليه وهو يعامل اصدقاءه وأعداءه، فكان يقول لأصحابه :

(لا يبلغنى أحدكم عن أحد من أصحابى شيئا، فإنى أحب ان أخرج إليكم وأنا سليم الصدر).

أما أعداؤه فكان يقول عنهم :

(اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون، وإنى أرجو الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً).

انظر إليه وهو يعامل زوجاته، ويوصى بالنساء خيرا، ويقول :

(اتقوا الله فى الضعيفين، المرأة واليتيم).

وكان ينهى عن ضرب النساء فقيل له :

إنهن قد فسدن.

فقال : (اضربوهن ولن يضرب خياركم).

وكان يقول : (خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى).

ويقول لإحدى زوجاته : (إنى لأعرف رضاك من غضبك).

انظر إليه وهو يعامل خادمه، يقول أنس :

(خدمت رسول الله عشر سنين، فما قال لى لشىء فعلته لم فعلته؟، ولا لشىء تركته لم تركته)؟

انظر إليه وهو يعامل الناس من يعرفهم ومن لا يعرفهم، فإذا قدم عليه أحد وهو يصلى خفف من صلاته، وأقبل عليه قائلا :

ألك حاجة ؟ فإذا فرغ من حاجته عاد إلى صلاته.

وكان يكرم من يدخل عليه، وربما بسط له ثوبه وآثره بالوسادة التى تحته ليجلس عليه.

وحينما بال أعرابى فى المسجد، والنبى حاضر، سارع بعض الصحابة إلى منعه.

فقال النبى : لا تزرموه أى لا تقطعوا بوله، وأريقوا على بوله بعض الماء فإنما بعثتم ميسرين لا معسرين، ثم قال للأعرابى:إن هذه المساجد لا تصلح لشىء من القذر والبول.

أين نحن من رسوله الله ؟

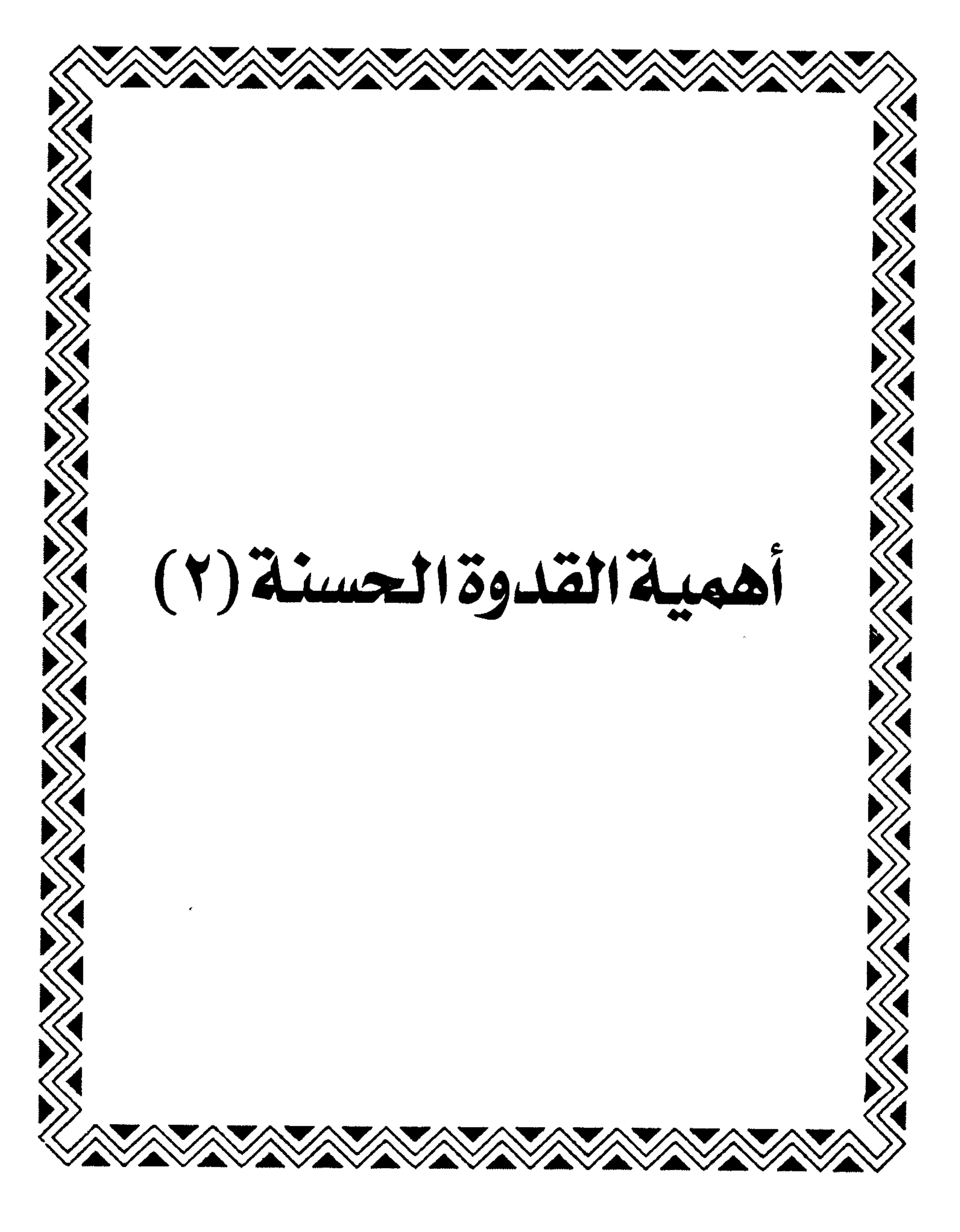
هل لو عاد الرسول بيننا اليوم سيكون سعيدا بنا أم حزينا علينا ؟

لماذا لا نقتدى به فى معاملاتنا مع النفس، والأهل، والأصدقاء، والأعداء، ومع الناس جميعا ؟

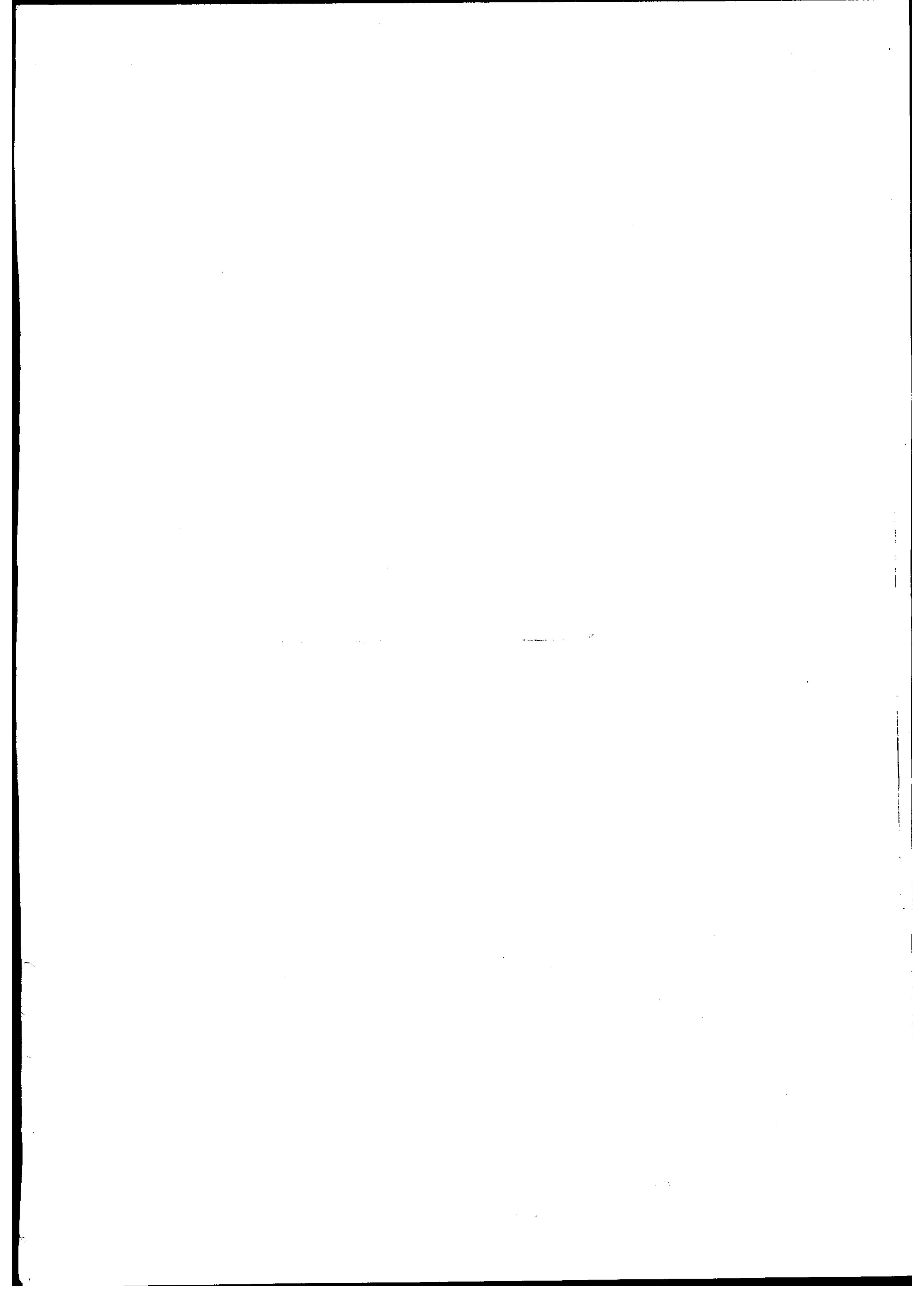
لو فعلنا ذلك لكان لنا شأن آخر يقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

(تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا، كتاب الله وسنتى).

❖ ❖ ❖



أهمية القدوة الحسنة (٢)



يقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب ٢١).

تمر بنا هذه الأيام مناسبة عظيمة، هى ذكرى ميلاد الرسول . صلى الله عليه وسلم . وهذه المناسبة تعد فرصة جيدة لمناقشة قضية من أخطر القضايا فى واقعنا المعاصر.

الا وهى قضية القدوة، أو النموذج الذى نقدمه للناس وخصوصا الشباب كى يقتدوا به فى نواحى حياتهم المختلفة.

وللقدوة أهمية كبيرة فى حياة الأمم والأفراد من عدة نواح :

أولا : أنها من أهم أساليب التربية، ومن أهم وسائل الإصلاح، لأن التربية بالقدوة أنجح من التربية النظرية، فكل منهج تربوى يظل حبرا على ورق ما لم يتحول إلى تجربة بشرية تتحرك على أرض الواقع.

ثانيا : أن القدوة تختصر عنصر الزمن، فبدون القدوة تأخذ عملية التربية والإصلاح زمنا أكبر، إذ يضيع وقت طويل حتى يستقر الناس على النموذج الذى يتطلعون إليه فى حياتهم.

ثالثا : أن لكل أمة قدوة خاصة بها، فالأمم تعيش أجيالا متعاقبة على سير أبطالها المحليين الذين صنعوا لها مجدا وتاريخا بين الأمم، وكلما ارتفع البطل فى مقياس الإنسانية، كانت حياته أشمل وأطول، وأخلد فى ذاكرة الأمة.

رابعا : أن القدوة من وسائل الدفاع عن الذات أمام الآخر، فإذا تنازل مجتمع من المجتمعات عن القدوة الخاصة به والنماذج الحضارية التى تعبر عنه وعن ثقافته وحياته، فكأنه بذلك يفتح الطريق أمام نماذج أخرى مخالفة له، تضعف قدرته على مواجهة أعدائه وخصومه.

فالقدوة إذن عنصر مهم فى حياة الأفراد والمجتمعات، فالفرد حين يسمع أو يرى

أمرا يعجبه فإنه يجد نفسه مدفوعا برغبة خفية إلى تقليد هذا الأمر، ومن ثم اعتبرنا القدوة من اهم وسائل التربية فى المجتمعات.

وقد يحسب بعض الناس ان القدوة لازمة للأفراد العاديين، أما المتميزون من البشر فليسوا بحاجة إلى قدوة، وهذا خطأ كبير، إذ إنه حتى الأنبياء والمصلحون بحاجة إلى القدوة والتأسى بغيرهم ممن كانوا على شاكلتهم، او افضل منهم، تدبروا معى فى سورة الأنعام الآيات من رقم ٨٣ إلى ٩٠ .

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام ٨٣ . ٩٠)

فهذا موكب النبوة من نوح إلى إبراهيم، إلى محمد صلى الله عليه وسلم، يأمر الله نبيه بأن يقتدى بهم، إذن لابد للناس . على كافة مستوياتهم . من قدوة، بدءاً من الطفل الصغير حتى ولى الأمر.

بل إن الأنبياء، وهم الصفوة من البشر ينطبق عليهم القانون نفسه، لأن الإنسان اضعف من أن يواجه الحياة بمفرده، لذلك يحتاج دائما إلى أن يتعلق بنموذج عملى يستمد منه القوة والثبات والتحدى، الم يقل الله تعالى لنبيه:

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ . . . ﴾ (الأنعام ٣٤).

وقد يحسب بعض الناس أن القدوة امر واجب على الرؤساء والزعماء فقط، وهذا خطأ كبير...، لأن الإسلام لا يجعل التربية مجهودا فرديا، وإنما يجعلها منهجا شاملا يبدأ بولى الأمر ولا ينتهى عنده، فالتربية بالقدوة عملية شاملة تشمل :

. قدوة الأبوين.

. قدوة الأخ الأكبر فى الأسرة.

. قدوة المعلم فى المدرسة.

. قدوة المجتمع بجميع أفراده ومؤسساته.

والرسول وضعنا جميعا أمام المسئولية حينما قال :

(كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع.. والمراة راعية.. والخادم راع وهو مسئول عن رعيته، الا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته).

إذا كانت هناك مجتمعات تبحث عن قدوة لها، فإننا نحن المسلمين لا نعانى من هذه المشكلة، فالقرآن الكريم قد حدد لنا النموذج الحضارى والقدوة التى نستوحى منها كل أعمالنا وتصرفاتنا.

﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾.

والأسوة هى القدوة، والقدوة هنا هى رسول الله بنص القرآن، ولئن كانت النبوات السابقة تشكل قدوة محلية، فإن نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تشكل قدوة عالمية طبقا لعالمية الرسالة (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) بالنظرية والتطبيق معا.

ومن ثم كانت قدوة الرسول متميزة عن غيرها من القدوات بحكم تميز الرسالة نفسها عن غيرها من الرسالات، وعندما ننظر فى سيرة الرسول القدوة نجد اننا امام شخصيات اجتمعت فى شخص واحد، كل منها كامل فى ذاته، فنحن نجد أنفسنا أمام النموذج الآتى :

١ . رجل يفيض حيوية وقوة، يمشى وكأنما يتقلع من الأرض تقلعا، والتقلع هو الارتفاع عن الأرض، وهى مشية أولى العزم والهمة والشجاعة.

٢ . نحن أمام رجل يحارب كالعاصفة، لا يرده شىء، قال على : كان أشجعنا إذا حمى الوطيس.

٣ . ونحن أمام رجل يتزوج ويستمتع بطيبات الأرض كواحد متفرغ لذلك المتاع.

٤ . وأمام رجل يسلم على الناس بجميع يده وفى حرارة وقوة.

٥ . رجل يرضى فيعرف أصحابه السرور فى وجهه.

٦ . ويغضب فيبدو الغضب على وجهه.

٧ . رجل سياسة من الطراز الأول.

٨ . ورجل حرب يضع الخطط ويقود الجيوش، يحارب وينتصر.

٩ . رجل هو اب كأحسن ما يكون الآباء :

وإذا رحمت فانت ام او اب   هذان فى الدنيا هما الرحماء

١٠ . رجل هو زوج كأحسن ما يكون الأزواج، وكان فى سيرته مع أزواجه حسن المعاشرة وحسن الخلق، وكان يقول :

(خيركم خيركم لأهله، وانا خيركم لأهله).

وكان يقول :

(استوصوا بالنساء خيرا فإنهن عوان عندكم).

وكان رجلا لا تشغله مسئولياته عن رعاية زوجته.

١١ . كان فى كلامه افصح خلق الله واعذبهم كلاما، واسرعهم أداء واحلاهم منطقا، حتى إن كلامه يأخذ بالقلوب ويسبى الأرواح، ويشهد بذلك أعداؤه.

١٢ . كان رجلا منقطعا للعبادة، يقوم الليل حتى تتورم قدماه، ومع ذلك لا يقصر فى حقوق الناس، وكان يقول : (إن لربك عليك حقا، وإن لأهلك عليك حقا، وإن لبدنك عليك حقا، فأعط كل ذى حق حقه).

١٣ . كان رجلا وسع الناس خلقه فصار لهم أبا، وصاروا عنده فى الحق سواء، ولما مرت جنازة يهودى امامه، وقف لها، فقال بعض أصحابه: إنها جنازة يهودى، فقال : أليست نفسا ؟

رجل بهذه الحيثية لو وضعت امامه مشاكل العالم لاستطاع أن يحلها جميعا صلى الله عليه وسلم.

❖ ❖ ❖

فهرس الموضوعات